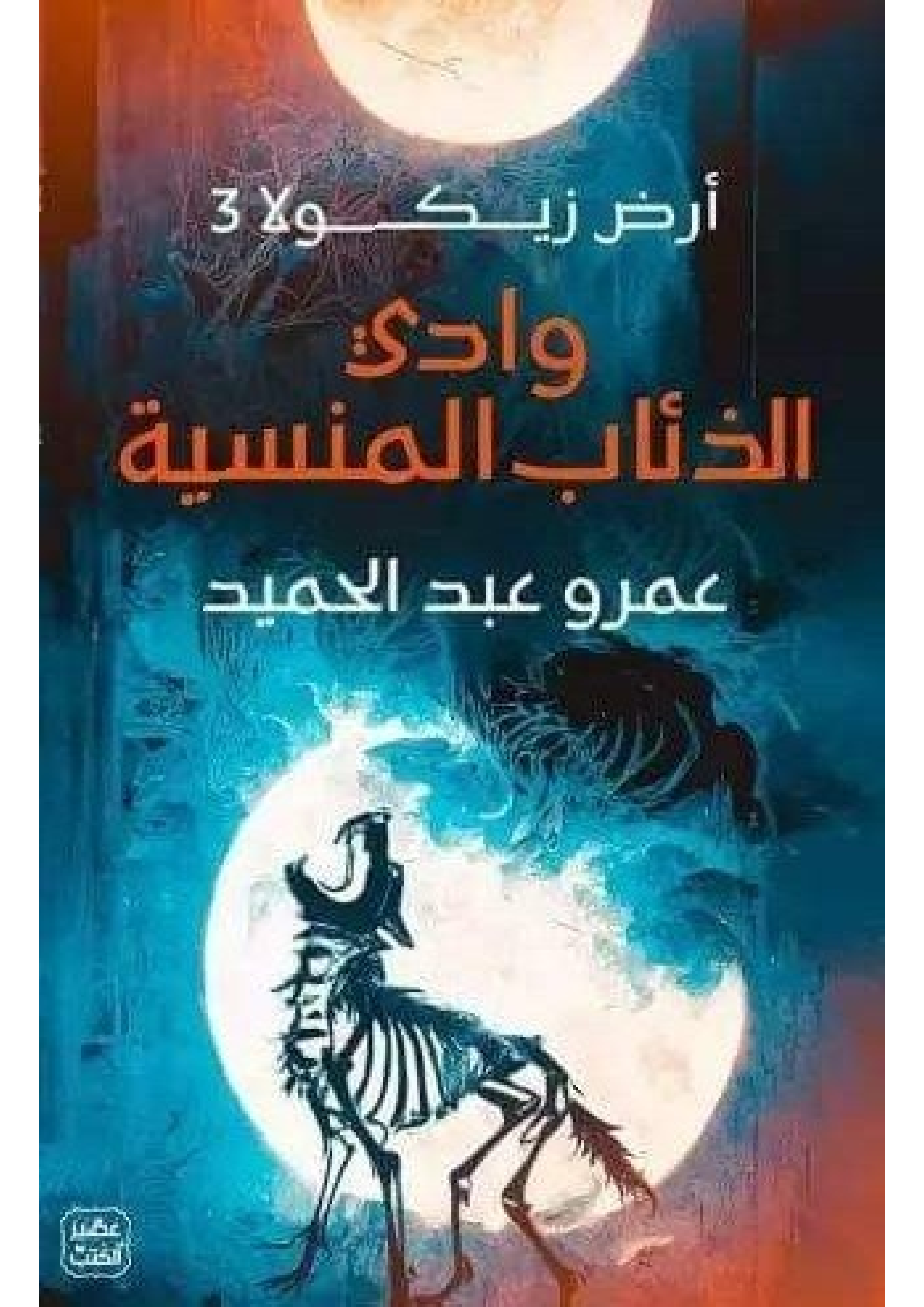

أرض زيكولا 3
وادي الذئاب المنسية
عمرو عبد الحميد
عصير الكتب

1

قرية البهو فريك - الدقهلية 1921م:

اسمي موسى، عمري ثمانية عشر عامًا، الابن الأخير لأبي وأمي بين تسعة أبناء تبقى منهم ثلاثة فقط على قيد الحياة؛ أنا وأختان تكبرانني سنًّا، وُلدت سنة 1903م في يوم وفاة جدتي، ظنَّ أبي أنَّ ذلك شؤمًا إضافيًّا مع موت إخوتي تباعًا بالمرض، لكن -على عكس ما توقع- كنت ذكره الوحيد الذي نجا من الموت في طفولته. تعلمتُ في كُتَّاب الشيخ مصطفى، وهناك أتممتُ حفظ القرآن الكريم كاملًا في سن التاسعة. وفي المدرسة الابتدائية بلغت السنة الخامسة قبل أن أترك التعليم رغمًا عني مع وفاة أبي؛ كي أرعى شئون أرضنا الزراعية بعدما صرتُ مسئولًا عن أمي وأختَيَّ.

❁❁❁

بعد عامين من وفاة أبي رحلت أمي عن عالمنا هي الأخرى، ومع رحيلها صار الخروج من قريتي هو حلمي الوحيد، وإن كنت أدرك في داخلي أنَّ ذلك الحلم سيبقى مؤجلًا إجباريًا إلى يوم إتمام زواج أختَيَّ. نعم، بربما ما سأبيع قطعة أرضي التي ورثتها عن أبي، وسأرحل إلى القاهرة التي أسمع عن جمالها في راديو الشيخ عباس، أو ربما إلى «بلاد برة» إن عطف عليَّ الخواجة فايز، واصطحبني معه إلى إحدى مدن أوروبا التي سمعنا أنه يعرف كل شارع فيها.

الخواجة فايز رجل أربعيني أنيق، أبيض الوجه، رمادي العينين، يتحدث المصرية أفضل منّا جميعًا، ظهر في القرية فجأة بسيارته السوداء أمريكية الصنع قبل سبع سنوات، ووقتها عرفنا أنه الوريث الشرعي لحوض الأراضي الشرقية وطاحونة الغلال التي توجد في وسط ذلك الحوض. ظنّ أهل القرية مع ظهوره المفاجئ أنّه سيعيد تشغيل طاحونة أجداده التي نشأنا لنجدها مهجورة، جدرانها متآكلة تغطيها رقعٌ متناثرة من الطحالب الخضراء، ويغلقها بإحكام باب حديدي كبير ذو قفل قديم. ولولا تلك الطوبة التي سقطت من جدارها الشرقي لتترك في موضعها فتحةً صغيرة تُمكّن المتطفلين من النظر عبرها وقت انسلال أشعة الشمس إليها، لظل ما في داخلها معزولًا تمامًا من عالمنا.

نظرتُ أول مرة عبر تلك الفتحة وأنا في عمر الثامنة، ويومها رأيتُ بالكاد قادوس[1] الطاحونة الضخم المغطّى بأكوام من الأتربة، وأجزاء من ذراعها الخشبية الطويلة الممتدة بين شباك العناكب الكثيفة، ولم أهتم بعد ذلك بالنظر عبرها مرة أخرى.

قال البعض إنّ تلك الطاحونةَ بُنيَت منذ مائة عام، وقال آخرون إنّ غرفتها المُشيدة من الطوب المنجور كانت موجودة قبل ذلك بكثير، وعندما اشترى جد الخواجة فايز أراضي الحوض الشرقي أتى بالطاحونة إلى داخلها كي تطحن غلاله وغلال القرية، إلا أنّها لم تطحن حبة دقيق واحدة، وبقيت تلك الغرفة مُغلقة يأكلها الزمان، لتصبح القصص المرعبة المنتشرة حول وجودها هي تسلية أطفال قريتنا في ليالٍ كثيرة.

على أي حال، لم يُجدد الخواجة طاحونته بعد ظهوره من جديد، واكتفى بزيارات متقطعة لمزارعي القرية المسئولين عن زراعة أرضه، ومع كل زيارة له ورؤيتي سيارته كان الحلم في داخلي يطفو من بين أعماقي، ويحثني على الذهاب إليه كي أحدثه عن رغبتي في التنازل له عن قطعة أرضي المجاورة لأرضه مقابل أن يساعدني في السفر إلى خارج البلاد بعد زواج أختي، إلا

(1) وعاء كبير قمعي الشكل يُلقى فيه الحب عند الطحن.

أنني لم أجرؤ على تلك الفعلة قَطُّ، بل لم أتحدث إليه وجهًا لوجه مرةً واحدة، حتى اختفى مرة أخرى وانقطعت أخباره من جديد.

❁❁❁

مع بلوغي الثامنة عشرة كنت قد أتممت زواج أختَيَّ، وعلى الفور عرضت قطعة أرضي للبيع كي أهاجر إلى القاهرة في أسرع وقت. كانت الأمور جميعها تسري على ما يرام، وكنت على وشك إتمام البيعة لأحد جيراننا، لولا حريق مفاجئ اندلع في قريتنا فجأة ليلتهم أرضي وأرض الخواجة والأراضي المجاورة، ومعه شبَّ أكبر شجار شهدته قريتنا في تاريخها بعد إلقاء التهم بين أكثر من عائلة، وقبل أن يمر أسبوع واحد كان قد قُتل من القرية تسعة عشر رجلًا في إثر تلك الاشتباكات، لنُفاجأ في اليوم الثامن بما لم يتوقعه أحد قَطُّ، وهو وصول فرقة عسكرية من الهجانة إلى قريتنا على جمالهم.

كان عددهم ثلاثين فردًا يصطفون بجمالهم في سبعة صفوف، جميعهم ذوو بشرة سمراء، تندس رؤوسهم في عمم بيضاء، عدا قائدهم كان أبيض الوجه، ويرتدي طربوشًا فوق رأسه، وكما سمعنا عنهم دومًا، كانت أياديهم تحمل سياطًا قاسية، ويعلّقون على ظهورهم بنادق ذات فوهات طويلة، ما إن دلفوا إلى مدخل القرية حتى بدأ بعضهم في إطلاق أعيرة نارية نحو السماء، بينما أخذ الباقون يضربون بسياطهم من فوق جمالهم من كانوا يقفون في طريقهم، ليسوقوا الناس أمامهم إلى ساحة واسعة تتوسط القرية، وهناك أعلن لنا قائدهم عن فرض حظر تجوال من غروب الشمس حتى شروقها كل يوم، وعن الويل الذي سيلقاه كل من تسوِّل له نفسه الخروج من بيته في ذلك التوقيت، لتخمد اشتباكات القرية فجأة، ويسودها السكون بعد سبعة أيام من الفوضى ووقف الحال.

في تلك الليلة لم أستطع النوم مطلقًا، ومكثتُ في غرفتي المُطلة على الشارع يرتعش جسدي خوفًا كلما سمعت صوت بارودة تُطلق أو رغاء جمل يتجول به راكبه على مقربة من نافذتي، وأدعو الله في سري أسفل غطائي أن يمكّنني من إتمام بيع الأرض في أسرع وقت لأنفذ بجلدي من تلك القرية، بيد

أنّ ما جعلني أنتفض عن سريري حقًا هو صوت محرك السيارة الذي لطالما عرفته، والذي ظهر فجأة مع عبور الوقت منتصف الليل؛ صوت محرك سيارة الخواجة فايز!

فتحتُ نافذة غرفتي الخشبية في حذر، كانت السيارة تنطلق إلى داخل قريتنا مُخلفة وراءها غبارًا كثيفًا، أغلقتُ النافذة سريعًا عندما سمعت همس أقدام جمل يقترب، ولم تمر بضعة دقائق بعدها حتى سمعت أصوات الطلقات النارية المتتالية تدوي في السماء، كاد قلبي يتوقف، هل قتلوا الخواجة؟! لم أستطع التحرك من مكاني لمعرفة الحقيقة، ولم أجرؤ على فتح النافذة مرة أخرى، كان حديث قائد الهجانة بأنّهم لن يتهاونوا مع أي شخص يخرق حظر التجوال واضحًا، مثلما أكّد أنّهم لن يغادروا القرية حتى يستقر الأمن مرة أخرى.

توقعتُ في داخلي وأنا أفكر في مصير الخواجة فايز أنّ بقاءهم بيننا لن يقل عن أسبوعين بكل حال من الأحوال، وأكملت ليلتي مستيقظًا أنتظر حلول الصباح في أسرع وقت لعلي أعرف ما جرى للخواجة، إلا أنّ ما حدث في الصباح كان مفاجئًا للجميع، إذ خرجنا من بيوتنا مع شروق الشمس ولم نجد جنديًا واحدًا. كانت الجمال فقط تركض في الشوارع بدون أصحابها، وسيارة الخواجة تقف خاوية في إحدى الطرقات دون خدش واحد أو نقطة دماء واحدة داخلها، تلفّتنا إلى بعضنا بعضًا في دهشة، وتوقع بعضنا أن يكون الجنود نائمين هنا أو هناك بعد قضائهم ليلتهم مفتوحي الأعين لحفظ الأمن، وغالبًا سيكون الخواجة محتجزًا لديهم بعد خرقه حظر التجوال. لكن مع مرور ساعات النهار تأكدنا -بكل معنى الكلمة- أنّ تلك الفرقة من الجنود قد اختفت تمامًا من قريتنا.

2

أصابتنا الحيرة جميعًا من اختفاء الجنود الغريب، وقررتُ أنا وبعض الشبان البحث بدقة من جديد في كافة أنحاء القرية لعلَّ هناك شيئًا نكتشفه يخص الهجّانة أو الخواجة فايز، غير أنَّ بحثنا باء بالفشل، ولم نعثر على أثر واحد لهم، ثم عدنا إلى حيثما بدأنا، فوجدنا الأهالي قد أمسكوا بالجِمال وقسّموها على أنفسهم، قالوا إنهم وجدوا تسعة وعشرين جملًا فقط، أما الجمل المتبقي فادَّعوا عدم عثورهم عليه. لم يكن لشاب وحيد مثلي نصيبًا من تلك الغنيمة بالطبع، وإن لم أهتم بهذا الأمر من الأساس.

***

خلال اليوم التالي واليوم الذي يليه، كان الحذر الشديد لا يزال يعم القرية، إذ ظنَّ بعضنا أنَّ ما يحدث اختبار ما لنا، وأنَّ الجنود سيظهرون مرة أخرى في أقرب وقت، لذلك أعلن عمدتنا عن تدوينه أسماء آخذي الجِمال، محذرًا إياهم من أي ضرر يصيب خليةً واحدة منها، وإلا كان السجن مصير مُسببه. أما السبب الآخر لاستمرار الحذر بيننا هو أنَّنا كنا نتوقع قدوم فرقة أخرى من الهجّانة لتبحث أمر اختفاء الفرقة الأولى، وعلى أقل تقدير ستستعيد جِمالها جملًا جملًا، وربما تحمَّلنا ثمن الجمل المفقود، لذا لم يكن غريبًا أن تبقى اشتباكات القرية خامدة وإن لم يكن ثمَّة جندي واحد بيننا، حتى الأحاديث والنقاشات التي ظلت مشتعلة لأيامٍ حول أمر الحريق تحولت جميعها إلى ما حدث لأولئك الجنود.

مع اليوم العاشر من الحذر والترقُّب لم يحدث أي جديد، ولم يأتِ إلى بلدتنا أي فرقة أخرى أو حتى شرطي واحد يبحث أمر اختفاء الهجّانة. ومع

صباح اليوم الخامس عشر أعلن رجل من آخذي الجمال يُدعى «منصور» أنه قام بذبح جمله لمن يريد أن يشتري لحمًا، ظهر القلق على وجوه الجميع في البداية، لكن مع منتصف النهار كانت الذبيحة قد بيعت بالكامل، وفي الأيام القليلة التالية قام الآخرون بذبح جمالهم للبيع تباعًا، أو بيعها بسوق المواشي القائم بقرية مجاورة، أما سيارة الخواجة فدفعها ثلاثة مزارعين ممن يزرعون أرضه إلى جانب بيت أحدهم، والذي تعهَّد بحمايتها ونظافتها حتى يعود الخواجة من جديد.

***

مع اقتراب مرور شهر على تلك الليلة الغامضة، أخبرني من كان ينوي شراء أرضي بصرف نظره عن الأمر مع الخسارة التي تكبَّدها من حريق محصوله، ونصحني بالبحث عن مشترٍ آخر. زادني الأمر ضيقًا لإجباري على الانتظار مزيدًا من الأيام، لكن بعد ثلاثة أيام أبلغني رجل ممن باعوا جمال الهجَّانة عن رغبته في شراء أرضي مقابل ثمانية جنيهات، وافقتُ على الفور، وفي مساء ذلك اليوم ذهبت معه هو ومسَّاح من قرية مجاورة إلى الأرض لقياس مساحتها قبل إتمام البيعة، تحدثنا ونحن في الطريق إليها عن مرور شهر بالتمام والكمال على اختفاء الجنود، وعدم حدوث أي رد فعل من الشرطة أو الحكومة وكأنَّ شيئًا لم يحدث، قال المسَّاح إنَّه يؤمن بأنَّ الحكومة ستأتي إلى القرية عاجلًا أم آجلًا، وقد اتفقنا معه في ذلك الأمر، ثم غيرنا مسار حديثنا إلى سفري المُنتظَر إلى القاهرة حتى وصلنا إلى الأرض، وهناك بدأ المسَّاح في أخذ قياساته ومعه المشتري، فتركتهما وجلست أنتظرهما عند ضفة الترعة الشرقية، وأخذت أنظر بعيدًا نحو مبنى الطاحونة، لربما تكون المرة الأخيرة التي أراه فيها، ثم شعرت برغبتي في التبول فيما كانت امرأتان تزرعان أرضًا بجواري، فسِرتُ نحو الطاحونة كي أقضي حاجتي وراء جدارها بعيدًا عن أعين النساء، ليلفت نظري -بينما كنت أتبول- أثر حذاء مطبوع بوضوح على الأرض على بُعد أقدام من الطاحونة، كأنَّ صاحبه غُرِس في ذلك الموضع، استغربتُ لوهلة، ثم صرفت اهتمامي عنه، وأكملت نظري

إلى مائي المتدفق نحو جدار الطاحونة، لكنّي عدتِ ببصري مرة أخرى نحو ذلك الأثر، واقتربت منه بعدما دار في رأسي أنّ أغلب المزارعين يجوبون هذا الحقل حفاة الأقدام، وأنّ نقشة ذلك الأثر الواضحة التي تشبه ثلاثة شموس متجاورة بأشعتها يحيطها إطار مكتمل ليست إلا لحذاء غالٍ لا أعتقد أنّ أحدنا يستطيع شراءه.

نظرتُ إلى الجدار أمامي وأنا أتذكر الأحذية العسكرية طويلة العنق التي كان ينتعلها جنود الهجّانة، ثم درتُ في حذر حول الطاحونة، كان كل شيء كما اعتدته دومًا، بابها الحديدي مغلق بقفله، الجدران متآكلة مصمتة، حتى الأرض الجافة حولها لم ألحظ فيها أي آثار أقدام أخرى. جالَ في بالي أن أنظر عبر الفتحة الصغيرة الموجودة في جدارها الشرقي رغم يقيني بأنّني لن أرى إلا ظلامًا حالكًا طالما لا تتسل أشعة الشمس المشرقة عبرها، لكنّي سمعت صوت المُشتري يناديني كي أسرع بالذهاب إليهما بعدما انتهيا من قياس مساحة الأرض، فاتجهت نحوهما.

***

عدت إلى البيت بعدما وعدني المشتري بإحضار نقوده في الصباح التالي لإتمام البيعة، خبرٌ مثل ذلك كان من المفترض أن يجعلني أطير من الفرحة، لكنّ ما شغل بالي كليًا هو أثر الحذاء المطبوع بجوار الطاحونة، وكلما حاولت التفكير في شيء آخر وثب الأمر نفسه في رأسي من جديد. لطالما سمعنا في طفولتنا قصصًا مرعبة عن الطاحونة المهجورة، لكن مع بلوغنا أدركنا أنّها ليست إلا محاولات تخويفية من الأهالي لأطفالهم كي لا يقتربوا من الترعة الشرقية ذات العمق الكافي لغرق أي شخص لا يستطيع السباحة، ثم فتحت نافذة غرفتي الخشبية على مصراعيها بعدما ضاق صدري بالهواء من كثرة التفكير، كان القمر في السماء بدرًا مكتملًا مثلما كان في الليلة نفسها التي شهدت اختفاء الجنود، نظرتُ إليه شاردًا وعقلي يواصل ضجيجه، ثم حدثتُ نفسي مؤنبًا:

- لماذا تشغل نفسك بهذه القرية من الأساس؟ غدًا ستأخذ نقودك وتهجرها إلى الأبد.

وأغلقتُ النافذة من جديد، غير أنَّ رأسي لم يهدأ، بل وصل الفضول في داخلي إلى ذروته مع شيوع السكون الأرجاء كافَّة، ووجدتُ نفسي أنظر إلى لمبة الجاز المُعلقة على جدار الغرفة لتضيئها، وقلتُ وأنا أحدِّثها:

- سأذهب إلى هناك لأنظر عبر فتحة الجدار مرة واحدة فقط، مرة واحدة وسأعود في الحال، وغدًا سأذهب إلى العمدة لإخباره بأمر ذلك الأثر.

لكنِّي عدت وجلست على سريري، وأكملتُ إلى نفسي مخوِّفًا لها:

- إلى أين تذهب في هذا التوقيت؟ ألا تتذكر أمر الجنيَّة التي ظهرت لجدك من قبل وقتما كان يروي أرضه بعد منتصف الليل؟ نعم، أخبرتني أمي عن ذلك الأمر مرارًا وتكرارًا، وأنَّ أباها أقسم لها أنَّ تلك الجنيَّة كانت تجلس فوق شجرة قريبة من أرضه ليلتها بشعرها الأسود الطويل الذي تدلَّى من أعلى الشجرة إلى جذعها، ووجهها النحيف ذي العينين العموديتين التي يماثل طول الواحدة منهما حبة موز صغيرة، ولولا ضحكتها الصارخة المفاجئة لما انتبه إلى شعرها المبسوط على الأرض أمامه الذي كاد يدوسه بقدمه، والله يعلم ما كان سيحدث وقتها، ليركض إلى داره يهذي ويرتجف، ولم يكرر ذهابه إلى هناك ليلًا بعد ذلك.

اعقل يا موسى، الصباح رباح، والنهار له عينان، اهدأ يا فتى.

لا، إنَّني أحفظ القرآن كاملًا، سأذهب إلى هناك، وسأقرأ آية الكرسي طوال الطريق، لن يستطيع جن الاقتراب مني، سأقرأها بصوت عالٍ، عالٍ جدًا، قال الشيخ مصطفى إنَّ آية الكرسي تحرق الجن، الشيخ مصطفى لا يكذب، سأقرأها وأقرأ غيرها من الآيات، ومن يريد أن يحترق فليقترب مني، سألقي نظرة سريعة عبر فتحة الطاحونة ليطمئن قلبي أنَّ وجود ذلك الأثر هناك ليس إلا مصادفة لا أكثر، وسأعود سريعًا، نظرة واحدة فقط، وسأعود لأخلد إلى النوم.

ونظرتُ إلى اللمبة من جديد وحدثتها:

- الطريق مُضاء بالبدر، لكنّي أحتاج إليكِ لأرى ما في داخل الطاحونة، نعم إنّكِ كافية أيتها اللمبة، سامحيني على مرافقتكِ لي في ذلك المكان المهجور، لكنّي سأعود بكِ سريعًا، آه، سآخذ أيضًا فأسي الصغيرة، من يدري لربما ذئب بري يقابلني، أعرف أنّ الذئاب البرية اختفت قبل مولد أبي بعدما كان الحوض الشرقي مشهورًا بعوائها مثلما حكت لي أمي أيضًا، لكن الاحتياط واجب.

هيا يا موسى، قبل أن يغطي السحاب البدر.

ثم ارتديت جلبابي، وعلّقت فأسي الصغيرة بجيبه، وحملت لمبة الجاز، وخرجت إلى الشارع متجهًا نحو حوض الأراضي الشرقية وسط نباح الكلاب الضالة، التي استغربت مرور أحد الأشخاص في ذلك التوقيت.

***

عندما ابتعدت عن منطقة المباني السكنية واقتربت من طرف الرقعة الزراعية بدأت سرعة الريح تشتد شيئًا فشيئًا على غير العادة في ذلك الوقت من العام، فأخفضت فتيل لمبتي كي لا تنطفئ، ثم نظرت إلى البدر، وحدثت نفسي مطمئنًا بأنّ كل شيء على ما يرام، وواصلت تقدمي بالطرقات الترابية الممتدة بين الأراضي الزراعية حتى وصلت إلى مشارف أرض الخواجة، كان ظل غرفة الطاحونة الأسود قد ظهر في الأفق فارتبكت قليلًا، ثم مرّت سحابة مفاجئة أمام البدر سادَ معها الظلام، فبلغ ارتباكي ذروته وتوقفت مكاني أبتلع ريقي بدقات قلب خائفة، قبل أن أتمالك نفسي وأزيد ضياء لمبتي وأقرأ آية الكرسي بصوت عالٍ، وأكمل طريقي نحو الموضع الذي رأيت به أثر الحذاء قبل ساعات، وهناك نزلتُ على ركبتَيّ مُقربًا الضياء من الأثر ونقوشه، كأنّي أؤكد لنفسي أنّ ما رأيته نهارًا لم يكن خيالًا توهمه عقلي، ثم نهضت والتفت إلى الجدار الآخر الذي تتوسط أسفله الفتحة الصغرى، ونزلتُ على ركبتَيّ من جديد مادًا رأسي محدقًا بعيني في داخلها من دون اللمبة، كان الظلام حالكًا، فأمسكت باللمبة وأدخلتها مادًا ذراعي بمَيلٍ حَذِر إلى داخل الفتحة وأنا أحرك رأسي يمينًا ويسارًا لعلّي أرى ما تُظهره اللمبة، فرأيت بالكاد ما رأيته من قبل؛

قادوس الطاحونة المُغطى بالأتربة وجزء من ذراعها الخشبية الطويلة الغارقة بين شِباك العناكب، لا شيء آخر، حدثتُ نفسي:

- هل اطمأننت؟ لا يوجد جنود في الداخل، والطاحونة كما هي منذ سنوات، هيا عُد إلى بيتك.

وكدت أخرج ذراعي لولا أنَّ عيني لاحظت وضوح الرؤية داخل الطاحونة فجأة من دون سبب واضح، لا لم تكن نيران اللمبة السبب، زاد الضياء داخل الطاحونة فجأة مع انقشاع السحابة المغطية للبدر، انتفض قلبي غير مصدق وبدأت أقرأ آية الكرسي من جديد بصوت عالٍ وأنا أنظر إلى السماء، ثم أخرجت يدي ووضعت اللمبة جانبًا، ونظرت عبر الفتحة مرة أخرى متفحصًا، كان كل شيء في الداخل واضحًا كأنَّك أشعلت لمبة كبرى في كل ركن من أركان الطاحونة، ثم غطَّت سحابة أخرى البدر فسادَ الظلام فجأة في الداخل وكأنَّ اللمبات قد أطفئت، ثم انقشعت السحابة عنه فعاد الضياء في الداخل من جديد، نظرتُ حولي أتلفَّتُ خوفًا من وجود جن يراقبني كما راقبت الجنّيةُ جدّي، وأكملت تلاوة آيات أخرى من القرآن وأنا أفكر في العودة راكضًا إلى القرية لأصرخ إلى الأهالي بأن يأتوا إلى الطاحونة ليروا ما يحدث، لولا أنني لاحظت شيئًا لم أنتبه إليه من الارتباك عندما أبصرتُ محتويات الداخل بعد سطوع البدر، لم يكن القادوس منغمسًا في أكوام التراب ولا الذراع غارقة وسط شِباك العناكب الكثيفة كما رأيتهما عندما أدخلت لمبة الجاز في المرة الأولى، فأغمضت عينيَّ ثم فتحتهما من جديد لأتأكد أنَّ ما أراه ليس تخيلًا أو وهمًا من شدة الخوف الذي ينتابني، وحدَّقت إلى الداخل من جديد لأبصر الطاحونة جلية نظيفة كأنَّ أحدهم قام بتنظيف أجزائها للتوِّ، همستُ إلى نفسي:

- ربما خدعتني إضاءة اللمبة، اهدأ يا موسى، لا تقلق.

ونظرت جانبًا إلى اللمبة الموضوعة على الأرض بجواري وحملتها بذراعي إلى الداخل مجددًا، ظلَّ كل شيء كما هو: الطاحونة واضحة غير منغمسة في ركام أو شِباك العنكبوت، فأخرجت يدي بأنفاس عالية سريعة، واتخذت قراري بالعودة إلى القرية لإخبار الناس في صلاة الفجر بما رأيته، ونهضت

وكدت أتحرك فمرَّت سحابة أخرى أمام البدر، لا أعرف لماذا جالَ في بالي أن أستدير وأعاود النظر إلى داخل الطاحونة، وهذا ما فعلته بالفعل، نزلت سريعًا على ركبتَيَّ ونظرت إلى الداخل مرة أخرى، كان الظلام حالكًا، فمددت يدي باللمبة عبر الفتحة لأتسمَّر في مكاني مرتعبًا، عادت أكوام التراب المغطية للقادوس وشِباك العنكبوت المتشعبة داخلها:

- ماذا؟! هل أصابني الجنون أم أنا عالق في حلم ما؟

لأفاجأ قبل أن أكمل كلامي بتبدل الصورة أمامي تدريجيًا لتختفي شِباك العنكبوت شيئًا فشيئًا هي وأكوام الأتربة، وتنصع أجزاء الطاحونة مع انقشاع السحابة عن البدر وظهوره بالكامل من جديد، فسقطت من يدي اللمبة بداخل الطاحونة إثر الرعب الشديد الذي أصابني، وسقطت أنا الآخر على ظهري بجسدٍ مُخشَّب، أنظر وأنا راقد على الأرض بعين جامدة عبر الفتحة التي صارت في مستوى بصري، ولا أقوى على التحرك، ثم انتفض قلبي من موضعه لدرجة كادت توقفه عندما صدر صوت قوي مفاجئ من داخل الطاحونة، فجمَّعت قواي الخائرة وأنا أتمتم بآية الكرسي، وزحفت على ركبتي لأقترب من الفتحة مجددًا بأنفاسٍ لاهثة، لأفتح فاهي عن آخره مذهولًا ومرعوبًا بعدما رأيت ذراع الطاحونة الخشبية تدور ذاتيًا ببطء شديد في مدار أفقي، مصدرةً صريرًا متقطعًا، بينما تُلفَظ تباعًا من قادوس الطاحونة أشلاء بشرية؛ أقدام وسيقان وأيادٍ وأمعاء وأذرعة ورؤوس جاحظة الأعين، جميعها سمراء الجلد، لم أكن في حاجة إلى من يخبرني أنها أشلاء جنود الهجانة الذين اختفوا قبل شهر.

وقتئذٍ أحسست أنَّ الموت يقترب مني بعدما بلغت دقات قلبي أقصاها، ومكثت مكاني مجمدًا أحدِّق إلى الأشلاء التي يتواصل اندفاعها من قادوس الطاحونة مع كل حركة إضافية للذراع الخشبية، قبل أن يشعر وجهي فجأةً بأنفاسٍ لافحة، وتتناهى إلى مسامعي زمجرة قريبة للغاية، فنظرت عن يميني، فوجدته يقف على بعد خطوة واحدة مني يحملق فِيَّ فاتحًا فَكَّيه عن آخرهما، وأنيابه الحادة الطويلة تلمع بقوة مع ضوء البدر.

3

خالد حسني

قرية البهو فريك 2021م:

«كل عام وأنتَ بخير يا صديقي، وعقبال مليون سنة».

«عيد ميلاد سعيد يا خلودة، ويا رب دائمًا في صحة وسعادة».

«أهلًا بكَ في نادي الأربعين مديري العزيز، ربنا يجعلها سنة حلوة عليك وعلى منى وعلى يامن».

كانت المباركات بمناسبة بلوغي عامي الأربعين تنهال على صفحتي الشخصية في تطبيق التواصل الاجتماعي «فيسبوك» منذ الساعات الأولى لصباح ذلك اليوم، والحقيقة لولا هذا التذكير السنوي من التطبيق لما تذكرت أنَّ عيد ميلادي قد حان، على عكس مُنى التي لم تكن لتفوِّت مثل هذه المناسبة، وكعادتها في المساء كانت قد أعدَّت كعكة الشيكولاتة السنوية، وعلّقت زينة الردهة بمساعدة ابننا يامن الذي بلغ عامه التاسع قبل بضعة شهور، وبعد غناء ثلاثتنا أغاني أعياد الميلاد الشهيرة تولَّى يامن إطفاء شموع الكعكة بدلًا مني ليصيح فيَّ بعدها:

- هيا، تمنَّ أمنية في سرك.

ابتسمتُ لطلبه المفاجئ دون أن أنطق، ولوهلة وجدت نفسي أتمنى أن يحدث جديد يغيِّر وتيرة حياتي الثابتة منذ قرابة عشر سنوات.

نعم، لقد سئمت ذلك الجمود الذي أصابها خلال السنوات الماضية، فأنا ما
زلت أعيش في قرية البهو فريك، وعملي كما هو: محاسب في إحدى شركات
المنصورة، وبعد وفاة جدي قبل سبع سنوات توقفت حكايتنا المستمرة عن
أرض وحدات الذكاء، وعامًا بعد عام قلّت حكاياتي أيضًا إلى يامن عن تلك
الأرض، وإن ظلّ الفتى يؤمن تمامًا أنها ليست سوى قصص خيالية لا تنتمي
عن القصص التي يقرؤها، أما منى فآثرت ألّا تتدخل في هذه القصص مطلقًا
مُبدية قلقها من ارتباط تلك الأرض بدماء عائلتنا، ومُعلنة لي تخوفها من
تعلق يامن بسرداب فوريك ورغبته في الذهاب إلى هناك يومًا ما، تفهمت ذلك
القلق، ومع الوقت توقفت عن سرد تلك الحكايات تمامًا، وبقيت في داخلي
عالقًا بمفردي في ذكرياتي بأرض زيكولا، متمنيًا أن يأتي يوم وأجد إياد و
نادين قد عبرا سرداب فوريك إلينا لأخبرهما أنني سميتُ ابني على اسم يامن
صديقي، أما أسيل فلا أتذكر مرور يومٍ في السنوات الأولى بعد عودتي من
أرض زيكولا دون أن يؤلّف عقلي قصة جديدة عن حدثٍ يجمعني أنا وهي مرة
أخرى، ورغم أنني كنت أدرك أنها مجرد خيالات لن تقدم ولا تؤخر ظلّت تلك
الأفكار ترافقني سنوات طويلة.

حاولت كثيرًا إخفاء الأمر عن منى، لكنّي كنت أعرف أنها تشعر بانشغال
جزء كبير من تفكيري بأسيل، وإن لم تعلّق على الأمر من قريب أو من بعيد،
فأخذت أُجبر ذهني شيئًا فشيئًا على تجنب تلك الأفكار، لأكرّس حياتي كلها
لزوجتي وليامن، وتصبح أرض زيكولا مع مرور السنوات أعظم ماضٍ في
حياتنا وسرنا الأكبر الذي لا يعرفه أحد سوانا، وخاصةً بعد وفاة جدي وصديقي
مجنون السرداب، وتمضي حياتنا الروتينية كأسرة مصرية دون تغيير حتى
وصلت عامي الأربعين الذي بدا وكأنّ أمنيتي في أول أيامه بتحريك تروس
حياتي الجامدة قد بدأت في التحقق في اليوم التالي له.

بدأ الأمر مع تلك الرسالة الإلكترونية التي وصلت إلى هاتفي عبر تطبيق
«محادثات فيسبوك»:

- وأستاذ خالد، اسمي مروة طارق، أريد مقابلتك في أقرب وقت بخصوص أمر مهم، شكرًا مقدمًا».

تعجبتُ بمجرد قراءتي الرسالة، وعلى الفور تصفحت حسابها الشخصي، كانت صورتها الشخصية توحي بأنها في منتصف العشرينيات، وجهها رقيق خمري البشرة، عيناها عسليتان واسعتان تشعَّان ذكاءً واضحًا، وشعرها أسود مُجدَّل في جدائل رفيعة كثيرة تزيد شبابها شبابًا، تمسك في يدها مجموعة كتب، وتشير بيدها الأخرى إلى مكتبة الإسكندرية التي ظهرت في خلفية الصورة، فكرت في أنها لا تزال طالبة في الجامعة، خاصةً أنها لم تضع معلومات أخرى على صفحتها سوى أنها تعيش في الإسكندرية، وأكملتُ تصفحي في حسابها لعلِّي أعرف من خلال منشوراتها ما قد تريده مني، فلم أجد أي رابط قد يجمعني بها، عدت إلى الرسالة من جديد، ورددت كتابةً:

- مرحبًا مروة، بخصوص أي شأن؟ لا أظن أنَّكِ تقصدينني.

في أقل من دقيقة جاء الرد:

- أهلًا وسهلًا أستاذ خالد، أقصدك تمامًا سيدي، اعذرني، لن أستطيع شرح الأمر مطلقًا عبر هذه الدردشة، أما زلتَ تعيش في قرية البهو فريك؟

تأكدتُ حينذاك أنها تقصدني فعلًا، وكتبتُ مستغربًا:

- نعم.

كتبَت سريعًا:

- هل أستطيع مقابلتك هذا الأسبوع هناك؟ وسأشرح لك كل شيء وقتها.

فكرتُ ضامًّا شفتيَّ، ثم كتبتُ لها:

- انتظري دقيقة واحدة لو سمحتِ.

ثم حدَّثتُ منى التي كانت تشاهد التلفاز بجواري:

- هناك فتاة غريبة تريد أن تزورنا.

تعجبتْ، وسألتني على الفور:

- من؟!

أعطيتها الهاتف، فتصفحت بعينها الرسائل، ثم ألقت نظرة
حسابها هي الأخرى، وسألتني في اقتضاب:

- هل تحدثت لأحد عن أرض زيكولا مؤخرًا؟

هززتُ رأسي نافيًا، ضمَّت شفتيها ثم تمتمت:

- أمرٌ غريب، ماذا تريد منك؟!

قلت:

- لا أعرف، تصر على مقابلتي أولًا.

قالت وهي تنظر إلى صورتها أمام مكتبة الإسكندرية:

- يبدو أنها طالبة في كلية ما.

ثم نظرت إليَّ وتابعت:

- أخشى المفاجآت، خاصةً مفاجآتك، ولكن على كل حال إن كان
شيء قد تفيدها به فلا تبخل عليها.

أومأتُ برأسي متفقًا معها، ثم أخذت الهاتف مرة أخرى، وكتبت
لصاحبة الرسالة:

- ربما نلتقي في المنصورة إن أردتِ.

ردَّت على الفور:

- أرجوك، سآتي إلى القرية، أريد أن أتفحص شيئًا ما في وجود

شعرتُ أنَّ التوتر قد أصابني بعض الشيء، ليس سرداب فوريك
ومكثتُ أنظر إلى الرسالة دون كتابة أي شيء، فكتبت لي بعدما طال انتظ

- معي أستاذ خالد؟

كتبتُ:

- حسنًا، إن أردتِ القدوم فأهلًا وسهلًا بكِ.

ودونتُ لها رقمي لسهولة الوصول إليَّ، فردَّت:

- شكرًا جزيلًا سيدي، سأهاتفك خلال أيام، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

قلت لمنى:

- ستأتي خلال أيام، أعتقد أنها صحفية أو كاتبة عثرت على شيء ما يخص سرداب فوريك.

قالت:

- لا أظن أنَّ يامن يتحدث إلى زملائه عن حكاياتك الخاصة بأرض زيكولا، وأنا لم أخرج هذا السر من فمي أبدًا، وأنتَ أيضًا لم تتحدث إلى أحد بعد وفاة جدك وصديقه.

هززتُ رأسي متفقًا معها، فباغتتني بسؤال سريع:

- هل رأيت النجم قريبًا؟

نظرتُ لها وقلت:

- لا، كانت آخر مرة منذ سبع سنوات.

أومأت برأسها إيجابًا، ثم أكملت حديثها وهي تنظر إلى التلفاز:

- أنا أيضًا لم أره مطلقًا منذ كان يامن رضيعًا، لننتظر ونرى ماذا تريد، لعله أمر آخر تمامًا.

❋❋❋

بعد ثلاثة أيام رنَّ هاتفي برقم غريب، قال صوت نسائي أتى من الجانب الآخر من الخط:

- مرحبًا سيد خالد، أنا من تحدثت إليك عبر برنامج محادثات «فيسبوك» قبل أيام.

نطقت:

- مروة؟

قالت:

- هل لي أن أزورك في منزلك الساعة السادسة مساء اليوم؟

نظرتُ إلى ساعتي، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا، فقلـ

- نعم، على الرحب والسعة.

خلال الساعات التي تلت تلك المهاتفة حاولت أن أشغل رأسي بأ

أخرى لعلّ القلق الذي أصابني يقل بعض الشيء، لكنّي لم أستطع وجـ

أنتظر مرور الوقت دقيقة دقيقة بفارغ الصبر، إلى أن رنّ جرس الباب

قبل الساعة السادسة بعشر دقائق، هبطتُ إلى الطابق السفلي وفتحـ

الفور، وجدتها أمامي بهيئتها التي لم تختلف كثيرًا عن صورتها في بر

التواصل الاجتماعي سوى أنّ شعرها المجدل كان أطول قليلًا، قالت بعيـ

المتحمستين:

- سيد خالد؟

أومأتُ برأسي إيجابًا وأنا أنظر إلى سيارتها الحمراء الصغيرة التي كا

تقف أمام البيت، فأردفتْ:

- هل تسمح لي بالدخول؟

أشرت لها إلى الداخل باسمًا، وقلت في حرج:

- بالطّبع.

رحبت بها منى كذلك، وألقى يامن ترحيبًا سريعًا قبل أن يغادرنا إ

الطابق العلوي، ثم تركتنا منى بمجرد شعورها أنّ الفتاة تريد مقا

بمفردي.

قالت مروة عندما جلسنا في غرفة الضيوف:

- أعتذر عن اقتحامي حياتَك بهذا الشكل المفاجئ، لكن هناك أمـ

اكتشفته منذ شهور، وأريدك أن تساعدني بخصوصه.

وتابعتْ عندما نظرتُ إليها في ترقب:

- إنَّني أدرس الدكتوراه في مجال الحفريات الفقارية، وهناك جزء هام في رسالتي يرتبط بشدة بمنشور كنتَ قد نشرته على صفحتك بتطبيق «فيسبوك» قبل شهور.

اندهشت مما تقوله، وأنا أحاول تذكر أي شيء نشرته من قبل في مجال الحفريات، وعندما لم يأتِ في بالي شيء من هذا القبيل شعرت أنها تقصد شخصًا آخر، غير أنها أخرجت من حقيبتها صورة «فوتوغرافية» مطبوعة بالأبيض والأسود، وأكملتْ:

- لقد جئتُ إليكَ بخصوص هذه الصورة.

نظرتُ إلى الصورة في تعجب كبير، إذ كنتُ أعرفها جيدًا، كانت صورة قديمة لجدي عبد القوي التُقطت في أواخر عشرينيات القرن الماضي، كان عمره ستة أو سبعة أعوام وقتها على أقصى تقدير، يحمله أبوه ويقف بجوارهما ثلاثة رجال يرتدون طواقيهم وجلابيبهم الفلاحي، ويبتسمون إلى المصوِّر بأسنانهم البيضاء ووجوههم السمراء التي لفحتها الشمس، كان جدي يحتفظ بتلك الصورة، ونشرتها على صفحتي بتطبيق التواصل الاجتماعي قبل عامين بالفعل في اليوم العالمي للتصوير باعتبارها أقدم صورة شهدتها قريتنا، ومُعلقًا أسفلها بالشبه الكبير بين جدي في طفولته ويامن ابني، شاركتها بعض الصفحات المهتمة بالتصوير آنذاك متعجبين من نقاء الصورة وجودتها رغم قدمها، وانتهى الأمر، فقلت وأنا أنظر إلى الصورة:

- ماذا بها؟ إنَّها صورة قديمة لبعض رجال قريتنا قبل أكثر من تسعين عامًا، أخبرني جدي أنَّ مصورًا رحالًا أتى إلى القرية حينها والتقط للرجال هذه الصورة، واحتفظ بها أبوه، ومن بعده جَدِّي.

سألتني:

- هل الصورة الأصلية موجودة؟

فقلت:

- نعم.

قالت:

- هل تسمح لي أن أراها؟

قلت متعجبًا:

- بالطبع.

ونهضتُ إلى غرفة أخرى لأحضر الصورة من صندوق مقتنيات جَدِّي

قابلتني منى في الردهة وسألتني:

- هل الأمر يخص زيكولا؟

هززتُ رأسي نافيًا، وأكملت طريقي إلى الغرفة وأحضرت الصورة وعد

بها إليها، حدَّقتْ إليها بمجرد أن أمسكتها، فسألتها في ترقب:

- هل هناك أمر ما بخصوص جَدِّي ورفاقه؟

قالت وهي تواصل تحديقها إلى الصورة:

- لا، لا يتعلق الأمر بالرجال المبتسمين إلى المصوِّر، وإنَّما يتعلق بـ

الرجل.

وأشارتْ بإصبعها إلى خلفية الصورة، حيث يقف خلف الرجال شـ

طويل اللحية والشعر نصفه العلوي عارٍ تمامًا، بينما يغطي نصفه السفـ

سروال قصير ممزق، ويلتف حول مؤخرة عنقه حيوان مغمض العينين تـ

- الشيخ موسى الديب؟

وتابعتُ:

- قال جَدِّي إنه كان مخبولًا يطوف القرية بهذا الذئب الميت على كتفـ

حتى أنه لُقِّب بـ «الديب» نسبةً إلى ذلك.

قالت:

- نعم، هذا ما جئتُ إليكَ من أجله خصيصًا، لقد عثرت على صورتك

على الفيسبوك، وبدأت أبحث عن مصدرها منذ شهور حتى وصلت إ

منشورك الأصلي، وهناك رأيت لك تعليقًا يخص هذا الرجل، قلتَ فيه إنَّ أهل القرية دفنوا ذئبه معه في قبره حين مات.

تذكرتُ أنَّني كتبت ذلك بالفعل حين سألني أحدٌ عن غرابة هيئة الشيخ موسى، فأردفت مروة:

- إنَّ الذئب الذي يحمله هذا الرجل على كتفيه يشبه إلى حد كبير سلالة الذئاب الرهيبة التي تصورَتْها أكبر معاهد الحفريات في العالم.

قلت:

- لا أعرف كثيرًا عن الذئاب، لكن ما الذي يهم في ذلك؟

قالت:

- لقد انقرضت تلك السلالة من الأرض منذ ثلاثة عشر ألف سنة.

وتابعت بعدما زمَّت شفتيها:

- إنَّني أوقن تمامًا أنَّ رأس هذا الذئب لا يشبه سلالة الذئاب الرمادية الموجودة حاليًّا.

ثم نظرت إليَّ وأكملت:

- إنَّ ما أفكر فيه لا يتعدَّى إلى الآن مرحلة الشكوك، لكن ستؤكده بقايا هذا الذئب الموجودة في قبر الشيخ موسى.

قلت مستغربًا ومستنكرًا ما تقوله:

- هل تريدين أن تفتحي ذلك القبر؟

قالت:

- نعم، وإن كان تصوري صحيحًا فإما أن يعني ذلك أنَّ الذئاب الرهيبة لم تنقرض قبل آلاف السنين كما يظن العالم.

وصمتَتْ لحظةً، وأكملت باسمةً وهي تنظر في عينَيَّ:

- وإمَّا أن يعني مجيء ذلك الذئب إلى بلدتكم من عالم آخر.

4

اتسعت حدقتا عيني، واندفعت الدماء إلى عروقي عندما افترضت الفتاة مجيء ذئب الشيخ موسى إلى بلدنا من عالم آخر، وعلى الفور وثب إلى رأسي سرداب فوريك وما وراءه من مدن، قالت الفتاة كلماتها بنوع من السخرية من دون أن تدري أن ذلك الافتراض قد يكون الأقرب للصواب، بالذات في قريتنا، وعندما شرد ذهني بعض الشيء مفكرًا في إمكانية عبور ذلك الذئب إلى أرضنا من خلال سرداب فوريك قبل ما يقرب من مائة عام، صاحت فيَّ الفتاة:

- أستاذ خالد، هل أنتَ معي؟

هززتُ رأسي منتبهًا إليها، فقالت في حماسة شديدة وهي تحدِّق إلى الصورة:

- سيجعلني هذا الذئب من مشاهير مجال الحفريات في العالم إن ثَبت حقًّا أنه من فصيلة الذئاب الرهيبة.

وتنهدَت بالحماسة نفسها، وتابعَت وهي تنظر في عيني:

- هل تستطيع مساعدتي في فتح قبر الشيخ موسى؟ أو تعرف أحدًا يكتم الأسرار قد يساعدني في ذلك؟

فضممتُ شفتَي وقلت:

- إنَّ مقابر قريتنا تحيطها البيوت الآن من كل جانب، كما أن القبور هنا ليست مُغلقة ببوابات حديدية سهلة الفتح مثل التي تنتشر الآن في معظم مقابر البلدان، إنَّ كل قبر مُغلق بكومة من الطين الجاف المخلوط بالتبن، لذا لن يكون ما تفكري فيه بالسهولة التي تتخيلينها.

ثم سكتُّ لحظة مفكرًا، وتابعتُ:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تستخرجي تصريحًا من الشرطة بفتح القبر، وإلا إن أمسك بكِ الأهالي فلن تكون العواقب سليمة.

أشاحت بيدها وقالت:

- لا، لا أريد تضخيم الأمر بهذا الشكل، تعلم أن استخراج مثل هذا التصريح سيُدخلني في متاهات من سين وجيم، وفي الأغلب سيتم الطلب بالرفض في النهاية، وقد يتسرب الأمر فتنتبه الأعين إلى القبر فتضيع فرصة فتحه في الخفاء.

وأضافت:

- أريد أن أدفع أموالًا لشخص تثق به يستخرج لي عظام الذئب ... وينتهي الأمر.

أخرجتُ زفيري، وقلتُ في هدوء:

- في الحقيقة لا أعرف القبر الذي دُفن فيه الشيخ موسى، ولكن أعتقد ... ثمّة أقارب له لا يزالون على قيد الحياة. لا بد أنهم يعرفون قبره، ... لي هذا الأمر، وسأفكر أيضًا في الشخص الذي قد يساعدك في ... القبر واستخراج العظام التي تريدينها.

قالت وعيناها تلمعان حماسة:

- هل لي أن أقابل أقارب ذلك الرجل أنا الأخرى؟

قلت:

- إن علاقاتي هنا في القرية قليلة بعد وفاة جَدّي، ولا أعرف ... نستطيع سؤاله عن الشيخ موسى دون أن يسبب لكِ متاعب ... سأتقصى الأمر لأيام أولًا وسأهاتفكِ في حال وجود أي جديد.

زمّت شفتيها، ثم هزّت رأسها موافقة في استسلام، وقالت:

- حسنًا، لكن أرجوك لا تتأخر عليَّ في هذا الأمر.

ثم أكملت مُحذرةً بإصبعها:

- وأريدكَ أن تعدني أن تُبقي ما تحدثنا بأمره سرًا بيننا.

قلت:

- باستثناء زوجتي لن أخبر أحدًا، لن تخبر أحدًا هي الأخرى، إنَّني أعدكِ بذلك.

صمتت لحظة، ثم قالت:

- حسنًا، زوجتكَ فحسب.

ثم نهضت مغادرة وهي تقول:

- سأنتظر اتصالًا قريبًا منك، تكون قد عرفت أقارب الشيخ موسى الموثوقين، وعرفت أيضًا في أي مقبرة دُفن.

أومأت برأسي إيجابًا، ثم غادرَتْ.

***

جلستُ في غرفة الضيوف بمفردي أتفحَّص صورة جَدِّي، ثم أمسكتُ بهاتفي وبدأتُ أبحث فيَ الإنترنت عن فصيلة الذئاب الرهيبة، وجدت أنها قد انقرضت بالفعل قبل أكثر من عشرة آلاف سنة، وتحدثَت كثيرٌ من المقالات التي قرأتها تباعًا عن قوتها وقدرتها الفائقة على اصطياد الفرائس الأكبر حجمًا، ثم أخذت أشاهد أفلامًا تسجيلية عن حفريات تلك الذئاب، وعن الاختلافات بينها وبين فصيلة الذئاب الرمادية الموجودة حاليًا، وعدت إلى الصورة مجددًا لأشعر للمرة الأولى أن شكل الذئب الذي يحمله الشيخ موسى يختلف بالفعل بعض الشيء عن شكل الذئب الرمادي الشهير، لم أعرف إن كان ذلك شعور كاذب اختلقه التوتر الذي أصابني بعد حديث الفتاة أم كنتُ محقًا.

دلفت إليَّ مُنى، فحكيتُ لها ما حدث، وما أتت من أجله الفتاة. تعجبتْ من الأمر، ثم قالت:

- ربما عبّر الشيخ موسى سرداب فوريك قبل مائة عام، وهناك أ

الجنون، إنّ السرداب يوجد أسفل بلدنا منذ مئات السنين.

ثم أردفت في هدوء:

- لا أعتقد أن الأمر يستحق كل القلق الذي أراه على وجهك.

قلتُ في قلق:

- إنني أفكر في الأمر من أكثر من جانب، إن استطاعت تلك الفتاة إثبا

انتماء ذلك الذئب للفصيلة المنقرضة قد يتعداها الأمر، وربما تُفا

ذات صباح بمجيء حملات استكشافية إلى بلدنا للبحث عن مزيد من

حفريات الذئاب أو الحيوانات المنقرضة الأخرى، ومع المعدات التي

يحضرونها قد يتم اكتشاف سرداب فوريك، ومن يدري ماذا سيحدث

بعدها.

إن عالمنا ممتلئ بالشرور، وإذا اكتُشِفت أرض زيكولا وما حولها من بلـ

فلن يكون أناسها في مأمن أبدًا. ستصبح ثروات تلك البلدان مطمعًا لـ

معتدٍ، وغنيمة تتنافس عليها قوى هذا العالم، خاصةً مع الأزمات الطا

التي تمر بها الآن، وإذا حاول أهل تلك البلدان المقاومة فلن يكـ

مصيرهم إلا الإبادة المُحققة، مع الفارق الكبير بين التسليح هنا وهنـ

وضممتُ شفتَي وتابعتُ:

- سيكون اكتشاف تلك العوالم هي نهايتها، وذلك هو السبب الأ

لاحتفاظي بسر سرداب فوريك كل هذه السنوات.

فكرتْ قليلًا في صمت كأنها وافقتْ تفكيري، ثم قالت:

- وماذا ستفعل؟ يبدو من هيئة الفتاة أنها مثابرة وملحّة، لن تهدأ

تحصل على حفريات ذئبها، وإن لم تساعدها سيساعدها غيرك.

قلت:

- سأستخرج رفات ذلك الذئب بمعرفتي قبل وصولها إليه، لم أخبرها

يريد مساعدتي من قبل، لكن قياسًا على الأضرار التي قد تنتج

صحة افتراضها لا بد وأن أسارع بحرمانها من ذلك الاكتشاف، لقد زعمت عدم معرفتي لأقارب الشيخ موسى، لكنِّي أعرف جيدًا قريبه الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة، الحاج «رأفت الخولي»، لن أفصح له عن الأمر، لكنِّي أستطيع أن أستحرج منه بعض المعلومات التي أريدها عن الشيخ موسى وذئبه.

قالت في نبرة قلقة:

- أشم رائحة مغامرة جديدة يا خالد.

هززت رأسي نافيًا، وقلت:

- لا، لقد ولَّى زمن المغامرات، سينتهي الأمر بإخفائي رفات ذلك الذئب وسأتوقف عند ذلك الحد.

ونظرتُ في عينيها وتابعتُ:

- سأفعلها من أجل أصدقائي القدامى يا مُنى، من أجلهم فحسب.

أومأت برأسها وهي تنظر إلى يامن الذي فتح باب الغرفة ودلف إلينا، وقالت:

- حسنًا يا خالد، تذكر فقط في كل خطوة تأخذها أن هناك طفلًا يحتاج إليك.

أومأتُ برأسي إيجابًا في صمت.

❊❊❊

في صباح اليوم التالي اتجهتُ مباشرة إلى منزل القريب الوحيد للشيخ موسى الديب؛ «الحاج رأفت الخولي»، رجل في أواخر عقده السابع، كان يعمل ناظرًا لمدرسة ابتدائية، وما زال يتمتع بصحة جيدة، كان يعرف جَدِّي جيدًا ويكنُّ له كل احترام، استقبلني بحفاوة شديدة حين وجدني أمام باب بيته، وبعدما قدمت لنا زوجته كوبين من الشاي وتركتنا معًا قلتُ:

- لقد جئت إليكَ بشأن قريبك الشيخ موسى رحمة الله عليه.

تعجب لوهلة، ثم قال باسمًا:

- باه، الشيخ موسى؟! لقد تُوفي منذ أكثر من خمسين عامًا، لا أظن أن جيلك يعرف عنه شيئًا.

ضحكتُ وقلت:

- هذا صحيح، لكن جَدّي كان قد حكى لي عنه من قبل، وعن ذئبه، وقبل شهور نشرتُ صورة عبر الإنترنت كان الشيخ موسى يقف في خلفيتها بذئبه، فأثار ذلك انتباه بعض أصدقائي، وجئتكَ لأفهم حكايته وحكاية ذئبه بعدما سألني أكثر من شخص عن قدرة رجل بسيط مثله على اصطياد ذئب شرس بهذا الشكل.

وأخرجتُ له الصورة، وأشرتُ بإصبعي إلى الشيخ موسى، ارتدى نظارته الطبية وضحك وهو ينظر إلى الصورة، ثم قال:

- أعتقد أنها الصورة الوحيدة للشيخ موسى.

ثم تابع:

- كان شقيقَ جدتي الأصغر، لقبه الناس بالشيخ مثلما اعتادوا أن يُلقّبوا فاقدي العقول في ذلك الوقت، نشأتُ فوجدته يحمل ذئبه على كتفيه ويردد آية الكرسي دون توقف، سبحان الله لم يكن يخطئ في كلمة واحدة منها، قالت جدتي إنه كان يحفظ القرآن الكريم كاملًا في طفولته، ولولا خروجه من المدرسة بعد وفاة أبيه لأصبح ذا شأن كبير في هذا البلد، قبل أن يطير عقله فجأة بعدما وجدوه بين ليلة وضحاها يسير عاريًا في القرية يحمل ذئبه الميت على كتفيه وفأسه في يده، ويردد آية الكرسي وكلمتين أخريين بينها.

ثم أخذ يتذكر لبضع ثوانٍ، ارتشف خلالها رشفة من الشاي، وتابع:

- «حونا، جانا»، كان يقول هاتين الكلمتين.

سألته مستغربًا:

- ماذا كان يعني بهما؟

قال:

- لم يعرف أحد قط ماذا كان يعني بهما، أو بمعنى أدق لم يشغل أحد باله بما قد يهذي به شخص مسكين العقل مثله.

وتابع وهو ينظر إلى صورة الذئب:

- الغريب أن ذلك الذئب لم يتحلل جسده سريعًا مثل أي حيوان نافق آخر، لا أعرف إن كان قد قام بحشوه من الداخل بالملح الخشن أم ماذا، لكنّ أحدًا لم يكن يستطيع الاقتراب أصلًا منه لمعرفة ذلك السر، إذ كان يُلاصق جسده طوال الوقت كأنه جزء منه، يتجول به، ينام معه، يستحم معه إن قامت جدتي بتحميمه.

وارتشف رشفة أخرى من الشاي، وضحك وهو يتابع:

- قالت لي جدتي ذات مرة إن أحد الأشقياء حاول نزع الذئب عن كتفيه، فأمسك أخوها برقبة ذلك الشقي غارسًا أظافره في حنجرته حتى كاد يقتله لولا أنقذه الناس منه في آخر لحظة، ومن يومها لم يحاول أحد الاقتراب منه أو من ذئبه.

وتذكر شيئًا آخر، وقال:

- قالت أيضا إنه كان يختفي بذئبه ليلتين متتاليتين منتصف كل شهر قمري دون أن يعرف أحد مكانه، ولمّا اكتشفوا أنه كان يتوارى خلالهما داخل أحد قبور القرية المجاورة وحاولوا إخراجه أخذ يصرخ بكل طاقته رافضًا الخروج من القبر حتى تركوه، فلم يكن من جدتي إلا أن تذهب إليه بالطعام هناك في هاتين الليلتين من كل شهر.

فكرتُ في غرابة الأمر، ثم سألته:

- أخبرني جَدّي أن ذئبه دُفن معه، أهذا صحيح؟

قال الرجل:

- نعم، الكل كان يظن أن الشيخ موسى ممسوس من الجن، وكانوا يعتقدون أن الجن يكمن في ذلك الذئب، وعندما مات خافوا أن ينزعوا

عنه ذنبه ودفنوهما معًا. أتذكر أن شيخًا من بلدة مجاورة هو من تولى الغُسل له ولذنبه، وهو من قام بإنزال جثتيهما إلى القبر بعدما خشي أهل القرية من الإقدام على ذلك الفعل، حتى قبره لم يُفتَح منذ دُفن فيه بعدما خشينا أن يُدفن فيه أحد آخر من العائلة، لدينا ثلاثة قبور: قبرٌ للشيخ موسى بمفرده، وقبران لباقي العائلة، أحدهما للرجال والآخر للنساء.

ابتسمتُ وأطلقتُ تنهيدةً قائلًا:

- إن بلدتنا ممتلئة بالكثير من القصص والحكايات.

قال الرجل:

- نعم، كانت طفولتنا لا تحتاج إلى تلفاز أو إنترنت مثل هذه الأيام بفضل كثرة تلك القصص.

قلت وأنا أنهض:

- أشكرك يا حاج رأفت، أردت معرفة القصة منك، لعلي أستطيع إجابة الأسئلة التي يطرحها الناس عن الشيخ موسى أو أدوِّنها ذات يوم، وآسف على إضاعة وقتك.

قال معاتبًا:

- لا سمح الله، إنكَ حفيد الغالي، وسعدت جدًّا بزيارتك.

ثم غادرتُ وعلى وجهي ابتسامة، ويدور في رأسي حديث الرجل عن وجود ثلاثة قبور فقط لعائلته، خُصِّص أحدها للشيخ موسى بمفرده، كان ذلك يعني أن القبر المُغلق بكومة الطين الأكثر جفافًا بين القبور الثلاثة هو قبر الشيخ موسى بعدما لم يُفتَح منذ أكثر من خمسة عقود، وأكملتُ طريقي متجهًا إلى مقابر القرية.

***

قرأتُ سورة الفاتحة عندما صرت على مشارف منطقة المقابر، ثم خطوت إلى داخلها ينتابني شيء من الاضطراب، كانت القبور تمتد عن يميني وعن يساري مُقبَّبة الشكل ومبنية من الطوب، يحمل بعضها قطعًا من الرخام مكتوبًا عليها أسماء العائلات التي تنتمي إليها، وتعزلها عن السماء مظلة مرتفعة من الصاج المدعوم بقوائم حديدية، وكان بعض النساء يجلسن بجوار بعض القبور يقرأن القرآن لموتاهن، فألقيت تحيتي عليهن، وواصلت تقدمي بين الطرقات المتشعبة باحثًا عن قبور عائلة الخولي؛ إلى أن وصلتُ أخيرًا إلى مرادي، وهناك أخرجتُ زفيري ارتياحًا، فمن حسن الحظ أن قبور تلك العائلة لم تكن على أطراف المقابر، بل كانت تتوسطها تقريبًا، وهذا ما يجعلها متوارية نوعًا ما. تلفتُّ حولي، لم يكن أحد في محيطي، فانحنيتُ وتفحصت كومة الطين المغلقةُ لكل واحد منها، كان الفرق بينها واضحًا للغاية، وفي لمح البصر أدركتُ أن كومة الطين التي تغلق القبر الشرقي هي الأقدم، فنهضت وألقيت السلام باسمًا للشيخ موسى وأنا أنظر إلى قبره أمامي، حينذاك انقبض صدري، ودبَّت في قلبي رهبة مفاجئة لم أعرف سببها، فأسرعت بقراءة الفاتحة مرةً أخرى، ثم غادرت باضطراب كبير عائدًا إلى البيت.

***

سألتني منى عما حدث خلال ساعات اليوم، فأخبرتها عمَّا دار بيني وبين قريب الشيخ موسى، وعن ذلك الاضطراب الذي أصابني عندما وقفت أمام القبر، ثم أردفت لها مطمئنًا عندما رأيت قلقًا كبيرًا يظهر على وجهها هي الأخرى:

- أعتقد أن ذلك طبيعي مع ما أنوي فعله، يبدو أن سنوات الراحة الأخيرة قد جعلت قلبي هشًّا وكأنني لم أمر بما يعادل خطورة ذلك مئات المرات.

سألتني، والقلق لا يزال على وجهها:

- متى تنوي فتح ذلك القبر؟

قلت:

- سأراقب منطقة القبور أكثر من ليلة أولًا لأختار التوقيت المناسب، لا أريد التعجل فيمسك بي أحد الأهالي ويقع الفأس في الرأس، وبالنسبة لمروة فسأعمل على تأخير عودتها إلى القرية بقدر المستطاع.

هزّت رأسها إيجابًا من دون أن تنطق.

***

خلال الأيام التالية قُسّم وقتي بين ثلاثة أشياء رئيسية؛ عملي نهارًا وبحثي ليلًا عبر الإنترنت عن تفاصيل أكثر تخص الذئاب الرهيبة، والذهاب في وقت يتعدى منتصف الليل إلى منطقة المقابر مُراقبًا البيوت المُضاءة التي تحيطها، هاتفتني مروة أكثر من مرة، تعمدتُ تجاهلها في البداية، لكن مع إلحاحها الشديد أجبت اتصالها، وأخبرتها كاذبًا أنني ما زلت لا أعرف قبر الشيخ موسى، ولم ألتقِ أقرباءه بعد.

مع نهاية أسبوعين من الذهاب إلى المقابر أدركت صعوبة الأمر مع استمرار إنارة الأعمدة المنتشرة بين القبور، وكذلك إنارات البيوت التي تحيطها طوال الليل. هاتفتني الفتاة مرة أخرى مع منتصف الأسبوع الثالث، وقالت إنها ستزورني خلال أيام، حاولت أن أثبّط عزيمتها بعدم مقدرتي على إيجاد أي جديد، وعدم جدوى مجيئها، لكنّي شعرتُ من نبرتها تلك المرة أنها صارت ترتاب أمري، ووجدتها تخبرني صراحةً أنها ستأتي مع زميل لها يدرس نفس المجال في جامعة المنصورة، ويعرف بعض الأشخاص في قريتنا، زادت تلك المحادثة من توتري، وفي الأيام التالية عاودت الذهاب إلى منطقة المقابر بمعدل أكثر لعلي أصادف فرصة تلوح أختار من خلالها توقيتًا مناسبًا بيد أن شيئًا لم يختلف عن المرات السابقة.

مرّت عشرة أيامٍ أخرى لم يحدث فيها أي جديد، ولم تهاتفني خلالها الفتاة، أحسست في داخلي حينها أنها قد قررت إبعادي عن الأمر تمامًا وتوليها الأمر بنفسها بمساعدة زميلها، فواصلت محاولاتي بإصرار كي أجد توقيتًا مناسبًا قبل وصولها هي ومن معها إلى القبر، ثم أتت الفرصة على طبق

من ذهب بعد ثلاثة أيام أخرى عندما سمعت مكبر صوت ينادي في القرية بأن الكهرباء سوف تنقطع عن القرية وأجوارها في تمام الحادية عشرة مساءً حتى السابعة من صباح اليوم التالي، اعتاد مسئولو شركة الكهرباء والمياه على مثل هذه التنبيهات كي تأخذ كل أسرة احتياطاتها بشأن فصل الأجهزة الكهربائية وتخزين المياه للبيوت التي تعتمد على مضخات رفع المياه للأدوار العليا، كانت الساعة في يدي وقتها تشير إلى السادسة مساءً، وكانت الشمس في طريقها للغروب عندما تناهى ذلك النداء إلى مسامعي أنا ومنى التي كانت تجلس بجواري، وبمجرد أن انتهى، نظرت إليها وقلت دون تفكير:

- سأخرج عظام الذئب الليلة.

***

في تمام الثانية عشرة صباحًا كنت قد جهزت أدواتي؛ جاروفًا معدنيًا صغيرًا، ومصباحًا ضوئيًا، وقفازًا جلديًا، وجِوالًا من الخيش، وقارورة ماء متوسطة الحجم، وفي تمام الواحدة والنصف صباحًا خرجتُ من بيتي.

كان الظلام سائدًا مع انقطاع الكهرباء وتواري النجوم والبدر وراء غيوم السماء، أنرتُ مصباحي في بداية الطريق بعد تأكدي من سكون جميع البيوت على جانبيه، وأطفأته عندما انقشعت السحب عن البدر وأظهر ضياؤه الطريق أمامي، ثم وصلت إلى رقعة المقابر فدلفت إليها عابرًا صفَّين منها، كانت الأجواء هناك ساكنة حد الموت، وحالكة السواد مع عدم وصول ضوء البدر إليها إثر مظلة الصاج الممتدة فوقها، وعندما تفحصت البيوت المحيطة بالمقابر في الاتجاهات كافة كانت جميعها تشبه تلالًا سوداء لا تظهر فيها نقطة ضوء واحدة، حينذاك أنرتُ مصباحي من جديد، وأكملت طريقي نحو قبر الشيخ موسى.

عندما وصلت إلى أمام القبر دقَّ قلبي بالرهبة ذاتها التي شعرت بها حين وقفت أمامه من قبل، فتمتمت بآيات من القرآن بصوت خفيض، ثم ارتديت قفازي وبدأت أزيل بالجاروف كومة الطين المغلقة لباب القبر في هدوء حذر،

ساعدتني شدة جفاف الطين على سرعة إزالته، فحمدت الله في داخلي أنهم لم يستخدموا الأسمنت لإغلاق القبور في تلك الآونة، ثم أصدر الجاروف صوتًا عاليًا فجأة مع ارتطامه بحجر أسفل كومة الطين، فتوقفت حابسًا أنفاسي ثم أكملت عملي من جديد بعد بضعة دقائق تفحصتُ خلالها سكون الأجواء من حولي.

استغرقت إزالة كومة الطين وما أسفلها من حجارة ثلث ساعة تقريبًا، إلى أن ظهر باب القبر الذي كان مغلقًا بطوبٍ لَبِن مرصوص دون مادة لاصقة، مثلما تعودنا أن نفعل في قريتنا. مددتُ يدي وأزلت الطوب واحدة وراء أخرى حتى فتحت الباب عن آخره، ثم سلطتُ ضوء المصباح داخل القبر، ومددتُ رأسي وأنا أحرك مصباحي يمينًا ويسارًا، كانت أرضية القبر رملية تنخفض قرابة متر عن الأرضية في الخارج، يقبع عليها كفن طويل مهترئ تظهر منه جمجمة بشرية وبعض العظام، وبجوارها كفن صغير تظهر منه مقدمة جمجمة الذئب، همستُ إلى نفسي بقلب يدق خوفًا:

- رحمة الله عليك يا شيخ موسى، اعتنى المُغسِّل بذئبك وكفَّنه بكفن خاص به.

ثم وضعت مصباحي بين فكيَّ ومددتُ ساقي بحذر إلى داخل القبر، وهبطت إلى أرضيته محاولًا ألا أدوس أي عظمة بقدمي، ثم حملت كفن الذئب بعظامه إلى داخل جوالي بدون أن أضيع وقتًا في أي تفاصيل أخرى، وخرجت من القبر، وأعدت سريعًا رص طوب الباب مثلما كان، وباستخدام جاروفي خلطت الطين الجاف بالماء الذي كان معي صانعًا عجينًا طينيًا، وعلى قدر المستطاع أغلقت القبر بكومة من الطين تماثل حجمًا الكومة التي أزلتها، آملًا أن تجف مع طلوع النهار وألا يلاحظها أحد في الأيام القادمة، ثم نهضت وتفحصت الأجواء من حولي، كان السكون لا يزال سائدًا، نظرت في ساعتي، كانت تشير إلى الثانية صباحًا وأربعين دقيقة، فحملتُ جوالي وأدواتي وأسرعت عائدًا إلى بيتي، وهناك صرخت فيَّ مُنى بمجرد أن رأتني دالفًا إليها بجوالي المنبعج:

- ظننتكَ ستتخلص منه بعيدًا.

قلت:

- لم يعد هناك إلا وقت قصير على صلاة الفجر، وخشيت أن يقابلني أحد فيشك في أمر هذا الجوال.

قالت في غضب:

- لم يكن ذلك اتفاقنا، قلتَ إنكَ ستتخلص منه بعيدًا.

قلت بصوتٍ هادئ:

- عليَّ أن أفحص هذه العظام جيدًا، لستُ متخصصًا، لكن قد تساعدني المقالات والصور والأفلام التي عكفت عليها في الأيام الماضية، من يدري؟ لعلَّ الفتاة مخطئة ويكون ذنبًا عاديًّا ونرتاح من كل ذلك، لن يستغرق الأمر حتى الصباح، وقبل أن تنهضي من نومكِ أعدكِ بأن هذه العظام لن تكون في بيتنا.

قالت مغمغمة في استنكار:

- أنام؟! ومن يستطيع النوم وفي بيته عظام كانت مدفونة لعقود مع رجل يُقال إنه كان ممسوسًا من الجن.

قلت مهدئًا لها:

- أرجوكِ، اتركيني فقط الآن، وأعدكِ في الصباح لن يكون هناك شيء تخشينه.

وافقتْ على مضض، ثم تركتني وغادرت إلى الأعلى.

❁❁❁

كانت الساعة قد صارت الثالثة والنصف صباحًا عندما أخرجت رفات الذئب من الجوال ووضعته بحذر شديد على طاولة صغيرة في وسط غرفة الضيوف يقبع عليها مصباحان مضيئان، ثم بدأت أزيح بحرص الكفن المهترئ عن العظام ففاحت رائحة عطنة في أركان الغرفة.

كانت العظام مفككة عن بعضها تتعلّق بأغلبها بقايا ضئيلة من الأنسجة، جمجمة كبيرة ذات فك كبير ومحجري عينين واسعين، وضلوع متباينة الطول، وعظام طويلة وأخرى مسطحة، وفقرات مختلفة الأحجام، فرزتُ جميعها أمامي على امتداد الطاولة، ثم أمسكت بالجمجمة في رهبة ورفعتها إلى مستوى عيني، فأبصرت شقًّا غير منتظم الحواف طوله حوالي ستة سنتيمترات يظهر في مؤخرتها، ففكرتُ في داخلي وأنا أتحسس ذلك الشق أن تلك الإصابة هي ما تسببت في موته، وتذكرت حديث قريب الشيخ موسى عن قول جدته بأنه عاد إليهم حاملًا الذئب وفأسه، وهمست إلى نفسي:

- ضربة فأس قاتلة.

ثم تحسست الأنياب والضروس الكبيرة في الفكين العلوي والسفلي بعدما أثار انتباهي الأنياب الأربعة سيفية الشكل التي يصل طول الواحد منها إلى قُرابة الخمسة سنتيمترات، حاولت تذكر وصف الذئاب الرهيبة في المقالات التي قرأتها كي أقارن ما أراه بها، لكنّي شعرت بتشوش كبير، وأدركت في نفسي أنه بالرغم من كثرة ما قرأته فإن الجزم بمثل تلك الأمور لن يستطيع القيام به إلا متخصص، ثم وضعتُ الجمجمة جانبًا ونظرت إلى باقي العظام، وبدأت أفحصها على عجلٍ، لكني سرعان ما أخرجت زفيري يائسًا بعدما شعرت أن عقلي تائه لا يستطيع تحديد أي شيء، فتركتُ العظام مبعثرة على الطاولة وقررت في داخلي أن أدفنها بمجرد طلوع النهار في أي قطعة أرض بعيدة، حتى وإن عثر عليها شخص من القرية فلن يظن سوى أنها عظام كلب تحللت أنسجته قبل سنوات، ثم فتحت النافذة لعلّ الرائحة العطنة التي كانت تفوح بقوة في الغرفة تتلاشى، وتركت أحد مصباحي الطاولة مُضاءً، وحملت الآخر واتجهت إلى باب البيت، وتيقنت من إغلاقه جيدًا، ثم صعدت إلى غرفة نومي بعد ذلك كي أمكث هناك الساعات المتبقية حتى طلوع النهار، وقبل أن تنطق مُنى بشيء، قلت:

- سأخفي العظام بعيدًا ما إن تُشرق الشمس، وننسى هذا الأمر.

هزّت رأسها في غير اقتناع، فوضعت رأسي على الوسادة، لكن ما إن سقطت جفوني حتى سمعت صوت ارتطام أتى من أسفل، وثبت خوفًا من فراشي ووثبت منى هي الأخرى خائفة وأمسكت بذراعي، قلت والخوف يغمر كل خلية من جسدي:

- لعلّ قطًا غريبًا أسقط شيئًا في الظلام.

ثم نهضتُ من موضعي، وأمسكت بالمصباح وأنرته، بينما تحركت منى من خلفي تتشبث في طرف ثيابي العلوية، ونزلنا بحذر السلم الداخلي للبيت. كان السكون قد عاد مرة أخرى. قالت هامسة:

- تخلّص من تلك العظام الآن، أبعدها عن هذا المنزل.

ربتُّ على يدها، وقلت هامسًا:

- اطمئني، لا يوجد شيء.

وواصلنا نزولنا السلم، ثم تقدمنا في ترقب وخوف شديدين نحو الغرفة التي تركت فيها عظام الذئب، ليتجمّد كلانا رعبًا بعدما وجدنا يامن يقف أمام عظام الذئب ويحمل مصباح الطاولة في يده، صرخت مُنى من المفاجأة:

- يامن، ماذا تفعل هنا؟

جفل الصبي مرتعبًا، ثم صرخ إلينا في تلعثم:

- كنت أظن أن أبي هنا بعدما وجدت هذا المصباح مُضاء، وجئت فوجدت هذه.

اقتربت منه منى وأبعدته عن الطاولة، إلا أن ما لفت انتباهي وجعل قلبي ينتفض بقوة هي عظام الذئب التي كنت قد تركتها مبعثرة قبل دقائق على سطح الطاولة، إذ وجدتها قد انتظمت جميعها لتشكّل هيكلًا عظميًا مكتملًا للذئب؛ الجمجمة متصلة بالفقرات التي تراصت في هيئة عمود فقري يتصل بالأمام بعظام لوح الكتف المتصلة بعظام الأرجل الأمامية، ومن الخلف بعظام الحوض المتصلة بعظام الأرجل الخلفية وبعظيمات الذيل، وتواجه مقدمة

الجمجمة النافذة بشكل عمودي، قلت ليامن وأنا أنظر إلى عظام الذئب ب
حذر بالغ وقلبي يكاد ينخلع من موضعه:

- هل قمت بترتيب العظام؟

قال:

- لا.

سرَت رعشة عظيمة في جسدي، كنتُ على يقين أنني تركت العظ
مبعثرة في غير انتظام وغير مُوجَّهة للنافذة، وقلت لمنى دون أن أنظر إليها:

- أخرجي يامن حالًا من الغرفة.

إلا أنها همست لي بصوت خائف مرتعش وهي تواجه النافذة المفتوحة:

- انظر.

نظرت إليها بطرف عيني، ثم اقتربت منها بخطى حذرة وعيني على هيكل
الذئب، فأشارت إلى السماء، كانت السماء صافية يوجد بها البدر في الاتج
نفسه الذي تتجه إليه مقدمة جمجمة الذئب، فزاد رعبي رعبًا، غير أن ذلك
يكن ما تقصده مُنى، بل كانت تقصد النجم الوحيد الذي كان يلمع في السم
بعيدًا عن البدر، لتتابع في رعب شديد:

- إنه نجم أسيل، لقد عاد للظهور من جديد.

5

تسَمرتُ مكاني عندما أبصرت نجم أسيل يلمع في السماء، في مكانٍ آخر وحينٍ آخر كنت سأمسي أسعد البشر برؤية ذلك النجم من جديد، لكن مع ظهوره في ذلك التوقيت بالذات وبعد ما حدث من عظام الذئب لم يره عقلي سوى أنَّه إنذار بقدوم كارثة كبرى إن لم أبعد تلك العظام عنِّي وعن أسرتي، وبحركة لا إرادية مددتُ يدي سريعًا نحو النافذة وأغلقت مصراعيها، لأهمس بعدها إلى منى:

- اصعدي بيامن إلى الأعلى فورًا.

أمسكتْ بذراع الصبي في فزع وغادرتني على الفور، وأغلقتُ باب الغرفة من خلفهما، لأظل وحدي بمواجهة الطاولة أحدق إلى العظام القابعة على سطحها بأنفاس مرتعبة ومستعدًا لأي حركة مفاجئة، إذ توهَّم عقلي أنَّ ذلك الهيكل قد ينهض ويهاجمني في أي لحظة، لكنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث، فاستجمعت شجاعتي وأمسكت بالجوال في يدي اليسرى، وأسرعت بالتقاط العظام وإلقائها في داخله تباعًا بيدي الأخرى، ثم أحكمت إغلاق الجوال عاقدًا عنقه أكثر من مرة، وحملته مهرولًا إلى خارج البيت ومعي جاروفي المعدني في وقت كان فيه النهار قد بدأ في الطلوع، واتجهت نحو أطراف القرية حيث حفرت حفرة عميقة في أرض رطبة، وأسقطت فيها جوال الذئب وردمتها من جديد، لأخرج أنفاسي في ارتياحٍ عندما سوَّيت الأرض بقدمَي وتأكدت من عدم ظهور أي جزء من الجوال، وإن لم أستطع تجاهل النظر نحو البيت المهجور الذي يكمن في داخله مدخل سرداب فوريك والذي ظهر في الأفق بعيدًا أمامي مع انقشاع ضباب الصباح.

❊❊❊

عدت إلى المنزل، كانت مُنى ويامن ينتظرانني عند السلالم الخارجية.

قالت منى في ارتباك شديد:

- لم أستطع المكوث في الداخل، لا يزال الخوف يعصف بكل خلية في جسدي.

قلت مطمئنًا لها:

- لقد دفنته بعيدًا على عمق كافٍ، لن يستطيع أحد الوصول إليه، علينا أن ننسى أمره وكأنَّ شيئًا لم يكن، ولعلَّ ظهور النجم في ليلة أمس صدفة لا أكثر.

بدا على وجهها عدم الاقتناع، لكنَّها مثلي لم يكن في يدها شيء سوى أن نتجاوز الأمر ونُسلِّم بزوال الخطر حتى وإن كان داخلها لا يوافقها في ذلك.

***

دلفتُ إلى البيت فوجدته معبَّقًا برائحة البخور النافذة، وصوت القرآن الصادر من هاتفي الموضوع على طاولةٍ في منتصف الردهة السفلية عالٍ للغاية، أدركتُ أنَّها سارعت بفعل ذلك خشية وجود أي آثار شريرة للذئب، فطمأنتها ثم صعدت إلى غرفتي مدعيًا رغبتي في النوم محاولةً مني لعدم تضخيم الأمر على عكس ما كنت أخفيه في داخلي من تشتت وارتباك ظلَّا يضربان بعقلي طوال ساعات ذلك اليوم والأيام التي تلته من دون أن أجد تفسيرًا واحدًا لما حدث.

خلال تلك الأيام استمرت منى في إشعال البخور وتشغيل الهاتف بالقرآن ومراقبة السماء لرؤية إن كان نجم أسيل سيظهر مرة أخرى أم لا، إلا أنَّه لم يفعل، وكلما حاول يامن الاستفسار عن العظام أو الرعب الذي أصابنا تلك الليلة، ادَّعينا كذبًا أنَّنا بخير، وأنَّها لم تكن إلا عظام كلب جمعتها من الشارع المجاور كي أدفنها بعيدًا رحمةً به.

***

بعد أسبوعين بالتمام والكمال فوجئت بمروة ومعها شاب ثلاثيني لا أعرفه يطرقان بابي، استغربت الفتاة من رائحة البخور العالقة في كل مكان عندما دلفت إلى داخل البيت دون أن آذن لها، لكنَّها سرعان ما تجاهلتها وسألتني في نبرة حادة:

- أين الذئب؟

قلتُ هادئًا في إنكار:

- أي ذئب؟!

قالت:

- الذئب الذي أخرجته من القبر.

قلتُ كاذبًا:

- لم أخرج شيئًا، قلتُ لكِ إنَّني لم أعرف القبر، ولم أتحدث إلى أي من أقارب الشيخ موسى.

صاحت منفعلة:

- إنَّكَ كاذب، وكاذب فاشل، لقد قابلت قريب الشيخ موسى، وتعجَّب حين سألته عنه، وأخبرني أنَّكَ أيضًا تحدثت إليه بخصوص قريبه قبل أسابيع، وكومة الطين التي أغلقت بها القبر يستطيع الطفل معرفة أنَّها حديثة الصنع.

وأضافت بعين تتقد غضبًا:

- لقد فتحت الثلاثة قبور ليلة أمس بمساعدة بعض الرجال هنا في قريتك ممن يعرفهم «فاروق».

وأشارت بطرف عينها إلى زميلها، وأكملت:

- ولم أجد أي أثر له، فقط آثار أقدام على الرمال في قبر الشيخ موسى، بالطبع تعرف أقدام مَن.

قلت:

- لم آخذ أي ذئاب، وعليكِ أن تحرري محضرًا في قسم الشرطة لإثبات اتهامي رسميًا بذلك.

صرخت مجددًا:

- لم أكن أعرف أنك بذلك السوء، لا أعرف ما الذي قد تستفيده من وراء ذلك، لقد حرمتني وحرمت العالم من اكتشافٍ قد يغيّر نظريات كثيرة.

زعقتُ فيها:

- قلتُ لكِ لم آخذ شيئًا، هيا، عودي إلى حيثما جئتِ، ولا أريد أن أراكِ مرة أخرى.

حدجتني بنظراتها الغاضبة، ثم غمغمت بكلماتٍ تلعنني بها، وغادرت هي وزميلها.

أغلقتُ الباب من ورائهما، وأسندتُ ظهري إليه متنهدًا، في داخلي لم أغضب من ثورتها العارمة، كنت سأفعل الأمر نفسه بل أكثر إن حرمني أحدٌ من حلمٍ قريب سعيتُ وراءه لشهور، لكنْ لم يكن في يدي حيلة، كان حصولها على ذلك الذئب سيؤدي إلى مصائر غير محمودة لأناس كثيرين، فلتسامحيني أيتها الفتاة، ولعلّي أجد فرصة أخرى أعوّض لكِ ما خسرتيه من جراء إخفائي ذئبك.

***

في الأيام القليلة التالية بدأت حياتنا تعود شيئًا فشيئًا إلى ما كانت عليه قبل نزولي قبر الشيخ موسى متناسين ومتجاهلين ما حدث في تلك الليلة بل أخذت أقنع نفسي وأقنع منى مع الوقت أنّني مَن شكّل عظام الذئب في هيكله العظمي قبل صعودي إلى الغرفة، وقد أكون نسيت قيامي بذلك مع إرهاقي وسهري ليلتها، لنعبر بحياتنا ذلك المنعطف المفاجئ، إلّا أنّ شيئًا واحدًا لم نستطع تجاوزه مع مرور شهر واحد بعد تلك الليلة، وهو توعك يامن الغريب، إذ أُصيب الفتى بارتفاع درجة حرارته لليالٍ متتالية دون استجابة لأيٍّ من خوافض الحرارة أو المضادات الحيوية أو مضادات الفيروسات.

اختلف أطباء القرية في تشخيص مرضه، منهم من قال في البداية إنّها مجرد التهابات بسيطة في حلقه وصدره، ومنهم من أكّد عدم وجود مثل تلك الالتهابات مدعومين بالفحوصات الكثيرة السليمة التي أجريناها مع تعجب كبير باختفاء الحمى تمامًا نهارًا وعودتها ليلًا فقط في نمط ثابت.

مع الوقت أدركنا أنّ الشيء الوحيد القادر على خفض حرارته هو غمره في حوض من الماء الفاتر خلال الليل، ليصبح ليل الفتى حمّامًا طويلًا إن غادره لدقائق عادت الحمى من جديد.

لأكثر من شهرين انتقلنا من طبيب لآخر ومن مستشفى لأخرى دون أن نجد سببًا واضحًا لتلك الحمى، ولأنّ الأطباء لم يصدّقوا أنّ الفتى مريض إن ذهبنا إليهم نهارًا ووجدوا حرارته طبيعية كنا نعود ونذهب إلى عياداتهم الخاصة ليلًا ليصدّقوا صحة ما نقوله عن نمط تلك الحرارة، بيد أنّنا لم نلقَ منهم سوى إيماءات من التعجب والدهشة، خاصةً أنّ مسببات مثل هذا النمط من الحرارة لم تُشِر إليها أي من الفحوصات الكاملة التي أجريناها، قام بعض الأطباء بإعطائه علاجًا تجريبيًّا لأكثر من شهر بافتراض خطأ الفحوصات، لكنّ الحمى الليلية والهزلان بقيا كما هما. هَزُلَت مُنى كثيرًا هي الأخرى مع بقائها طيلة تلك الشهور ساهرة بجوار حوض مائه الذي صار سريره الليلي وعدم حصولها إلا على قدر ضئيل جدًّا من النوم، وأنا لم أستطع الانتظام في عملي مع الذهاب شبه اليومي إلى الأطباء، والسهر بجوارهما لعلّهما يحتاجان شيئًا.

مع انتهائنا من زيارة الطبيب التاسع في خلال ثلاثة أشهر، وهبوطنا من سلالم عيادته، نطقت منى بما كنت أخشى أن أفكر فيه:

- أعتقد أنّ الأمر يتعلق بتلك الليلة.

كنت أفهم مقصدها تمامًا، لكنّي ادّعيت عدم فهمي، فتساءلت:

- أي ليلة؟!

قالت بصوت يختنق بالدموع:

- الليلة التي وقف فيها يامن أمام عظام الذئب اللعينة.

كنت في داخلي أعرف أنّنا لو دخلنا في الدوامة المتعلقة بمس الجن فلن تنتهي أبدًا، فقلت وقلبي لا يوافقني:

- لقد لمست العظام أنا الآخر، كان الأولى أن يصيبني المس لا الفتى، أرجوكِ دعينا نواصل رحلة العلاج دون أن تشتتنا تلك الأفكار أو تقل عزيمتنا.

انهارت باكية، وجلست على درجة السلم، وقالت وهي تنظر إلى يامن الذي كان ينام على كتفي:

- إنّ حالته تسوء يومًا بعد يوم، بدأت أشعر أنّها أيام وأفقده.

أمسكت بيدها في رفق، وقلت:

- سيزول مرضه قريبًا بإذن الله، لقد دلّني أحدهم على طبيبٍ ماهر في القاهرة لكنّه خارج البلاد الآن، سنذهب إليه بمجرد عودته إلى البلاد.

غمغمت بكلمات غير مفهومة في يأس، وواصلت نحيبها.

***

شهر آخر لم يحدث فيه أي جديد، حُمى ليلية لا تستجيب إلّا للمياه، تصاحبها بعض التشنجات في بعض الليالي كانت تأتي لثوانٍ وتختفي دون علاج، وزيارات دون جدوى لأطباء جدد، وكلما سألتُ عن طبيب القاهرة وجدته لم يعد من الخارج، ساعدنا أحد أصدقائي في دخوله إلى مستشفى الأطفال الجامعي في مدينة المنصورة آملًا أن يكون المكان الأفضل لعلاج حالته، ظل الوضع كما هو خلال الخمسة عشر يومًا التي قضيناها هناك، إلى أن كتبت تعهدًا وأخرجته على مسئوليتي لنتابع حالته في بيتنا بعدما لم أشعر بأي تحسن.

في نهاية الشهر الرابع من المرض قالت منى إنّها بدأت تلاحظ هذيان يامن في بعض الأوقات أثناء نومه في حوض المياه، مرتعبةً من بدء تأثير الحرارة على عقله، حينذاك كدت أموت في داخلي، لم أشعر أنّني عاجز وقليل

الحيلة مثل ذلك الوقت، وعندما غادرتني أغلقتُ باب الغرفة وأخذت أبكي بكاءً لم أبكِ مثله في حياتي.

أشعلنا البخور في غرفة الفتى من جديد، وأحضرنا بعض شيوخ القرية لتلاوة القرآن في غرفته، وفي الأوقات التي لم يأتِ بها الشيوخ لم ينقطع هاتف منى بصوت القرآن، ثم أخذتُ أبحث بقلة حيلة عن روحاني من طاردي الجان مع انهيار جسد ابني يومًا بعد يوم، دلّني مديري في العمل على رجل ستيني يقيم في مدينة «المحلة الكبرى» قالوا إنّه الأفضل في مثل هذه الأمور، ذهبت إليه في مسقط رأسه، ظننت أنّني سأجده يرتدي جلبابًا وعقودًا من الكهرمان مثلما تعودت على مظهرهم في الأفلام السينيمائية، لكنّني وجدته رجلًا أنيقًا يرتدي قميصًا وبنطالًا ويمسك مِسبحة وحيدة في يده، شرحت له ما حدث فقال إنّه سينال عشرة آلاف جنيه قبل أن يتحرك معي، كنتُ قد أعددت المبلغ مسبقًا إذ عرفت أنّه يطلب ذلك دائمًا من مرتاديه، واصطحبته معي إلى قريتنا حيث دلف إلى غرفة يامن وسألنا أن يبقى هو بمفرده معه، بعد جدالٍ كبير بينه وبين منى اضطررنا للموافقة في النهاية وانتظرنا في الخارج.

بعد ساعتين ونصف تقريبًا كدنا نفقد عقولنا خلالهما أنا وزوجتي خرج إلينا ذلك الرجل وقال بنبرة حائرة:

- إنّه ممسوس لا شك.

دقّ قلبي سريعًا، فيما قالت له منى:

- فلتخرج ذلك الجن منه.

زمّ شفتيه وقال:

- لم أستطع التواصل مع الجن.

ثم صمت لثوانٍ وتابع:

- لكن من واقع خبرتي أشعر أنّه من جان الحراس.

قلت مستفهمًا:

- أي حراس؟

قال:

- نوع قوي من الجن، يُوكَّلون دائمًا بحراسة المقابر، مثل حراس المقابر الفرعونية.

نظرت لي منى وكادت تنطق لولا أنَّها أمسكت بكلماتها، فقلت للرجل:

- أكمل، سيدي.

قال:

- إنَّ مثل هذا الجان قوي عنيد، يحتاج بعضهم إلى قرابين ثمينة للغاية تصل لدماء طفلٍ مذبوح في بعض الأحيان.

وهزَّ رأسه آسفًا ثم قال متراجعًا:

- لكنِّي لست متأكدًا في الحقيقة، لم يُمكِّنِّي من التواصل معه.

ثم صمت مرة أخرى وأردف بعد تفكير:

- لا أعتقد أنَّكَ ستحضر إليَّ دماء طفلٍ ذبيح.

قلت على الفور:

- بالطبع.

قال:

- هناك حل آخر قد يُجدي، وهو إرجاع الشيء إلى أصله، لطالما طارد ذلكَ النوع من الجن لصوص المقابر ولم يسلموا منهم في حياتهم إلا بإرجاع مسروقاتهم. وإن كنت لا أعرف ماذا نال الطفل منهم.

صرخت فيَّ منى حينها:

- فلتُعد الذئب إلى القبر حالًا.

قلت لمنى:

- انتظري.

قال الرجل شاكًّا في أمري:

- أي ذئب؟

قلت:

- لقد أخرجت عظام ذئبٍ قديم من قبرٍ في القرية منذ شهور، قبل مرض الطفل بشهر تقريبًا.

هزَّ رأسه وقال:

- يبدو أنَّ ذلك الجن عاقبك في ابنك، فلتُعِد ما أخذته إلى موضعه، ربما يستطيع طفلك النجاة وقتها.

ثم فوجئت به يعطيني النقود التي أخذها منِّي مُعللًا ذلك بأنَّه لا يأخذ نقودًا مقابل عدم فعل شيء، وغادرنا وهو يدمدم:

- فلتُعِد الشيء إلى أصله.

قالت منى:

- فلتُعِد الذئب الآن إلى قبر الشيخ موسى.

هززتُ رأسي موافقًا لها في صمت.

❋❋❋

في تمام العاشرة مساءً ذهبتُ إلى رقعة الأرض التي دفنتُ فيها الجوال الذي يحتوي عظام الذئب، وأخرجته ثم وضعته دون أن أفتحه في حقيبة ظهرٍ كنت قد أخذتها معي ظنًّا منِّي أنَّها ستقلل الريبة التي قد يسببها الجوال المتسخ، وانتظرت هناك حتى الثالثة صباحًا ثم تحركت بالحقيبة إلى مقابر القرية، وهناك لم أهتم على الإطلاق بإنارة البيوت من حولها عازمًا في داخلي على إعادة تلك العظام اللعينة إلى قبرها حتى لو كلفني ذلك إمساك الأهالي بي، وأخذت أزيل كومة الطين سريعًا، ومن بعدها طوب الباب المرصوص دون مادة لاصقة، ثم أخرجت الجوال من حقيبتي وألقيته إلى داخل القبر دون أن أهبط إليه، ثم رصصت طوب بابه من جديد دون أن أصنع كومةً أخرى من الطين، تركته مُغلقًا بالطوب المرصوص فحسب، وعدت سريعًا إلى المنزل.

انتظرنا في حماس وترقب أن يحدث تحسن درامي في حالة يامن الصـ
بعد إعادتي الشيء لأصله كما قال الروحاني، لكن درجة الحرارة المرتفـ
ظلت كما هي، فسألتني منى في ريب إن كنت قد أعدت الذئب حقًا إلى القـ
فأقسمت لها أني فعلت ذلك، وتستطيع أن تذهب إلى القبر بنفسها للتأكـ
صدقي.

أيام أخرى ظلَّ فيها الحال كما هو عليه، لا تحسن في حالة الصبي نعـ
إلى طبيب القاهرة الشهير أخيرًا بعد عودته من الخارج، فحص كل التحاليـ
والفحوصات التي لدينا وهزَّ رأسه آسفًا بأنَّه لن يضيف شيئًا، مؤكدًا أنَّ هنا
الكثير من الحالات الغريبة التي يقف أمامها الطب عاجزًا، وأعاد لنا قيمة
الكشف آسفًا، خرجنا من عيادته المزدحمة في منتصف الليل تقريبًا واستقلـ
سيارة خاصة عائدين إلى قريتنا التي تقع على مسافة ساعتين تقريبًا من
القاهرة. كان القمر بدرًا ليلتها، علَّقت بصري به شاردًا وداعيًا الله أن يتم
شفاء ابني الذي كان ينام ممددًا على الكنبة الخلفية في السيارة واضعًا رأسـ
المُغطى بقماشة مبللة على فخذ أمه، فيما كنت أجلس على المقعد الأمامي
بجوار السائق، فكرت في الذئب الذي أعدته إلى القبر وأعدت لوم نفسي أنني
رجعت ليلتها إلى البيت بدلًا من التخلص منه بعيدًا، كنتُ السبب فيما حدث
لابني وإن أصابه مكروه فلن أسامح نفسي أبد الدهر، نظرت في مرآة السيارة
الداخلية، كانت منى قد استغرقت في النوم جالسةً هي الأخرى، مسكينة لا
أتذكر أنها نامت ساعتين مكتملتين خلال الشهور الأربعة الماضية، ولجتُ إلى
هاتفي وأخذت أقلِّب في تطبيق الفيسبوك وفي تطبيق محادثاته شاردًا، كان
لدي الكثير من رسائل زملائي بالعمل يطمئنون على حالة يامن الصحية، لم
أستطع الرد وأخذت أقلِّب الرسائل تباعًا بمزيد من الشرود، استوقفني اسم
مروة طارق، فتحت رسائلنا القديمة التي أرادت فيها مقابلتي، وفكرت لوهلة
في كتابة اعتذار لها وإخبارها بأنني أعدت الذئب إلى مكانه إن كانت تريد
أن تكمل بحثها، غير أنني سمعت يامن يهذي أثناء نومه، كانت كلماته غير

مفهومة في البداية، ثم بدأت تتضح شيئًا فشيئًا لتتسع حدقتا عيني وأنظر إلى الفراغ أمامي غير مصدق أذناي عندما سمعته ينطق بوضوح:

- حونا، جانا، حونا، جانا.

التفتُّ إليه بأنفاس متسارعة، كان لا يزال مغمضًا عينيه وهو يواصل هذيانه بالكلمات نفسها التي أخبرني الحاج رأفت الخولي أنَّ قريبه الشيخ موسى الديب كان يرددها وقتما عاد بذئبه إلى أخته الكبرى فاقدًا عقله.

6

مصدومًا نطقتُ إلى منى كي تستيقظ، فتحت عينيها نصف فتحة، وسألتني في فزع:

- ماذا هناك؟!

قلت مرتعبًا:

- لقد كان الفتى يغمغم بكلمتَي: حونا، جانا، منذ متى ينطق بهاتين الكلمتين؟!

نظرت لي في تشتت وكأنّها تحاول استيعاب ما أقوله، وقالت مستفهمة:

- ماذا تقصد؟

قلت مؤكدًا:

- لقد غمغم الفتى بكلمتي حونا جانا بوضوحٍ منذ قليل.

اعتدلت في جلستها وقالت:

- لم أسمعه يقولهما من قبل، كانت هلاوس نومه غير مفهومة دائمًا، لماذا تخشى هاتين الكلمتين تحديدًا، ماذا بهما؟

تذكرت أنّني لم أخبرها عن حديث السيد «رأفت الخولي» بشأنهما، فقلت لها عندما رأيت يامن يفتح عينيه ويحدق إليَّ:

- لا شيء، سأخبركِ لاحقًا.

أدركتْ أنّني لا أريد التحدث أمام الفتى، فهزّت رأسها إيجابًا، ثم بدّلت القماشة المبتلة على رأسه، وأسندت رأسها إلى مسند الكنبة، وغاصت في نومها من جديد وتبعها يامن، بينما أسندتُ رأسي إلى مسند مقعدي ناظرًا

إلى البدر في السماء تتساقط دموعي إلى وجنتي رغم محاولات تماسكي، لا يفكر عقلي سوى في تأكيد ارتباط ما يحدث لابني بما حدث للشيخ موسى وذلك المصير الذي أراه ينحدر نحوه لحظة بعد أخرى دون استطاعتي إيجاد أي حل.

***

وصلنا البيت في تمام الثانية والربع صباحًا، كانت منى ويامن قد استيقظا قبلها بدقائق، ودَّعنا السائق ثم دلفنا إلى بيتنا حيث صعد يامن إلى حوض مياه غرفته دون أن ننطق، سألتني منى بمجرد أن فارقنا:

- ماذا حدث في السيارة؟

قلت:

- لقد نطق يامن بكلمتين كان الشيخ موسى يرددهما وقتما عاد بنا إلى أهله فاقدًا عقله.

احتقن وجهها رعبًا، وصرخت:

- قلت لك إنَّ ذلك الذئب هو السبب.

هززتُ رأسي آسفًا ومتفقًا معها، فتابعَت:

- هل هذا يعني أنَّ ابني في طريقه إلى الجنون؟

زممتُ شفتَي ولذتُ بصمتي قبل أن أقول في قلة حيلة:

- سأحضر روحاني المحلة الذي جئنا به من قبل مرة أخرى، لعله يجد هذه المرة طريقةً للتواصل مع الجن الذي يمسه.

لاذت بصمتها هي الأخرى، ثم فارقتني دون أن تنطق بكلمة.

كانت تلك الليلة من أقسى الليالي التي مرَّت علينا منذ مرض ابننا، ظلَّ كلانا مستيقظًا في صمت طوال الليل بجوار الفتى الراقد مغمضًا عينيه في حوض مياهه، انتظرنا أن يتحدث أثناء نومه من جديد لعلَّنا نُكذِّب ما سمعته، لكنَّه واصل نومه في هدوء.

عند الساعة الرابعة والنصف سألتُ منى أن تذهب إلى سريرها في الغرفة الأخرى لتريح جسدها رغم إدراكي أنها لن يغمض لها جفن، بعد جدالٍ كبير وافقتْ وتركتني بجوار يامن أنتظر حلول الصباح بفارغ الصبر كي أهاتف الروحاني وأترجاه ليأتي إلينا في أسرع وقت، ثم أخذ عقلي يضج بقوة مفكرًا في كل ما حدث منذ رسالة الباحثة لي، حتى أصاب الألم رأسي، فخرجتُ إلى الشرفة لأملأ صدري بهواء الفجر لعلَّه يخفف ذلك الألم بعض الشيء، كان البدر ينير الأرجاء، وقفت لدقائق ثم عدت إلى الفتى مرة أخرى، كان لا يزال غارقًا في نومه، هممتُ لأغلق باب الشرفة، فسمعته يغمغم بكلماتٍ غير مفهومة، تركت الباب واقتربت منه وجلست بجواره، توقف فجأة عن الغمغمة، مددت يدي لأجس درجة حرارته، فأصابتني لسعة قوية مفاجئة كأنَّ مَسًّا كهربائيًّا أصابني، وللحظة شعرت أنَّ عيني رأت مشهدًا من حلم ما، أبعدت يدي سريعًا عن رأس الفتى، وأخذت أنظر إليه في اضطراب وخوف شديدين بينما يعلو صدري ويهبط بأنفاس لاهثة متتابعة.

بعد دقيقة واحدة مددت يدي مرة أخرى في حذر شديد ولامست رأسه، أصابتني الوخزة القوية من جديد، فثبَّتُّ يدي على رأسه بإحكام رغم شعور الكهرباء الذي كان يسري بقوة في جسدي، وأغمضت جفوني رغمًا عنِّي بعدما شعرت أنَّ عينيَّ قد تخرجان من محجريهما، لأسمع في أذني فجأة تمتمات شخص يردد آيةَ الكرسي في تلعثم بينما يسير لاهثًا في مكانٍ شبه مظلم، حاولت أن أميِّز صاحب ذلك الصوت، لكنِّي لم أستطع، ثم أدركت أنَّني أرى بعين ذلك الشخص الذي كان يهرول ممسكًا في يده مصدرًا خافتًا للضوء ويتمتم بآيات لا أحفظها من القرآن الكريم، إلى أن فتحت عينيَّ غير مصدقٍ حين وجدت الصوت اللاهث يحدث نفسه قائلًا:

- اهدأ يا موسى، سنلقي نظرة سريعة، ونعود إلى بيتنا.

❊❊❊

فتحتُ عينيَّ في رعبٍ شديد، كان يامن لا يزال نائمًا، تلفتُّ حولي في صدمةٍ وذهول؛ ما الذي يحدث؟! ومكثت أحدق إلى الفتى بأنفاس لاهثة، ثم

وجدتني الامس رأسه من جديد، ولمًا شعرت باللسعة القوية ذاتها قبل
براحة يدي على جبينه، وأغمضتُ جفنيَّ. رأيت بعيني جنودًا سُمرًا يرتدون
ثيابًا عسكرية قديمة ويركبون جمالًا يتقدمون نحوي بسياطهم الطويلة
بينما يجري من حولي أناس كثيرون بجلابيبهم في حالةٍ من الهرج والمرج
ويقول أحدهم لي:

- اركض يا موسى، سيضربون من يلحقون به، اركض يا فتى إنَّ سياطهم
مؤلمة للغاية.

- «ماذا تفعل؟».

فجأةً ظهر ذلك الصوت الأنثوي والذي لم يكن غريبًا على أذني قط.

- «ماذا تفعل يا خالد؟».

ردَّد الصوت السؤال نفسه بصوت أعلى مُشوِّشًا على مشهد الجنود الذي
أراه، قبل أن ينقطع المشهد تمامًا، انتبهت حينها إلى منى التي كانت تقف
بجواري متعجبة وتكرر سؤالها في استغراب شديد وهي تحاول نزع يدي
عن رأس يامن، كدت أخبرها بما رأيته، لكنِّي أمسكت بكلماتي في اللحظة
الأخيرة، وقلت:

- لا شيء، كنت أطمئن على حرارته.

قالت:

- كاد رأسه يتحطم في يدك، إنَّك مرهق للغاية، فلتنم ساعتين قبل ذهابك
إلى عملك، لقد اكتفيتُ من النوم.

حاولت إقناعها بأن تتركني أكمل الجلوس بجوار الفتى، لكنَّها أصرَّت،
وضعت يدها هي على جبهته، ترقبتُ ما إن كانت ستشعر بما شعرت به، إلا
أنَّها لم تعلِّق بشيء، ونظرت إلى باب الشرفة المفتوح، وقالت:

- لقد طلع النهار، سأنقله إلىٰ سريره.

ثم ذهبت إلى الغرفة الأخرى لتحضر مِنشفة تجفف بها جسده كما تعودت
أن تفعل كل صباح.

اطمأننتُ إلى مغادرتها الغرفة، فاقتربتُ سريعًا من الفتى ولامستُ جبهته متفحصًا ما إن كان الأمر سيتكرر معي، لكنَّ شيئًا لم يحدث، فأبعدتُ يدي سريعًا قبل عودة منى، ثم ساعدتها في نقل يامن إلى سريره، وانتقلتُ إلى غرفتي يشتعل عقلي بما رأيته؛ أولئك الجنود الذين رأيتهم أو بمعنى أدق رأيتهم بعينَيْ موسى، والطريق المظلم الذي كان يقطعه بمصباحه، وما إن كان ذلك الشيخ أو جنُّه يريدان إبلاغي بأمرٍ ما، هل كان الفتى يحلم وانتقل ذلك الحلم لي بطريقة ما؟! أم أنا مَن كنت أحلم؟ ولماذا حدث ذلك الأمر في الليلة ذاتها التي نطق فيها يامن بكلمتي الشيخ موسى؟! حاولت تذكر المزيد مما رأيته عند ملامستي جبهة الفتى لعلَّ شيئًا فاتني، لكن ظل مشهدا الطريق المظلم والجنود هما السائدين فحسب، فكرت في قريب الشيخ موسى من جديد، وعزمت على الذهاب إليه لمعرفة المزيد عن قريبه لربما أعثر على شيء ما يرشدني وسط الضياع الذي يصيبني ويصيب أسرتي.

في تمام التاسعة صباحًا توجهت مباشرةً إلى بيت السيد «رأفت الخولي»، ضحك حين رآني، وقال:

- لعلَّك جئت من جديد كي تسألني عن الشيخ موسى.

قلت:

- نعم سيدي، أريد معرفة كل شيء عنه.

قال بابتسامة طيبة دون أن يسألني عن سر استفساراتي المتكررة:

- لقد أخبرتك كل شيء سابقًا، ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟

سكتُّ، ثم قلت:

- كيف جُنَّ الشيخ موسى؟

قال:

- كما أخبرتك، عاد فجأة حاملًا ذنبه وفاقدًا عقله.

قلت:

- والكلمتان اللتان كان يرددهما: حونا جانا، ألا تدري حقًا ماذا كان يعني بهما؟

قال:

- والله يا ولدي لو كنت أعرف لأخبرتك.

بعدئذٍ لم أكن أعرف عمّا أسأل عنه بالضبط، فقلت:

- هل لديك أي شيء من متعلقاته؟

فكّر الرجل ثم قال بعد ثوانٍ:

- شهادة وفاته، كانت بين الأوراق التي تركتها أمي.

قلت:

- هل لي أن أراها؟

قال:

- انتظر فحسب.

ثم دلف ببطء إلى إحدى غرف بيته وغاب فيها لأكثر من عشرين دقيقة، ثم عاد وفي يده ورقة قديمة مُصفرة، وقال:

- هذه هي، مات سنة 1962 م.

نظرت إلى الشهادة، كان تاريخ الوفاة المُدوّن 7 سبتمبر 1962م، وتاريخ مولده 9 مارس 1903م، وسبب الوفاة المُدوّن هو هبوط مفاجئ في دورة دمه، تذكرت ما رأيته عند ملامسة جبين يامن، كان الصوت الصادر الذي سمعته يوحي بعقلانية صاحبه وهدوئه، فإن كان ما رأيته قد حدث في الواقع من قبل، فذلك يعني أنني رأيت شيئًا شهده الرجل قبل فقدانه عقله، فسألت السيد «رأفت»:

- في أي عام فقد الشيخ موسى عقله؟

فكر الرجل ثم قال:

- في العام الذي تزوجت فيه خالة أمي، ووُلدت فيه أمي أيضًا، قالت جدتي إنهم لم يفرحوا بتلك الزيجة ولا بولادة أمي بعد ما حدث لشقيقهما الوحيد.

سألته:

- في أي عام تحديدًا؟

قال:

- 1921 م.

همست إلى نفسي:

- 1921 م.

بعدها لم أجد في بالي أسئلة أخرى، فشكرته كثيرًا واعتذرت له عن إرهاقي له، فلامني على اعتذاري مؤكدًا على استقباله لي في أي وقت، ثم غادرت وأنا أردد:

- 1921 م.

***

في المساء كان القمر بدرًا أيضًا، حاولت إقناع مُنى عندما صارت الساعة الواحدة صباحًا بالنوم في غرفتنا وتركي مع الفتى في غرفته، دون أن أخبرها عن رغبتي في استبيان ما قد يحدث تلك الليلة أيضًا، لكنها رفضت شاكّة في أمري، اضطررت في النهاية إلى وضع بعض الأقراص المنومة التي أحضرتها من صيدلية القرية وأنا عائد من زيارة السيد «رأفت الخولي» في كوب حليبها، وعندما غابت في سُباتها حملتها برفق إلى سريرها، ودلفتُ إلى غرفة الفتى وفتحتُ باب الشرفة على مصراعيه، ثم حركتُ حوض المياه بالقرب منه ليكون مواجهًا للبدر، ومددتُ يدي ولامست جبين الفتى وأنا أحدق إلى البدر، ثم أغمضتُ عينيّ.

7

أسيل

كنت أجلس في حديقة القصر الخلفية بين وصيفاتي، نستمع إلى غناء إحدى الفرق الموسيقية عندما افترّ ثغري عن ابتسامة خفيفة وأنا أتذكر يوم ركوبي السفينة الملكية التي تركها تميم راسيةً على شاطئ بحر مينجا الشمالي لعام ونصف كاملين في انتظاري، بعدما حسم قلبي وعقلي معًا قراري بالعودة إلى أماريتا، والزواج من تميم الذي فعل كل شيء من أجلي، ورغم مرور عشر سنوات تقريبًا على تلك الأيام فإنني ما زلت أتذكر كل تفصيلة حدثت فيها، إذ أبحرت بنا السفينة نحو الجنوب، وبمجرد أن عبرت هضاب الريكاتا أطلق بحّاروها السهام المضيئة نحو السماء، لترافقنا فيما بعد اثنتا عشرة سفينة أخرى ظلّت جميعها تطلق سهامها نحو السماء في تتابع ترحيبًا بي، حتى وصلنا إلى شاطئ أماريتا، فوجدته مكتظًّا على امتداده يمينًا ويسارًا بجنود الجيش الأماريتي المصطفين بدروعهم اللامعة، يتقدمهم كبار القادة ورجال المجلس الأماريتي، ومن أمامهم تميم الذي ابتسم حين تقدمت نحوه واحتضنته دون قول كلمة واحدة.

❁❁❁

كنت قد سمعت كثيرًا مصطلح «زفاف أسطوري»، لكنّي لم أتخيل يومًا أن ينطبق ذلك المصطلح حرفيًا على حفل زفافي واحتفالاته التي سبقته بأربعين ليلة كاملة، إذ تفرقت سفن الأسطول الأماريتي على امتداد بحر مينجا مواصلةً إطلاق سهامها المضيئة وألعابها النارية نحو السماء كل ليلة، وزيّنت

البيوت بالرايات الملونة، وفُرشت الطرقات والأزقة بالورود الطبيعية، وامتلأت الساحات بموائد الطعام المتخمة بأشهى الولائم التي أعدَّها أمهر الطباخين في بلادنا، وجاءت الفرق الموسيقية بعازفيها وراقصيها إلى أماريتا من كل حدب وصوب لتنتشر في مدنها، حتى قيل إنه لم يكن هناك موطئ قدم واحد في البلاد لا يُسمَع فيه الموسيقى خلال تلك الأيام، وقبل أسبوع كامل من يوم الزفاف مُنح كل العاملين في البلاد عشرين قطعة نحاسية منحة زفاف الملك وأعفوا من عملهم سبعة أيام كاملة مدفوعة الأجر.

أمَّا القصر الملكي فطُليَت جدران ساحته الكبرى بماء الذهب، وشُيدت في أوسطه -بجوار تمثال تميم- فوَّارة كبرى كان ماؤها يرتفع متراقصًا لعشرات الأمتار، ثم جاء اليوم الموعود فاجتمعت الحشود بساحة القصر مهللين ومتراقصين مع موسيقى الفرقة الملكية الموسيقية التي تناثر أفرادها في شرفات القصر وحول الفوَّارة، وبين حين وآخر كانت مجانيق الشاطئ تُطلق نحو الحاضرين كرات قماشية تُفتَح في الهواء قبل سقوطها إلى الأرض فتتساقط منها هدايا كثيرة مختلفة من الورد والأقمشة والقطع النحاسية والذهبية والأحجار الكريمة، بينما عُلقت في داخل القصر مئات الحبات من البلور المُصاغ في شكل طيور ونجوم، وفي وسط قاعته العلوية وُضع هيكل عظمي لذئب ضخم في صندوق زجاجي كبير، رُصعَت جمجمته وعظامه جميعها باللؤلؤ، وثُبِّت في محجري عينيه حجران من الياقوت الأحمر، عرفت فيما بعد أنه جاء بين الهدايا قبل أيام من الزفاف.

كنت أنتظر في غرفتي عندما كانت الوصيفات يتحدثن عن المشهد الأسطوري في الساحة وفي قاعة القصر السفلية، وتطرق حديث بعضهن إلى امتلاء خزائن القصر بهدايا الضيوف وتراكم الهدايا الزائدة في طرقات القصر حتى أغلقتها من كثرتها، قبل أن يفتحن أفواههن انبهارًا عندما أحضرت «جيلان» وصيفتي المقربة فستان زفافي الفضي المُرصَّع بثلاث آلاف قطعة من الألماس، والذي صممه «تيمور الداني» أفضل مصممي الثياب في بلادنا بعدما أوصاه تميم بصنعه في اليوم الذي عدت فيه إلى أماريتا، مثلما أوصى

مصممًا آخر من إقليم «إكتارا» بأن يصنع لي تاج زفافي من الذهب الإكتاري الأبيض. شعرت بجسدي يرتجف اضطرابًا بعض الشيء وأنا أرتدي الفستان، لكنّ اضطرابي بلغ ذروته حين دلف إليّ تميم بزيه العسكري، وقبّل رأسي، قبل أن يُلبسني التاج بنفسه، ويمسك بيدي ويتجه بي إلى شرفة القصر المطلة على ساحته المكتظة بالحشود لتحيتهم، فهتفوا باسمه واسمي بهتافاتٍ لا أكذب إن قلت إنّني شعرت بأن الأرض ترتج أسفل قدمي من قوتها، لأدرك في تلك اللحظات وأنا أنظر إليهم بينما يمسك تميم بيدي في رفق أنني صرت ملكة أماريتا.

●●●

مع شروق شمس كل يوم جديد كانت نظرة الحب التي أراها في عينَي تميم تخبرني أنني لو عشت ألف عام فوق عمري فلن أجد شخصًا يحبني مثلما يحبني ذلك الملك العاشق، ورغم أنني كنت أومن بأن قلب المرأة لن يحب أبدًا رَجُلين بنفس القدر، وبعد كل ما كان في داخلي تجاه خالد، صرت الآن أومن بكل جوارحي أنني لا أحب ولن أحب شخصًا في حياتي بقدر هذا الحب الذي أكنُّه لزوجي العزيز.

كان مكاننا المفضل في وقت فراغنا بالقصر هي مكتبته الكبرى، ندلف إليها معًا كي نناقش كتابًا ما، وكعادته كان يحب كثيرًا الاستماع إلى وجهة نظري ويناقشني بعقلانية كبرى فيها، وإن اقتنع بها ووجد ما يخالفها في كتاب ما ألقى بذلك الكتاب في نيران المدفأة مثلما كان يفعل حين دلفت إلى القصر للمرة الأولى، وعندما شعر بأنني لا أعرف كثيرًا عن تاريخ البلدان عيّنَ لي معلمين: أحدهما اسمه «جُنيد» من أماريتا، وآخر أكبر سنًّا من إقليم «منبق» اسمه «خلدون»، كانت مهمة السيد «جُنيد» الرئيسية هي تدريسي تاريخ أماريتا والبلدان الأخرى جنوب بحر مينجا، فيما اختص السيد «خلدون» بتدريسي تاريخ بلاد شمال مينجا ومن بينها زيكولا في دروس أسبوعية.

●●●

خلال الثلاث سنوات الأولى بعد الزواج واصل تميم حملاته الخارجية إلى
بلدان شمال مينجا للقضاء على ما تبقى من اتفاقيات البشر مقابل الـ
كان يقود بعضها بنفسه أحيانًا، وفي أحايين أخرى كان يوكِّل قائد جيوشه
السيد «جرير» لقيادة تلك الحملات، بينما اهتممت في تلك الأوقات بشؤون
القصر الداخلية دون أن أتدخل من قريب أو من بعيد في شؤون الحكم
لاقتناعي التام بأنها أمور تحتاج إلى من هو أكثر مني خبرة وتخصصًا. لكن
في السنوات السبع الأخيرة فأعاد تميم جيشه بالكامل إلى البلاد بعدما تأكد
من انتهاء العمل بتلك الاتفاقيات، لتمضي حياتنا وحياة شعبنا خلال تلك
السنوات في رخاء وازدهار وحب شعبي لي وصل إلى درجة العشق، حتى
جاءت تلك الليلة وما حدث فيها من أمر غريب، حيث كنت أجلس في قاعة
القصر الرئيسية مع بعض السيدات والسادة من الضيوف الرسميين نستمع
إلى عزف إحدى الفرق الموسيقية التي حضرت إلينا من بيجانا، ولم يكن
تميم معنا في ذلك الحين، إذ كان في طريق عودته من زيارة مناجم الريميز،
وبمجرد أن انتهى الحفل وغادر الضيوف وصعدتُ السلالم الداخلية للقصر
مع وصيفاتي حتى فوجئت بهيكل الذئب العظمي المُرصع باللؤلؤ والموضوع
في صندوقه الزجاجي وسط القاعة العلوية منذ يوم زفافي يقفز فجأة من
صندوقه محطمًا زجاجه، ويهاجمني على حين غرة، وكاد يفترسني لولا
حارسي الشخصي الذي ضرب جمجمته بسيفه في اللحظة الأخيرة لتسقط
متدحرجة بعيدًا عن باقي عظامه، تتناثر منها حبات اللؤلؤ متقافزة في أرجاء
القاعة، لنفاجأ بباقي هيكله العظمي يزحف مقتربًا من الجمجمة ويعيدها إلى
موضعها في مقدمته، وسرعان ما نفض بقية اللؤلؤ عن عظامه، ثم ركض
نحو النافذة المفتوحة على مصراعيها، وقفز منها إلى خارج القصر مخلفًا
حبات اللؤلؤ في طريقه، ركضت إلى النافذة وراءه، ونظرت عبرها في ذهول
وأنا أبصر ذلك الهيكل العظمي وهو يفر بعيدًا، بينما يركض الناس أمامه في
رعب شديد وصدمة لا تتقبلها عقولهم، لأفاجأ بعدها بخمسة هياكل عظمية
لذئاب أخرى تظهر في الأفق، وتركض هي الأخرى في نفس الاتجاه الذي فر
إليه ذئبنا، تجاه بوابة المدينة الشمالية.

في رعب شديد وقفت مكاني مجمدة الجسد أحدق نحو الذئاب وهي تواصل ركضها كأنها من لحم ودم، قبل أن أسأل الوصيفات المشدوهات هن الأخريات بجواري إن كان ما أراه حقيقيًا أم هلاوس لا يراها غيري، لتجيبني «جيلان» في صدمة:

- إنه حقيقي تمامًا.

عندما اختفت الذئاب من محيط رؤيتنا، وعاد الحراس ليؤكدوا خلو القصر من أي هياكل أخرى، وخروج الستة هياكل من البوابة الشمالية نحو بحر مينجا ليبحروا إلى داخله دون أن يستطيع الحراس الإمساك بها من المفاجأة التي أصابتهم، عدت إلى غرفتي بقلب يدق فزعًا وأنفاس تلهث رعبًا مما حدث. عاد تميم عند منتصف الليل وعلم بما جرى، لم يصدق ما سمعه من حراسه لولا أنني أكدت له صحة قولهم، حينذاك أمر حراسه سريعًا بالانتشار في المدينة والبحث عن أي هياكل أخرى في البيوت وإحراقها من دون الانتظار لمعرفة سر صحوة تلك العظام من الموت وحركتها، وبعد ساعة واحدة اجتمع بمستشاريه من رجال المجلس الأماريتي، دعاني في تلك الليلة لحضور ذلك الاجتماع رغم حالة الاضطراب التي لم تغادرني، كان جميعهم لا يجدون تفسيرًا لعودة تلك الهياكل إلى الحياة، ثم أُتي بالرجال الذين كانوا يملكون الهياكل الخمسة التي ركضت هي الأخرى، فقال جميعهم الحديث نفسه؛ كانت عظام الذئاب في بيوتهم منذ سنوات طويلة كنوع من التزيين المنزلي، وفجأة دبَّت فيها الحياة وركضت خارجًا.

انتهى ذلك الاجتماع دون أن يصل تميم إلى شيء مفهوم أو تفسير واضح لما حدث، حتى فوجئنا بإحدى الوصيفات التي كانت تقف بالشراب جانبًا تصرخ فجأة وهي تنظر عبر النافذة، وعندما اقتربتُ منها أنا وتميم توقفنا مكاننا في تعجب ودهشة لم نشعر بهما في حياتنا من قبل، إذ وجدنا بدرًا إضافيًا في السماء يسطع بشدة على مقربة من القمر الاعتيادي الذي كان بدرًا أيضًا في تلك الليلة، نظر تميم نحوي بملامح قلق لم أشهدها على وجهه سابقًا، أمَّا أنا فشعرت بأنني سأسقط إلى الأرض من الرعب الذي اجتاحني،

تساءل تميم إلى مستشاريه الذين لم يكونوا قد غادروا بعد إن كان أحدهم يعرف شيئًا عن ظهور قمرين في السماء في الآن نفسه، وقفوا جميعًا وكان على رؤوسهم الطير، حينذاك دلف إلينا السيد «خلدون» مهرولًا يتساقط من العرق بغزارة، وانحنى للملك تميم، أدركت في داخلي أن هرولته إلينا في ذلك التوقيت ترتبط بظهور ذلك البدر الإضافي، وكنت محقَّة، حيث قال في تلعثم بمجرد وقوفه أمامنا:

- هل نظرتَ إلى السماء من النافذة سيدي؟

قال تميم محاولًا إخفاء قلقه:

- نعم، بدر إضافي في السماء لا نعرف عنه شيئًا.

قال الرجل في رعب حقيقي:

- إنه شاهد وادي الذئاب، لقد عاد للظهور من جديد.

8

خالد

دمية قماشية محشوة بالقطن في صورة أرنب يمسكها مراهق قصير الشعر يرتدي جلبابًا فلاحيًا مهترئًا ويقول ضاحكًا:

- انظر يا موسى، لقد وجدنا هذه في سيارة صديقك.

أتطلع بعيني إلى السيارة السوداء ذات الحالة الجيدة للغاية رغم طرازها القديم، وأمد رأسي إلى داخل نافذتها لأتفحص مقاعدها الأمامية والخلفية قبل أن أرى عبر زجاجها الخلفي جملًا يركض وحيدًا، صارا جملين، ثلاثة، أربعة، والرجال والصبية يلاحقونها محاولين الإمساك بها.

ظلامٌ مفاجئ.

الطريق المظلم مرة أخرى، وفي يدي المصباح خافت الإضاءة، لا، إنها شعلة صغيرة، لا، لا، إنها لمبة جاز يهتز لهب فتيلها داخل قمعها الزجاجي بفعل الريح المشتدة، ما زلت أتمتم بآية الكرسي وآيات أخرى من القرآن، إضاءة الطريق تزداد أمامي فجأة، أنظر إلى السماء، هناك بدر ساطع، أتقدم أكثر في طريقي، عاد الظلام مرة أخرى، تبًا لتلك الغيوم التي أخفت البدر وراءها، دقات قلبي تتسارع مع ظهور بناءٍ مظلم في الأفق، ليس بيتًا، مجرد غرفة لا يزيد عرض جدارها عن خمسة أمتار.

- اهدأ يا موسى، سنلقي نظرة واحدة ونعود.

ترددت تلك الكلمات في أذني.

تتسارع أنفاسي أكثر، وأشعر بتشنج في ساقي وأنا أواصل التقدم نحو ذلك البناء، أهبط على ركبتيّ أمام جداره وأحاول تفحص شيء ما، ظلامه أكثر.

- هيا يا موسى، عد إلى بيتك.

- لا لا، انتظر، إن الظلام ينقشع، عاد البدر للبزوغ من جديد.

أنظر أمامي عبر نافذة صغيرة، هناك آلة قديمة لا أعرفها، صوت أنفاس موسى الخائفة تتزايد في أذني، ويتمتم إلى نفسه مرتعبًا:

- سأعود إلى أهل القرية لأخبرهم في صلاة الفجر عمّا يحدث في الطاحونة.

صدى صوت كلمته يرن في مسامعي بقوة؛ الطاحونة!

ولا إراديًا فتحت عينيّ وأنا أهمس إلى نفسي:

- طاحونة؟! حونا، نعم هذا ما كان يقصده تمامًا!

تسارعت أنفاسي وابتلعتُ ريقي اضطرابًا، وسَرَت رعشة عظيمة في جسدي وأنا أحدث نفسي:

- إنه يقودني لشيء ما.

تلفتُّ حولي في تشوش ونظرتُ حائرًا إلى البدر عبر باب الشرفة، ثم وضعت يدي على رأس يامن لأكمل تلك الرؤى، إلّا أنني وجدت رأس الفتى يغلي من الحمى على عكس ما عهدناه منذ بدأنا وضعه في حوض المياه، لا أعلم إن كان ما أبصرته من خلاله هو ما تسبب في ارتفاع حرارته إلى ذلك الحد غير المسبوق أم أنها مجرد صدفة، بحثتُ عن ميزان الحرارة في أرجاء الغرفة فلم أجده، فنهضت راكضًا إلى المُجمد الكهربائي في غرفة أخرى وأحضرت أكياسًا من الثلج كنّا نُعدُّها تحسبًا لحدوث مثل هذا الظرف، وألقيت بها في حوض المياه، وعدت لآتي بأخرى، وعلى الرغم من ذلك ظلّت الحرارة مرتفعة، فكرتُ في إيقاظ منى لعلّها تعرف شيئًا يفيد، لكنّي تراجعت في آخر لحظة، فإن استيقظتْ وأيقظتْ الفتى ولم يعاودا نومهما حتى وقت بزوغ

النهار ورحيل البدر فذلك يعني أنني ربما لن أرى بقية ما حدث لموسى حتى يأتي بدر الشهر القادم، وفي ارتباك شديد وقفت مكاني لا أعرف ماذا أفعل. بعد دقائق ركضت إلى غرفة النوم الأخرى، كانت منى مُنكبّة على وجهها غائبة في سُباتها، بحثت سريعًا عن أدوية خفض الحرارة، وجدت زجاجة شراب شبه ممتلئة، أخذتها وعدت بها سريعًا إلى غرفة الفتى حيث فكرت في فتح فمه وسكب الدواء في حلقه إلا أنني خشيت أن يتسرب الدواء إلى قصبته الهوائية ويختنق، ثم فكرت أن أوقظه ليتناوله ثم يكمل نومه، لكنّي لم أفعلها أيضًا إذ وجدتها مجازفة إن استيقظ ولم يعد للنوم، فتركت زجاجة الدواء جانبًا ووضعت يدي على معصمه أتحسس حرارته، كانت لا تزال مرتفعة للغاية، ونبضات قلبه متسارعة قوية، نظرت إلى البدر من جديد، ثم نهضت دون تفكير وأغلقت مصراعي باب الشرفة، وأسندت ظهري إليه مُحكِمًا إغلاقه وأنا أنظر إلى يامن.

بعد دقائق اقتربت منه، كانت درجة الحرارة لا تزال مرتفعة كما هي. بعد دقائق أخرى شعرت أنها بدأت تنخفض بعض الشيء، أحضرت مزيدًا من أكياس الثلج وسكبتها في المياه، وانتظرت، نظرت إلى ساعة يدي كانت الساعة الثانية والنصف صباحًا، هدَّأتُ نفسي وقلت:

- لا تزال هناك ثلاث ساعاتٍ حتى طلوع النهار، سيصبح كل شيء على ما يرام يا خالد، اهدأ فحسب.

واصلت الحرارة انخفاضها تدريجيًّا، وفي خلال نصف ساعة تقريبًا كانت الحمى قد تلاشت تمامًا، وعاد جسد يامن إلى حرارته الطبيعية، حائرًا جلست على الأرض ألتقط أنفاسي، ثم أسندت ظهري إلى حوض المياه مواجهًا لباب الشرفة المُغلق وعقلي يتساءل: هل أجازف بفتحه من جديد وأواصل تلقي الرؤى مرة أخرى؟ أم ستعاود الحرارة ارتفاعها غير المسبوق وحينها قد لا يستطيع الفتى النجاة؟ هل أكتفي بما رأيته وأنتظر حلول بدر الشهر القادم؟ أم أخاطر لعلي أستطيع إنقاذ ابني من غير انتظار كل هذه المدة؟ هل أوقظ منى وأخبرها لعلها تعطيني النصيحة وتتحمل معي مسئولية ما قد يحدث؟

أم أنها لن تصدق ما سأخبرها به ولن توافق وستضيع ما تبقى من وقت في جدال لا جدوى منه؟ ثم تلفتُّ ونظرت إلى يامن مواصلًا تفكيري، حتى استقر داخلي إلى قراري، فهمست إليه:

- من أجلك يا فتى.

ثم نهضت وفتحت مصراعي باب الشرفة مرة أخرى، ونظرت إلى البحر، ثم عدت إلى يامن ووضعت راحتي على جبهة رأسه وأغمضت عيني من جديد.

***

صوت صرير مزعج للغاية كأن تروس ضخمة صَدِئة تحتك ببعضها بعضًا لتدور للمرة الأولى منذ سنوات، يقاطع ضجيجها صوت دقات قلبي المضطربة بقوة، لا، إنها دقات قلب موسى، أنظر بعينيه إلى داخل ذلك البناء، ذراع الطاحونة الخشبية الطويلة تدور أفقيًا كعقرب ساعة، وأشلاء بشرية تُلفظ تباعًا من قادوس الطاحونة لتسقط إلى الأرض بجوارها، «الجنود؟!»، أنفاس موسى تكاد تنقطع من سرعتها، وجسده خائر لا يقوى على التحرك من الصدمة. اندفاع الأشلاء من القادوس يتواصل، والذراع تواصل دورانها، وحيوان ما يزحف في أحد أركان البناء، لماذا لا تهرب يا موسى؟!

لا يزال ذلك الحيوان يتحرك في خلسة، اهرب يا موسى، موسى لا يراه، عيناه ذاهلتان مصدومتان تركزان فحسب على أشلاء الجنود، تحرَّك يا رجل! يدور ذلك الحيوان متواريًا في ظل الذراع، لقد توقف عن حركته فجأة، وينظر إليَّ بعينين حادتين، لا، إنه ينظر إليك يا موسى، التفتْ إليه يا رجل، دعكَ من تلك الأشلاء الآن، هيا تحرر من صدمتك وانظر إلى ذلك الجانب قبل فوات الأوان، أين اختفى؟! لقد كنت أراه للتو، صرير باب يُفتَح لكنِّي لا أعرف مصدره، تتبعه صوت زمجرة قوية بينما لا ترى عيناي الآن إلا الأشلاء والرؤوس المقطوعة، صارت زمجرته قريبة للغاية، ألا تسمع تلك الزمجرة يا رجل؟ أخيرًا أنت الآن تسمعها، اهرب إنه بجوارك، أنياب بارزة، وفاه مفتوح عن آخره يستعد لافتراسي، ضربة فأس قوية، تلاها عواء مكتوم من ذئب

راقد أرضًا تسيل الدماء من رأسه فيما يتعالى صدره ويهبط ببطء إلى أن سكن تمامًا، ومعه سكت صوت الصرير داخل الطاحونة، أنظر بعينيه عبر الفتحة الضيقة مجددًا، انطفأ الضياء في الداخل، ولا شيء يُرَى وسط الظلام، لا طاحونة، ولا أشلاء، وخارج غرفة الطاحونة عادت العتمة من جديد، أنظر إلى السماء بينما تقبض يدي على فراء الذئب الساكن، غيوم كثيفة لم أرَ مثلها من قبل، ووراءها اختفى البدر تمامًا ومعه النجوم، ظلامٌ طويل وكأن ستار النهاية قد أُسدِل.

بعدئذٍ فتحت عينيَّ تلقائيًا لأُوقَظ مما أراه، وعاد ذهني مجددًا إلى غرفة يامن في صدمة، لأهمس إلى نفسي لاهثًا:

- كانت تلك هي اللحظات الأخيرة قبل جنون الشيخ موسى، خرج الذئب من تلك الطاحونة وقُتِل عام 1921م.

***

حمدًا لله عادت حرارة يامن إلى طبيعتها من جديد مع إغلاقي باب الشرفة وسكبي مزيدًا من مكعبات الثلج في حوض مياهه بعدما كانت قد ارتفعت مرة أخرى مع إستكمال تلقي الرؤى عبره، ومع شروق الشمس حملته إلى سرير أمه التي استيقظت بعد قُرابة ساعتين مندهشة من ذلك النعاس الذي داهمها على غير العادة، فأخبرتها أنني لم أشأ إيقاظها كي تنال قسطًا وافرًا من الراحة، فشكرتني كثيرًا على ذلك. حينذاك حدثتها كاذبًا بأنني سأذهب إلى عملي، وخرجت متجهًا إلى شيخ القرية السيد «عبد العزيز حسن»، رجل ستيني لم يكن يعرفني، عرَّفته بنفسي، فرحب بي، سألته مباشرة عمَّا إن كانت هناك طاحونة في القرية قبل مائة عام، ضمَّ شفتيه مفكرًا، ثم قال باسمًا إنه لم يعاصر شيئًا كهذا، ولا يتذكر أن أباه حكى له شيئًا عن طاحونة بالمواصفات التي ذكرتها له، سألته عن كبار السن في القرية من الرجال والنساء، عدَّ لي ستة أسماء لأناس تتجاوز أعمارهم الثمانين عامًا، دوَّنتها في ورقة معي؛ أربعة رجال وسيدتين، مررت عليهم واحدًا واحدًا، كان جميعهم لا

يعرف شيئًا عن تلك الطاحونة، في أمر جعلني أشك فيما رأيته، وبدأت أفكر في أن عقلي ترك الواقع ليتشبث بخيالات لن تفيد ابني بشيء.

في بيت السيدة الأخيرة وعند استعدادي للرحيل، قالت ابنتها الكبرى ذات الستين عامًا عندما وجدتني أسأل في اهتمام بالغ عن تلك الطاحونة:

- لماذا لا تسأل في دار العمودية القديمة، حيث يعيش أحفاد عائلة الشوبكي الذين توارثوا العمودية في القرية خلال العقود الخمسة الأولى من القرن الماضي؟

لم يأتِ ذلك الاقتراح الرائع في بالي مطلقًا، ربما لأن العمودية انتهت في بلدنا قبل سنوات طويلة بوجود نقطة شرطة يرأسها ضابط شاب، شكرتها كثيرًا على اقتراحها، ثم توجهت مباشرة إلى بيت يُعرف في قريتنا ببيت العمودية، وهو بيت كبير ذو طراز معماري قديم قيل إنه بُنِيَ في أوائل القرن العشرين، وعاشت فيه عائلة الشوبكي الذين توارثوا العمودية في قريتنا جيلًا بعد جيل، وحاليًا تعيش فيه أسرتان لأخين من نسل تلك العائلة، كنت أعرف أحدهما معرفة سطحية، اسمه «فكري» كان يصغرني بعام أثناء الدراسة، استقبلني بترحاب يختلط بالدهشة من زيارتي المفاجئة، أخبرته صراحةً عن حالة ابني المرضية منذ شهور، وعن احتمالية وجود مَس أصابه، ولم آتِ بذكر الشيخ موسى ولا الذئب، قلت فقط إنني أحضرت روحانيًا قال إن جنًّا عاش لسنوات طويلة في طاحونة غلال هنا في القرية قد مسَّه، نظر لي صامتًا دون أن أعرف إن كان قد صدقني أم ظنَّ فيَّ الجنون، ثم أخبرني أنه لا يعرف شيئًا إلا عن طواحين الغلال الحديثة في القرية، ثم هاتف أخاه الأكبر سنًّا فحضر إلينا، فحدثه بما أخبرته به، فصمت مفكرًا هو الآخر، هنالك أضفت شيئًا خطر في بالي:

- قال الروحاني إن ذلك الجن أحضره جنود سُمر أتوا إلى القرية قبل مائة عام.

وقتها قال الأخ الأكبر:

- الهجَّانة راكبو الجمال؟!

لمعت عيني على الفور، وقلت:

- نعم، راكبو الجمال.

قال في جدية:

- لقد حكى لي جدي قديمًا شيئًا عن ذلك.

أمّا أنا فدوّت في رأسي فجأة كلمة جانا، نعم إن كانت كلمة حونا تعني طاحونة، فلن يُقصَد بجانا إلا الهجانة، تابع الرجل:

- انتظر.

ثم غادرَنا صاعدًا إلى الطابق الأعلى، وعاد بعد ثلاثين دقيقة تقريبًا وفي يده تسعة دفاتر قديمة ذات أغلفة كرتونية سميكة، وقال وهو يضعها على الطاولة أمامي:

- احتفظت عائلتنا بتلك الدفاتر لسنوات طويلة، إنها دفاتر عشرينيات القرن الماضي باستثناء دفتر عام 1922م لم أعثر عليه، ربما سجّل أحد جدودي شيئًا قد يفيدك.

نطقت سريعًا:

- قال الروحاني إن ذلك حدث في عام 1921م تحديدًا.

اندهش الأخان مما قلته، وشعرت أنهما شكًا قليلًا في أمري، وخاصةً الأخ الأكبر، لكنّه طاوعني وأحضر الدفتر المكتوب على غلافه بخط يدوي 1921، وفتحه وبدأ يقلّب أوراقه ورقة ورقة بينما يدق قلبي بقوة، إلى أن توقف الرجل عند صفحة ما، ونظر في عيني بارتياب أكبر، نظرت إلى الورقة في ترقب، فقال:

- ذُكر هنا بلاغ مُسجَّل من جدي بأن فرقة من الهجانة أتت إلى القرية في تاريخ 20 أغسطس 1921م واختفت في اليوم التالي.

فكرتُ في الجِمال التي كانت تركض بدون أصحابها، والأشلاء التي رأيتها في الطاحونة، فقلّب الرجل ورقة واحدة وقال:

- وهذا بلاغ آخر في اليوم نفسه بالعثور على سيارة الخواجة «فايز جرجس» ورثت حوض الأراضي الشرقية، سيارة سوداء اللون أمريكية الصنع، عُثر عليها خاوية ولم يُعثَر على صاحبها.

احمرَّ وجهي وابتلعت ريقي اضطرابًا، كان ذلك ما رأيته تمامًا في الرؤى.

حينذاك قال الأخ الأصغر:

- وُزِّعت أراضي ذلك الخواجة مع قانون الإصلاح الزراعي.

هززت رأسي بارتباك كبير، فيما واصل الأخ الأكبر تصفحه بالأوراق الأخرى.

***

لم يُذكَر شيء آخر في دفتر ذلك العام عن الجنود أو الخواجة أو الطاحونة، فاستأذنت منهما أن أبحث بنفسي في أوراق الدفاتر الأخرى لعلّي أعثر على شيء يخص تلك الطاحونة، وافقا، فبدأت أقلّب أوراق الدفاتر تباعًا، كانت جميعها بلاغات عن أشياء تخص المزارعين وأراضيهم ومواشيهم فحسب، ولم يُذكَر شيء واحد عن طاحونة غلال، استوقفتني فقط ورقة في نهاية عام 1928م دُوِّن فيها بلاغ عن غرق طفل في الترعة الشرقية بالقرب من بيت «الدسوقية» الذي بُني حديثًا قبل عام في حوض الأراضي الشرقية، وعندما أطلت النظر إليه قال «فكري» في غير اكتراث وهو يقرأ السطور بعينه:

- إنه البيت الذي لا يزال مهجورًا هناك.

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أهمس في داخلي:

- بيت مدخل السرداب!

سألت الأخ الأكبر مجددًا عندما انتهيت من الدفاتر كلها إن كان بإمكانه العثور على دفتر عام 1922م، فأقسم لي أنه لم يجده، حينذاك هاتفني الروحاني فتذكرت أنني هاتفته أكثر من مرة صباحًا ولم يُجبني، فأجبته راجيًا بأن يحضر في أسرع وقت إلى قريتنا، فأخبرني بأنه سيأتي إلينا في خلال ثلاث ساعات، فأغلقت الخط ثم شكرت الأخين وعدت سريعًا إلى بيتي

وعقلي يفكر في العلاقة بين الخواجة الذي اختفى في اليوم الذي اختفت فيه فرقة الهجانة، وحوض الأراضي الشرقية، والطاحونة، والبيت الذي يقع أسفله مدخل السرداب.

❊❊❊

عندما جاء الروحاني حدثته عن الرؤى التي رأيتها، وعن استخراجي للذئب من قبر الشيخ موسى، وعن ثبوت حضور الهجانة إلى القرية فعلًا قبل مائة عام، لكنّي لم آتِ بذكر بيت السرداب بشيء، استغربت منى التي كانت تستمع إلى حديثي مع الرجل، وامتقع وجهها غضبًا مع اعترافي للرجل أمامها أنني وضعت لها منومًا في شرابها كي أكمل تلك الرؤى، لكنّها لم تتحدث مؤجلة كل شيء إلى بعد رحيله، دلف الرجل إلى غرفة الفتى وحيدًا مثل المرة الأولى، وخرج إلينا بعد ساعتين ليقول:

- ما زلت عند قولي، إنه مس قوي للغاية، هذا الجن يحتاج إلى إراقة دماء غالية أو إعادة الشيء لأصله.

وقتئذ حدثني عقلي بشيء فطنه للمرة الأولى لكنّي لم أنطق بكلمة. ثم تركنا الروحاني وغادر بعدما نال مقابله المادي هذه المرة، فجلست منى إلى جواري كي تفتح النقاش بخصوص ما قلته للرجل، فقلت لها بعد شرود طويل:

- ربما أخطأنا في فهم إعادة الشيء إلى أصله عندما أعدنا الذئب إلى قبر الشيخ موسى.

ثم بدأتُ أعد على أصابعي، وأنا أقول:

- إذا كان ذلك الذئب قد خرج إلينا من الطاحونة، وإذا كانت الطاحونة التي اختفت من عالمنا دون أن يعرف عنها أحد شيئًا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالبدر، وإذا كان سرداب فوريك يُضاء فقط ليلة البدر من غير أن نعرف سببًا لذلك، وإذا كان البيت المهجور الذي يبدأ في داخله

السرداب بُني في أرض الخواجة الذي اختفى يوم اختفاء الهجانة

فالمنطق يقول أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين السرداب وبين الطاحونة.

ونظرتُ في عينيها وأردفتُ:

- وإنْ كانت إعادة الشيء لأصله هي السبيل لتحرير ابننا من هذه اللعنة فلن يكون ذلك الأصل إلا عالم ما وراء سرداب فوريك لا قبر الشيخ موسى.

وقبل أن تنطق بكلمة، قلت لها بنبرة حاسمة:

- سأعود بعظام الذئب إلى عالم زيكولا لأعيدها إلى موطنها.

9

بوجهٍ قلق سألتني منى:

- إلى أي مكان ستذهب في عالم زيكولا، إنَّه عالم كبير به مدن كثيرة.

تنهدتُ ثم قلتُ:

- لا أعرف، سأستعين بأصدقائي القدامى هناك، وربما بالملك تميم، سيساعدونني بكل تأكيد للوصول إلى وجهتي المجهولة.

قالت:

- تتحدث وكأنَّك ستذهب بدوننا.

هززت رأسي إيجابًا، وقلت:

- نعم، إنَّها مخاطرة كبرى ولا ندري ماذا سيقابلنا هناك هذه المرة، وجود يامن معي سيثقل من حركتنا، كذلك إن أصابه تدهور مفاجئ في حالته الصحية قد لا نستطيع إنقاذه هناك، ستبقين معه هنا، على أقل تقدير قد يستطيع الأطباء الإبقاء على حالته مستقرة في غرف العناية المركزة إن اضطروا لذلك.

نظرت في عيني حائرة بعينين تلمعان بالدموع، فقلت:

- لا يوجد حل آخر يا منى، عليَّ أن أعيد عظام ذلك الذئب لعلَّ تلك اللعنة تحل عن ابننا.

لم تقل شيئًا، وجلستْ على أريكة في جانب الغرفة تبكي في صمت، جلستُ بجوارها حاضنًا كتفيها بذراعي، فمسحتْ دموعها وقالت:

- متى ستغادر؟

قلت:

- لا أعلم شيئًا عن زيكولا منذ زيارتنا الأخيرة لها، لا أعرف إن بقيت المدينة كما هي مُغلقةً يُفتح بابها مرة واحدة في العام أم غُيِّرت القواعد بعد رحيلنا.

ونهضتُ من جلستي وقلت:

- نزلت السرداب للمرة الأولى قبل اثني عشر عامًا في يوم الثالث من ديسمبر، كان ذلك التاريخ يوافق عيد زيكولا السنوي، من حسن الحظ أنّ توقيت ذلك البلد يُماثل توقيتنا، وأنّ احتفالاتهم الطارئة بأولاد الحكام الذكور لا تغيِّر من المواعيد الثابتة للعيد السنوي.

ونظرت إلى مُفكرة التقويم الورقية المعلقة على الحائط، وتابعت:

- يتبقى شهران وأحد عشر يومًا على ذلك التاريخ الذي سيوافق أيضًا اليوم السابع والعشرين من الشهر القمري، ولأن سرداب فوريك لا يُضاء إلا في منتصف الشهر القمري سأضطر للمغادرة قبل ذلك اليوم باثني عشر يومًا وإلا سيفوتني يوم فتح باب زيكولا.

ثم أردفت مطمئنًا لها:

- سآخذ كفايتي من الطعام المُجفف والسوائل التي تكفيني تلك الأيام، كما أنَّ التجار عادةً ما يتجمعون أمام باب زيكولا قبلها بأيام، لن أكون وحيدًا هناك.

قالت وهي ترتشف دموعها دون أن تنظر إليَّ:

- هذا إن كان توقيتك صحيحًا، كما قلت، لا تدري إن ظلّت القواعد هناك خلال السنوات الماضية كما هي أم تغيرت.

وأضافت:

- لكن إن كان توقيتك خاطئًا..

وسكتت وهي تعض على شفتها السفلى كأنَّها لا تريد أن تنطقها، فقلت:

- ستكون رحلةً بلا عودة.

ونظرتُ إلى يامن وتابعت:

- لكن غايتها تستحق المغامرة.

هزّت رأسها نافية والدموع تتساقط على وجنتيها:

- لا، لا أوافق على ذلك، إنه تهور غير محسوب، ونحن في أمس الحاجة إليك هنا.

اقتربتُ منها ونزلت على ركبتيّ وأمسكت بيدها في رقّة، وقلت:

- ما زال هناك شهران تقريبًا على كل حال، لا ندري ما قد يحدث خلالهما، أردت إخبارك الآن فحسب بما أفكر فيه كي نستعد نفسيًّا لما هو قادم.

صمتَتْ لبعض الدقائق، ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- لماذا لا تضع تلك العظام يوم البدر القادم في السرداب دون أن تعبر النقطة التي تنهار فيها جدرانه، وترى ما إن كانت ستتشكّل نفسها من جديد في صورة هيكل عظمي أم لا، فإن فعلتها فاتركها هناك وعد.

وأردفتْ:

- إذا كان السرداب جسر بيننا وبين عالم زيكولا فإنّه بذلك ينتمي إلى العالمين، وأعتقد أن وضع الذئب هناك سيكون بمثابة إعادته إلى موطنه دون أن تضطر للذهاب إلى زيكولا.

نظرت إليها مفكرًا ومعجبًا في الوقت نفسه، كانت تلك الفكرة تستحق المحاولة فعلًا، وشعرت بالغباء بعدما لم تخطر في بالي، وقلت متحمسًا:

- فكرة رائعة، سأفعلها يوم البدر القادم.

وأضفتُ بعدما هزّت رأسها إيجابًا في شرود وهي تنظر إلى يامن:

- لكن إن لم تعد العظام ترتيب نفسها فلن أتركها هناك، وسأذهب بها إلى أرض زيكولا يوم بدر الشهر الذي يليه.

***

بعد أيام من حديثي مع منى ذهبت إلى قبر الشيخ موسى للمرة الثا
فجرًا، كان كما تركته في المرة السابقة مُغلقًا فقط بالطوب المرصوص بلا
أحدًا لم ينتبه إلى عدم وجود كومة من الطين تغطي بابه، أزلتُ الطوب
هدوء شديد، وهبطت بمصباحي إلى داخل القبر، وأخذت جوال عظام الذ
وأعدت رص الطوب من جديد، ثم ذهبت بالجوال إلى المكان الذي دفنته
من قبل. فعلت ذلك كي أبقي عظام الذئب في حوزتي خشية أن يحدث أي أ
مفاجئ يمنعني من الحصول عليها قُبيل نزولي السرداب.

❋❋❋

في الأيام التالية لم يحدث أي جديد، وبقي وضع يامن الصحي كما هو
عليه تمامًا، حالة جيدة نهارًا وحمى ليلية تجبره على البقاء في حوض الميا
ليلًا. في تلك الأيام ذهبتُ أكثر من مرة إلى الأراضي الزراعية القريبة من البيت
المهجور الذي يقبع أسفله مدخل السرداب لعلّي أعثر على أي شيء صدفة
لكنّي رجعت في كل مرة خاوي الوفاض، كذلك راقبت السماء في كل ليلة
بحثًا عن نجم أسيل لعلّ إشارة ما تصلني، بيد أنه لم يظهر، وعندما حاولت
استخراج رؤى أخرى من الفتى فشلتُ في ذلك تمامًا مع عدم وجود البدر في
السماء.

عندما حلّ منتصف الشهر القمري وظهر البدر في السماء حركت حوض
مياه يامن ليواجهه، كانت منى معي في تلك المرة، اتفقنا على نزع يدي
عن جبين الفتى وإغلاق باب الشرفة في حال تجاوز درجة حرارته الثمانية
والثلاثين درجة سليزية بميزان الحرارة، وعلى ثلاث مراتٍ تخللتها فترات من
الراحة وإغلاق باب الشرفة رأيت الرؤى نفسها التي رأيتها من قبل بدون أي
جديد، لأفتح عيني وأقول لمنى:

- لو انتبه موسى إلى الذئب وهو يتسلل داخل بناء الطاحونة، وفرّ، لم
يكن ليحدث كل ذلك.

قالت وهي تغلق باب الشرفة:

- لو لم تحضر لنا تلك العظام لما حدث كل ذلك.

هززت رأسي موافقًا، ثم نهضت من جلستي وقلت:

- سأهبط السرداب غدًا، سأضع هناك العظام قُبيل صورة فوريك المنقوشة على جداره من دون أن أعبر ذلك الحد، وسأتركها هناك إن أعادت ترتيب نفسها كما اتفقنا.

أومأت برأسها إيجابًا في صمت.

***

في الصباح التالي كانت الساعة تشير إلى العاشرة عندما أيقظتني منى وقالت:

- إن الطقس غريب للغاية اليوم، تنتشر الغيوم في السماء بكثافة شديدة، وشاهدت خبيرًا للأرصاد في التلفاز يقول إن ذلك الأمر قد يستمر لثماني وأربعين ساعة.

تحركتُ نحو النافذة وفتحتُها، كانت السماء غائمةً للغاية وشبه مظلمة كأننا تجاوزنا وقت الغروب، فضممت شفتيَّ وقلت:

- إن استمرت الغيوم بتلك الكثافة إلى الليل ربما لا يظهر البدر الليلة.

قالت:

- قد تكون هذه إشارة بعدم نزولك السرداب الليلة.

أغلقت النافذة وأنا أقول:

- سأفعل ما عليَّ، كنت أنوي نزول السرداب بعد الساعة الواحدة صباحًا مع شيوع السكون في القرية، لكن مع تلك الغيوم غالبًا ستمطر بغزارة اليوم، وسيأوي الناس إلى بيوتهم ليلًا في وقت مبكر، سأذهب إلى السرداب في وقت مبكر من الليل أيضًا، ليكون لديَّ متسع أكثر من الوقت أنتظر خلاله أي لحظة قد تنقشع فيها السحب عن البدر.

وأخرجت زفيري متنهدًا وقلت:

- تذكرني هذه الغيوم بالليلة التي رأيتها في رؤى الشيخ موسى.

ثم نظرتُ إلى ساعة يدي وأردفت:

- سأتحرك لأخرج جوال العظام في التاسعة مساءً، ثم أتجه بعدها إلى البيت المهجور مباشرةً.

أومأتْ برأسها في صمت.

***

في تمام التاسعة مساءً خرجت من بيتي حاملًا حقيبة ظهر سوداء فيها جاروف معدني وزجاجة ماء صغيرة ومصباح رأسٍ وكمامة كلب بوليسي كنت قد اشتريتها كي ألجم بها مقدمة جمجمة الذئب كنوعٍ من الاحتراس، واتجهت نحو رقعة الأرض التي دفنت فيها عظام الذئب، كانت غيوم السماء لا تزال كثيفة تخفي البدر وراءها فيما واصلت الأمطار هطولها، ولمَّا اقتربت من الرقعة التي أقصدها دوَّى صوت الرعد فجأة كفرقعة حادَّة، ولمعت السماء بالبرق، وحينها لاحظت أنَّ وقع أقدامي يماثل في نمطه وقع أقدام الشيخ موسى الذي سمعته في رؤى الفتى، فسَرَت في جسدي رعشة رعبٍ عظيمة وفكرت في العودة إلى المنزل من جديد، لكنِّي تماسكت وواصلت تقدمي حتى وصلت إلى المكان الذي دفنت فيه جوال العظام وأخرجته، نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى التاسعة والنصف، وقتئذٍ أطلقت السماء رعدًا آخر ولمعت ببرق جديد أظهر البيت المهجور أمام عيني بعيدًا، فتقدمت نحوه حاملًا الجِوال، وعندما اقتربت من سوره ألقيت بالجِوال وحقيبتي إلى الجهة الأخرى منه، ثم تسلقته في خفة ربما لم تكن لتتواجد لولا فقداني كثيرًا من وزني مع شهور الإرهاق الماضية.

دلفت إلى داخل البيت، لم يتغير مطلقًا عن آخر مرة دخلته فيها، ثم هبطت إلى قبوه، كانت الصخرة الكبرى لا تزال في موضعها، وضعت الجِوال جانبًا، وبكل قوتي بدأت في زحزحتها، هنالك شعرت بأن وزنها تضاعف عن آخر مرة حركتها فيها، فأسندت ظهري إليها وواصلت بكل طاقتي دفعها زاعقًا

محاولًا تحريكها، غير أنَّها لم تتزحزح بوصةً واحدة، حدثت نفسي وأنا أشعر بخوار قواي:

- لا، لم أكبُر إلى هذا الحد.

ثم زفرتُ بقوة وزعقت من جديد، وبدأت أدفعها وأنا أصرُّ على أسناني حتى تزحزحت مسافة صغيرة، دفعت مرة أخرى وأنا أزعق:

- هيا.

تزحزحت مسافة أخرى، فأمسكت بركبتي لاهثًا محاولًا التقاط أنفاسي، ثم جمعت قواي وهممت بالدفع مرة أخرى، لكنِّي توقفت حينما سمعت صوتًا من خلفي يقول لي فجأة:

- هل تحتاج إلى مساعدة أيها الكاذب؟

10

أسيل

في ثبات تساءل تميم إلى خلدون:

- ماذا تعني بشاهد وادي الذئاب؟!

قال خلدون:

- سأروي لك سيدي كل شيء أعرفه عن ذلك الوادي وشاهده.

فأشار له كي يجلس، فجلس ثم قال:

- لسنوات طويلة ظلَّ الناس يعتقدون أن بحر «قُعير» الرملي هو نهاية عالمنا شمالًا، لكنَّ الكثيرين لا يعرفون أن هناك كتابًا عُثر عليه قبل عشرين عامًا تحدث عن وجود مملكة عظيمة اسمها «وادي الذئاب» عاشت قرونًا طويلة شمال تلك الرمال.

جال في ذهني في تلك اللحظة ما أعرفه عن بحر «قُعير» الرملي الذي يبعد عن شاطئ مينجا الشمالي مسافة أربعين يومًا إن ركض حصان بأقصى سرعته دون توقف، وما سمعته عن استحالة عبور أي كائن حي خطوة واحدة في رماله المتحركة دون أن يغوص إلى باطنها، قبل أن أنتبه إلى ما يكمله خلدون وهو ينظر بعيدًا نحو البدر الأكثر سطوعًا في السماء:

- حتى هذه الليلة كنتُ أظن ما قرأته في ذلك الكتاب قصة خيالية ألَّفها صاحبه بحبكة فريدة، لكن ما حدث قبل ساعات من نهوض عظام الذئاب وظهور البدر الثاني في السماء قد ذُكِرَ نصًا في تلك القصة كنبوءة لنهاية عالمنا انتقامًا مما حدث في وادي الذئاب قبل سنوات طويلة.

سألته على الفور:

- أي نبوءة؟! وماذا حدث في ذلك الوادي؟

أجابني:

- في ذلك الوادي استطاع البشر التعايش مع الذئاب في سِلمٍ لم يشهد عالم البشر من قبل لدرجة وصلت إلى استئناسها، مستخدمين قوتها في الزراعة وجر العربات لنقل الركاب والبضائع، وفي الحروب كقوة هجومية رئيسية تنفذ أوامر القادة تنفيذًا مثاليًا، فهناك لا تتعجب إن سرتَ في أحد الشوارع ورأيتَ جماعة من الذئاب تتجول حرة بالقرب منكَ دون أن تتعرض لكَ بأذى، بل ستجد الأطفال يلعبون مع الذئاب وجرائها دون ذرة خوف واحدة كأنهم يلاعبون قطًا منزليًا، سترى طفلة تركب صهوة ذئب يتبختر في مشيته بها كي لا يوقعها، وستُبصر ذئابًا تحمي قطعان الأغنام والماشية التي ترعى في المروج هناك، وتنام بينها ليلًا، ستجد الجزارين في المدن والقرى يُطعمون الذئاب من ذبائحهم في أطباق خاصة دون إهانة بإلقاء الطعام بعيدًا، وعلى امتداد أسوار عاصمة الوادي التي تُسمى «براقيا» ستجد تماثيل الذئاب منحوتة من المرمر الأبيض جنبًا إلى جنب مع تماثيل ملوك الوادي وقادته.

ثم صمتَ لحظة وتابعَ:

- قال مؤلف الكتاب إنه لا يُعرَف تحديدًا منذ متى بدأ هذا التعايش بين البشر والذئاب، لكنَّه أشارَ إلى وجود نقوش قديمة على حائط صخري شاهق يتوسط براقيا يُسمَّى «حائط الرؤى» تتحدث عن السلام بين البشر والذئاب، قال إن عمر تلك النقوش يتجاوز الألف عام، وإن «الملديين» من قاموا بنقشها بأقلامهم الفولاذية.

الملديون هم الجنس الثالث الذي عاشَ في تلك المملكة، أناسٌ يستطيعون التواصل والتخاطر مع الذئاب، هيئتهم بشرية مثلنا، بيدَ أن شعورهم حريرية بُنية مائلة إلى الصُفرة تشبه فراء الذئاب، وحاستَيْ سمعهم

وشمهم قويتان للغاية، أنيابهم طويلة بعض الشيء، وعيونهم صفراء اللون تلمع في الظلام، لكنَّهم عميان لا يُبصرون، سأخبركَ عنهم لاحقًا سيدي باستفاضة خاصةً أن أولئك القوم الذين لم يتجاوز عددهم الألفي فرد قبل مائة عام كانت لهم المكانة الكبرى في ذلك الوادي بعدما كانوا حلقة الوصل بين البشر والذئاب على مدى قرون طويلة، لكن دعني الآن أخبركَ أن القوة التي أضافتها الذئاب لتلك المملكة إثرَ ذلك التعايش جعلتها أغنى بلدان شمال بحر «قُعير» الرملي وربما العالم بأسره بعدما انصاعت كل البلدان حولها للشروط التي اعتادَ ملوكها فرضها بجني الأموال والجزى مقابل تركهم في سلام، حتى أن كهوف الجبال في ذلك الوادي كانت تنضح بقطع الذهب من شدة امتلائها به، وخزائن الطعام والشراب كانت تفسد من فيضها لتمتلئ من جديد بأخرى في ساعات، والشوارع كانت تُعبَّد بالمرمر كل ستة أشهر، وأعناق الذئاب والخيول كانت تُزيَّن بأطواق من الذهب فيما يُزيِّن الرجال والنساء أعناقهم بعقود من الأحجار الكريمة، وعلى ضفاف بحيرة شاسعة المساحة هناك تسمى بحيرة «جِمارة» شُيِّدَت بيوت العامة من الأخشاب المرصعة بالذهب والفضة، يفصل كل بيت عن البيت الذي يجاوره مرجٌ فسيح ترعى فيه الأغنام والذئاب على حد سواء، كل ذلك على مرأى من شاهد الوادي، ذلك البدر الساطع الذي كان يُزيِّن سماء ذلك البلد دونًا عن غيره من البلدان الأخرى، والذي سُمي بذلك الاسم لكونه شاهدًا على السلام بين البشر والذئاب، وعلى مدى الزمان اعتبره أهل ذلك البلد الضمانة الرئيسية لاستمرار خضوع الذئاب لهم معتقدين منذ القدم بوجود تواصل بينه وبين الذئاب، وأكد اعتقادهم فيما بعد الملديون الذين دوَّنوا على حائط الرؤى بعض الرؤى التي بثَّها الشاهد في أذهان الذئاب، واستطاعوا رؤيتها هم الآخرون عبر التخاطر الذي يحدث بينهم وبين الذئاب أو بينهم وبين الشاهد مباشرةً، لكن ما أعطى ذلك الشاهد نفوذه الحقيقي هو كونه المتحكم في فتح العابرات الست التي توجد في ذلك الوادي.

ثم رشفَ رشفة من كوب ماء أمامه، فسألته:

- أيُّ عابرات؟

فقال:

- وفقَ مؤلّف ذلك الكتاب، توجد في وادي الذئاب ست بوابات تصل عالمنا بأزمنة وعوالم أخرى، أربعة منها توجد في أنفاق متشعبة بأعماق جبال الغرب هناك، يتبدل مكانها كل دورة قمرية مثل ممرات هضاب الريكاتا، كانت الذئاب وبعض الملديين فقط من يستطيعون الوصول إليها عبر حاسة شمهم وسمعهم القوية، وبوابة تُوجد في غابة كبرى هناك تسمى «غابة الزافور»، وبوابة توجد في أعماق بحيرة «جمارة»، ولم يذكر صاحب الكتاب ما إن كانت هناك بوابات أخرى غير تلك البوابات في عالمنا.

حينذاك فكرتُ في سرداب فوريك، وأعتقد أن تميم فكر في الأمر نفسه، لكنَّنا لم نقاطع الرجل الذي تابعَ:

- كانت بوابة واحدة من تلك البوابات تُفتح مرة شهريًّا حين يلتقي البدران في السماء فقط؛ بدر ذلك الوادي أو شاهده الساطع على الدوام وبدر قمرنا الاعتيادي الذي يضيء عالمنا بأكمله، وتُغلق بعد ليلتين حينما يتناقص بدرنا ويصبح أحدبَ متناقصًا مكملًا دورة القمر الشهرية، وفي الشهر الذي يليه تُفتَح بوابة أخرى، وهكذا تُفتَح البوابات تباعًا على مدى ستة أشهر متتابعة في دورة لا نهائية.

ثم تنهدَ وأردفَ:

- وفي الليلتين اللتين تُفتَح خلالهما إحدى عابرات الجبال كانت حمايتها من غُزاة الأزمنة والعوالم الأخرى مُوكَلة إلى فرقة من الذئاب تسمى «ذئاب العابرات»، تظل تعوي طوال الليل في جوف الجبال أمام العابرة مانعة ومهاجمة أي دخيل يأتي عبرها، أما عابرة الغابة فلم تحتج إلى حماية، حيث كانت تؤتي كل ستة أشهر بقطعانٍ من آلاف الجاموس البري والماعز والأيائل التي تكفي لإطعام ذئاب الوادي حتى

موعد فتحها مرة أخرى كركنٍ أساسي في العهد الذي تم قديمًا بين الذئاب والبشر والشاهد من أجل ألّا يتعدى أحدهم على الآخر، أما عابرة البحيرة فاختصت بالحفاظ على منسوب مائها العذب دون نقصان آتية بأجود المياه من العوالم الأخرى، ليعيش هكذا الوادي في سنوات طويلة من الرخاء والترف والازدهار، حتى حدثت الكارثة الكبرى قبل ثمانين عامًا من تأليف ذلك الكتاب، أي قبل مائة عام من اليوم، عندما فُتحتْ إحدى عابرات الجبال مع التقاء البدرين وتسللَ عبرها بعض اللصوص من عالم آخر قُبيل زوال الليل، ثلاثون رجلًا تقريبًا يحملون أسلحة غريبة تُطلق دَويًّا شديدًا، كما رآهم بعض الملديين في رؤياهم، ماجمتهم الذئاب ومزقت أجسادهم عدا لص واحد حاول الفرار والعودة إلى حيثما أتى، فلاحقه أحد الذئاب متجاوزًا العابرة إلى نصفها الآخر ومستغرقًا وقتًا أطول للعودة إلى الوادي، فأُغلقت العابرة مع زوال الليل وهو في داخلها، لم تكن الحالة الأولى التي تحدث من هذا النوع، فلطالما اعتادَ الذئاب مطاردة المتسللين عبر تلك العابرات والبقاء فيها إن أُغلقت متغذية على لحوم طرائدها حتى تُفتَح مرة أخرى، فتعود إلى الوادي من جديد، لكنَّ ذلك الذئب لم يكن ذئبًا عاديًا، إذ كان آخر نسل ذئاب «صامون» ذاتَ المكانة الأسمى بين ذئاب ذلك الوادي، والتي تدين لها الذئاب ببقائها حية قبل آلاف السنين بعدما قادتها بأمان عبر العابرة إلى عالمنا مع ندرة الغذاء في موطنها القديم، ويُقال إنها مَن أتمَّت عهد السلام مع البشر أسفل ضياء شاهد الوادي، لذلك فُتِحَت العابرة ذاتها مرة أخرى بعد شهر واحد في غير ترتيبها من أجل إعادة ذلك الذئب إلى موطنه، إلّا أنه لم يعد، بل حدث أن أطلقت الذئاب عواءً جماعيًا فجأة استمر الليل بأكمله، تبعه هياج وتمرد غريب منها دون أن يفهم الناس سببًا لذلك، قبل أن يُفاجؤوا بمهاجمة الذئاب لهم، حتى قُتل في اليوم الأول أكثر من ثلاثة آلاف رجل وامرأة وطفل من أهل الوادي، قبل أن يتخذ البقية ملاجئ ويحتموا منها.

وأخرجَ زفيره متنهدًا ثم أردفَ:

- لأيام كثيرة استمرَّ عواء الذئاب وتمردها وهجومها الوحشي على أي شخص يظهر أمامها، حتى أعلنَ أحد الملديين عن رؤيةٍ شهدها إثر تخاطره مع ذئبه، وقتئذٍ عُرِفَ أن بدرًا في عالم آخر شهد قتل بشروق لذئب «صامون» بوحشية، ليراه شاهد الوادي فيما بعد، إذ تتخاطر الأقمار في العوالم جميعها معًا، وكما روى مؤلف الكتاب، بثَّ شاهد الوادي ما حدث في أذهان الذئاب لتراه، فأعلنت الذئاب تمردها على البشر.

حاولَ أهل الوادي تقديم فدية للشاهد عمَّا حدث، لكنَّ الذئاب لم تقبل بها، وأصرت على الانتقام لسليل عائلتها السامية، فما كان من أولئك القوم إلَّا العزم على قتل تلك الضواري حمايةً لأرواحهم، فانتظروا يوم فتح عابرة الغابة التي تتدفق عبرها قطعان الفرائس وتجتمع الذئاب هناك من أجل اصطيادها، وبينما كانت الذئاب تطارد فرائسها قام جنود ذلك الوادي بإطلاق كرات اللهب نحو الغابة من جميع الاتجاهات لتلتهمها النيران بما فيها من ذئاب وحيوانات برية، لتقوم فيما بعد الحرب الكبرى التي استمرت في كرٍّ وفرٍّ بين البشر والذئاب هناك قرابة ثلاث سنوات، والتي قُتل فيها ستة عشر ألف جندي، وقُتلت الذئاب جميعها؛ قُرابة مائتي ألف ذئب، وشُنق فيها جميع الملديين باعتبارهم من فصيلة الذئاب.

مع موت آخر الذئاب الموجودة في الوادي اختفى الشاهد من السماء، لم يهتم الناس هناك بذلك لاعنين السنوات التي عاشوها أسفل ضيائه، لكنَّهم نهضوا ذات صباح ليجدوا نبوءة محفورة على حائط الرؤى تقول إن الشاهد قد وعدَ الذئاب بنهوضها من جديد ولو بعد ألف عام، إن استطاع أي بدر رؤية عظمة واحدة من عظام ذئب «صامون» المقتول، حينها سيعاود الظهور مرة أخرى وسيُنهض من الموت كل ذئب بصله ضياؤه، لينتقم أشد انتقام من كل بني الإنس

بحثَ الجنود هناك عن الملدي الذي نقشَ تلك الرؤية، لكنَّهم لم يعثروا عليه، ومع الخوف الذي انتابَ الناس هناك مما ذُكِرَ في تلك النبوءة أمرَ ملكهم بتجميع عظام الذئاب والملديين الموتى من كافة بقاع تلك المملكة ودفنها في وادٍ رملي يوجد بين جبلين عظيمين بأقصى الشرق، وتغطية رماله بطبقةٍ سميكة من القار الأسود المخلوط بالرمال حتى لا يستطيع ضوء الشاهد الوصول إلى العظام إن صدقت النبوءة، ليُسمى ذلك المكان منذ ذلك الحين بالوادي الأسود أو «وادي الذئاب المنسية».

ثم مضت السنوات تباعًا دون أن يظهر الشاهد في السماء أو تُفتَح العابرات، فقلَّ منسوب بحيرة «جِمارة» عامًا بعد عام، وعلى إثر ذلك قلَّ الخير في الوادي ونضبت أرضه وثرواته مع جفاف البحيرة تمامًا، كذلك صارَ الوادي صيدًا سهلًا للممالك المجاورة التي تمرَّدت عليه مع فقدان جيشه قوة الذئاب، لتحتله مملكة أخرى اسمها «تيبيانا»، وتجعل أهله الذين عاشوا قرونًا طويلة في ترف وبذخ المصدر الأول للعبيد رجالًا ونساءً في شمال بحر «قُعير» الرملي، ليذوقوا أقصى أنواع الذل والمهانة.

ثم صمتَ، وأكملَ بعد قليل كأنه تذكرَ شيئًا:

- تحدث المؤلف أيضًا في نهاية كتابه عن وجود ممر ضيق متعرج يُوجد بين رمال بحر قُعير المتحركة، ظهرَ ذلك الممر مع سطوع ضوء الشاهد عليه في نهاية حرب الذئاب كي يفر من يستطيع من الملديين والذئاب عبره، حيث لا يستطيع أحد رؤيته دون ضوء الشاهد، أعتقد أن الذئاب التي ظهرت هياكلها في أماريتا أو في البلدان الأخرى قد سلكت ذلك الطريق فرارًا من الوادي، وقتلها الناس في بلداننا، خاصةً أن مؤلف الكتاب تحدث عن تتبعه عظامًا نافقة تناثرت على امتداد ذلك الممر حتى استطاع الوصول إلى جنوب بحر «قُعير» دون أن يفصح عن أي معلومات عنه.

ثم اختتمَ حديثه قائلًا:

- لا أعرف ماذا سيحدث لاحقًا مع ظهور الشاهد وعودة العابرات الثل…
من جديد، لكنّه لن يكون خيرًا أبدًا لكل مَن هو بشري.

صمتنا جميعًا، كان ما سمعناه يتجاوز قدرة عقولنا على استيعا…
حقيقي، لكن مع معرفتي بوجود ناقل مكاني مثل سرداب فوريك وما رأ…
أمام عيني من صحوة هيكل الذئب ومهاجمته لي وهروبه مع هياكل الذ…
الأخرى إلى خارج المدينة وذلك البدر الإضافي في السماء، لم يكن هناك ش…
في داخلي في صدق تلك القصة، وأعتقد أن تميم فكرَ في الأمر نفسه…
وجدته ينهض ويتحرك نحو النافذة ويُطيل نظرته إلى شاهد وادي الذئاب…
السماء، قبل أن يلتفت إلى قائد جيوشه «جرير» ويقول:

- اعطِ أمرًا بعودة كافة السفن إلى شاطئ أماريتا، وبإدخال كافة الجنـ…
والصيادين إلى داخل أسوار المدينة.

ثم جلسَ مستغرقًا في شروده، حينذاك سألتُ خلدون:

- هل ذكرَ الكتاب أي شيء آخر عن كاتب تلك النبوءة أو أي ملدي ناجٍ؟

هزَّ رأسه نافيًا، فقلتُ:

- إن كان هناك نسل ناجٍ منهم فربما يكون لهم الدور الأكبر في الحر…
القادمة.

أومأ برأسه إيجابًا متفقًا معي، فيما واصلَ تميم استغراقه في شروده.

11

وادي الذئاب:
قبل واحد وعشرين عامًا:

نوح

كنت في الرابعة من عمري عندما سمعت صرخات الخالة «ريحانة» المتتابعة في منتصف الليل لتسود من بعدها حالةٌ من الهرج والمرج في بيتنا، إذ نهضت أمي من نومها وارتدت ثوبها على عجل وهرولت خارجة نحو البيت الذي يجاورنا وهي تقول لأبي:

- يبدو أن ريحانة ستفعلها الليلة.

ليجيبها في غير اكتراث:

- أراهنكِ أنه إنذار كاذب ككل ليلة.

حاولتُ حينها اللحاق بأمي، لكنَّ أبي أوقفني بزعيقه ونهرني غاضبًا:

- ماذا ستفعل هناك؟ إنَّه شأن يخص النساء، عُد إلى فراشك، ستعود أمك بعد قليل خاوية الوفاض مثل كل مرة أزعجت فيها تلك المرأة منامنا.

عدت منزويًا إلى غرفتي وقتها، وجلست بجسدي الضئيل وراء الباب أنتظر أمي وأنا أستمع إلى الصرخات التي استمرت لوقت أطول من أي ليلة مضت، حتى سكنت أخيرًا، لكنَّ أمي لم تعد إلى دارنا بعدها كما اعتادت أن تفعل بعد سكون الصراخ كل ليلة، حتى أبي بدا وكأنه تعجب من تأخرها فسمعت صوت بابه

يُفتَح، ويخرج متجهًا إلى بيت جيراننا. فتسللت أنا الآخر من ورائه دون أن يراني ودلفت خلفه عبر باب بيت الخالة ريحانة الذي كان مفتوحًا على مصراعيه تفوح من داخله رائحة قلق وريبة كانتا تظهران بوضوح على كافة وجوه الحاضرين الذين بدوا وكأنهم لم يلحظوا حتى وجودي مع ارتباكهم الشديد.

كان في الردهة وقتها أربعة رجال غير أبي وامرأتان، جميعهم من جيراننا. وفي غرفة جانبية كانت أمي تقف مشمّرة أكمامها بجوار سريرٍ تستلقي عليه الخالة ريحانة التي انطبع على وجهها شيء من الحسرة، بينما تقف ثلاث نساء في جانب الغرفة بالقرب من فراشٍ صغير تحملقن نحوه بشيء من الدهشة، واصلت تسللي حينها ووقفت بجوارهن، لأجد على ذلك الفراش لفة قماشية لا يظهر منها إلا رأس رضيعٍ يموء كالقطة، بجانبه سراج ناري، مددت إصبعي لألامس وجهه وهبطتُ به من جبهته إلى أنفه إلى شفتيه فأطبقها عليه ماصًّا له، فضحكت، فصرخت فيَّ أمي:

- نوح، ماذا جاء بك إلى هنا؟! اخرج.

جفل جسدي، وركضت إلى الخارج حيث كانت الهمهمات والنقاشات الحادة لا تزال متواصلة بين الحاضرين، ربما كانت أكثرها وضوحًا بالنسبة لي هي جملة أبي حين قال:

- لو علم الجنود بأمر هذه المولودة سيحرقون الضيعة بأكملها.

ليقولَ رجل آخر اسمه السيد «راشد»:

- قد نكون مخطئين، لم يرَ أحد منَّا ملديًا من قبل، وكل صفاتهم قرأناها في الكتب وحسب.

فنخر له أبي، وتابع:

- ومنذ متى يُولد البشر بأعينٍ صفراء؟ إنَّها ملدية لا محالة، ولا بد أن بهلول وريحانة يخفيان شيئًا.

كان العم «بهلول» زوج الخالة ريحانة يقف في جانب الردهة يحملق شاردًا في السماء عبر الشرفة، قبل أن يقطع أبي شروده زاعقًا فيه:

- أهناك تفسير للون عيني الفتاة الأصفر يا بهلول؟

ليلتفت وينظر إلى الحاضرين بأعينٍ زائغة تلمع بدموعها، ويهز رأسه نافيًا.

لم أعرف ماذا دار بين الرجال بعدها، إذ خرجت أمي وجرتني من يدي لتعود بي إلى بيتنا، بينما ظلّ أبي طوال الليل مع الرجال يتناقشون مع العم بهلول بشأن مولودته الجديدة.

❊❊❊

هكذا وصلت «ناي» إلى الدنيا في العام الخامس والسبعين بعد جفاف بحيرة «جِمارة»، أخبرتني أمي ذات مرة أن الخالة ريحانة سمَّتها بذلك الاسم لولعها الشديد بالموسيقى، قبل أن يأمرنا أبي حينها بوقف الحديث عنها محذرًا أمي من عواقب ذلك الفعل.

لم أفهم في طفولتي المبكرة سر عصبية أبي المستمرة مع أي حديث يخص ناي إلا بعدما كبرت بعض الشيء، وأدركت أن عينَي ناي الصفراوين لا تماثلهما عينان في قريتنا، وإن لم يمثل ذلك أي فارق لي، حتى عندما حاول أبي مرارًا وتكرارًا إثنائي عن الذهاب مع أمي لزيارة خالتي ريحانة في بيتها الجديد من أجل اللعب مع الفتاة وإطعام الطيور معها، لم يفلح في ذلك قط، وعندما منع أمي من تلك الزيارات كنت أذهب بمفردي بعدما حفظت الطريق إلى هناك عن ظهر قلب رغم سني الصغيرة، إذ كنت أحب مرافقة ناي منذ صارت تستطيع الركض، حتى السيد «بهلول» الذي لطالما وبخني على الذهاب إلى بيته من أجل ناي رضخ في النهاية مع مثابرتي وتصميمي على مصادقتي طفلته بشرط ألا نتجاوز سياج بيته الخشبي. لتمر سنواتنا معًا صديقين لا ثالث لهما، أو تستطيع القول حبيبين لا يستطيع مخلوق تفريقهما؛ نوح وناي.

❊❊❊

سنة بعد أخرى فهمت سر القلق الذي انتاب جيراننا ليلة ولادة ناي، فالكل هنا يعرف ما حدث في وادينا قبل قرابة ثمانين عامًا من تلك الليلة، تلك الحرب التي دارت بين جدودنا والذئاب، والتي على إثرها قُتلت كل الذئاب وشُنق كل الملديين، وحلَّ الجفاف في الوادي، ليلازمنا الفقر والجوع من وقتها ونرضى بالفتات الذي نحصل عليه من «التيبيانيين» الذين احتلوا بلدنا وجعلوا منها مقاطعة جنوبية لبلادهم موفرين لنا حصصًا ضئيلة من الحبوب كانت تنقلها إلينا جنودهم بعد كل موسم حصاد مقابل أعمال شاقة للغاية تكفَّل بها رجال وادينا، أغلبها يتعلق بتقطيع الصخور والمرمر من الجبال وبتر الأشجار من غابة الزافور ونقل أخشابها إلى «هيتا» عاصمة بلادهم، وهذا شيء قد نتحدث عنه مستقبلًا، لكن دعني أرجع الآن إلى ليلة ولادة ناي والتي عرفت بما دار فيها بعد سنوات على مرورها عندما تطرق حديثنا أنا وأبي وأمي إلى ناي وقال أبي:

- لم أظن أبدًا تلك الليلة أن تلك الشيطانة ستصل إلى عامها التاسع.

ولمَّا غضبتُ من وصفه لها بذلك الوصف، ربتت أمي على فخذي، وقالت لأبي:

- إنها بشرية مثلنا، وكنتم ستقتلونها بسبب غبائكم الحاد.

فقال بغرور:

- ما زلت عند رأيي، إنَّها ملدية ولو أنكر أبوها ألف عام.

سألت أبي حينذاك مستنكرًا:

- هل كنتم تريدون قتل ناي حقًّا؟!

هزَّ رأسه إيجابًا، وقال:

- نعم، فكرنا في ذلك ليلتها بعدما رأينا عينيها خوفًا من بطش الجنود والناس بنا، لن ينسى هذا البلد ما حدث قبل جفاف البحيرة، ولن يتجاهل شخص واحد هنا نبوءة حائط الرؤى.

كنت أعرف كل شيء يقصده أبي مثلي مثل كل الأطفال في عمري وقتها وإن لم أقتنع بكثير من تفاصيل الحكايات التي نشأتُ على سماعها، فقلت:

- حتى إن كانت حكايات ما قبل الجفاف صحيحة، فيبقى الملديون بشر مثلنا ولا أجد مبررًا لقتلهم في تلك الحرب.

حذرني أبي بسبابته قائلًا:

- الملدي نصف بشر ونصف ذئب.

ثم زفر وتابع متذكرًا:

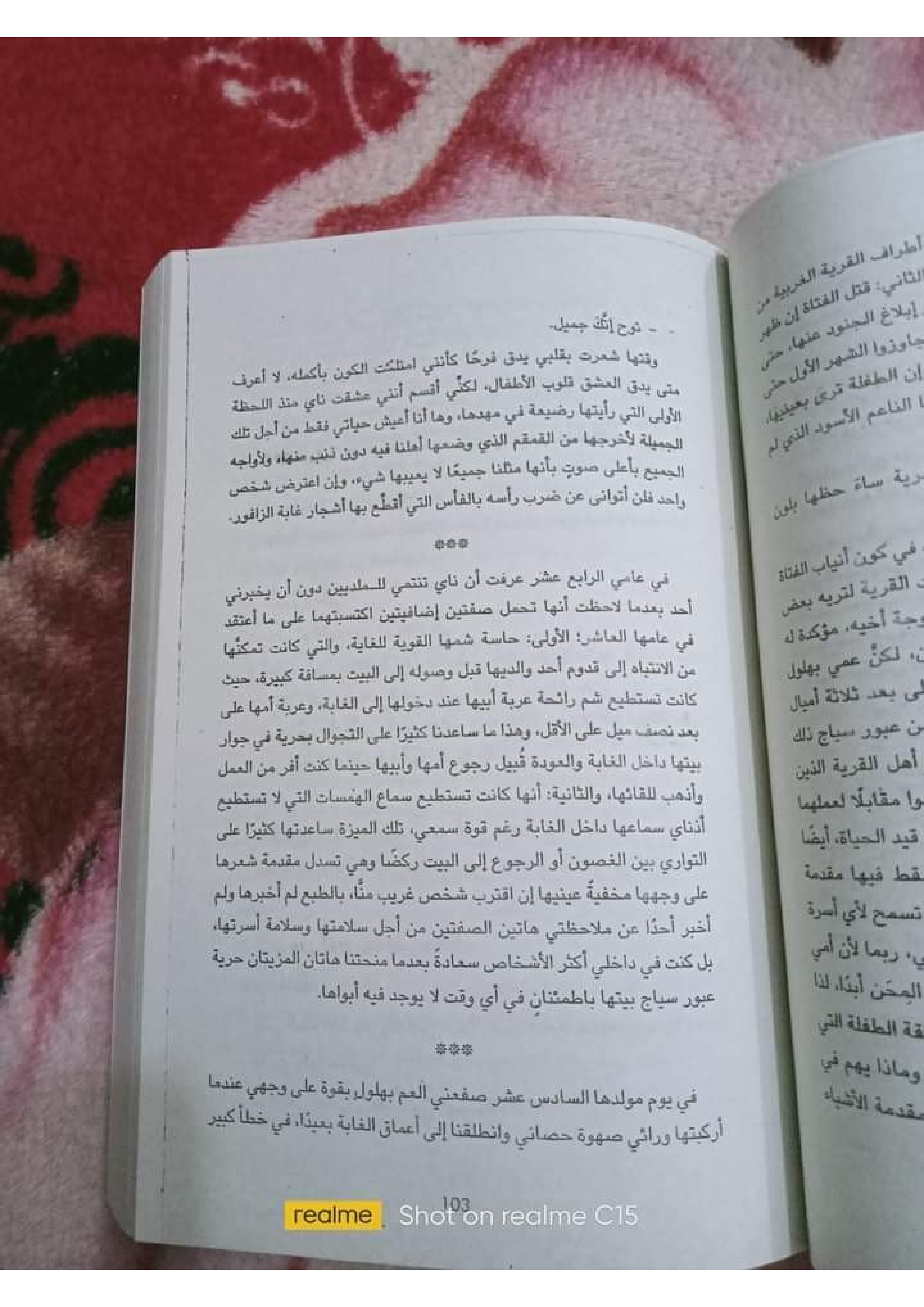
- لولا أننا كنَّا في حاجة ماسَّة إلى عمل بهلول لما تركنا تلك الطفلة.

دار في بالي عمل العم بهلول وميزته الغريبة التي أنقذت ابنته، إذ كان مُزيلًا للفضلات، يحمل بعربته الخراء من آبار البيوت الخلفية في قريتنا والقرى المجاورة وينقلها إلى وراء جبلٍ يبعد عنَّا عشرين ميلًا، فيما تقود زوجته الخالة ريحانة عربة أخرى تحمل المياه النقية من جدولٍ صغير يقع داخل الغابة إلى قريتنا، ربما كان هناك من يعوِّض عمل خالتي ريحانة، لكنَّ الوصمة التي كان يحملها عمل العم بهلول جعلت من الصعوبة وجود بديل له في القرية، لذا عندما أقسم للرجال أنه لا يعرف سببًا للون عيني طفلته الغريبْ وأصرَّ على حمايتها مهما قرروا أن يفعلوا، همس أحدهم للباقين إنَّهم إن قاموا بإبلاغ الجنود عن الطفلة سيؤدي ذلك إلى اعتقال الأسرة بأكملها، وحينها سيتوجب على أحدهم القيام بعمل بهلول المقيت وإلا غرقت القرية في الأوبئة والأمراض والرائحة الكريهة مع تراكم فضلاتهم في آبار بيوتهم الخلفية، وقتها أصرَّ أبي على فحص الرجال لجسد عمي بهلول لرؤية ما إن كانت به أي صفة من صفات الملديين، وسأل النساء أن تفعل الأمر نفسه مع الخالة ريحانة، وعندما لم يجدوا صفة واحدة في جسديهما زعموا فيما بينهم أن سبب تغاضيهم عن الإبلاغ عن الفتاة هو عيش الرجل وزوجته بينهم لأكثر من عشرة أعوام دون أن يبدو عليهما شيء مريب، واستقروا في النهاية على منح الطفلة ستة شهور أخرى للتأكد من الأمر بفحص جسدها من جديد، متفقين على شيئين: الأول: إخفاء الأمر عن باقي سكان القرية، وأقسموا على

ذلك، يطمئنهم نوعًا ما وجود بيت العم بهلول على أطراف القرية الغربية من ناحية الغابة مما يقلل كثيرًا من المتجولين هناك، والثاني: قتل الفتاة إن ظهر على جسدها صفة أخرى تؤكد انتماءها للملديين أو إبلاغ الجنود عنها، حتى وإن كلّفهم ذلك فقدان مُزيل فضلاتهم، إلا أنهم لم يتجاوزوا الشهر الأول حتى ظهرت البينة العظمى التي أكدت أن ناي بشر مثلنا، إن الطفلة ترى بعينيها، والملديون كانوا عميانًا، وشهر وراء آخر نبت شعرها الناعم الأسود الذي لم يشبه فراء الذئاب، وقتئذ صرخت أمي إلى أبي:

- أتحتاجون إلى مزيد من الأدلة على كونها بشرية ساء حظها بلون عينيها؟!

ليلوذ أبي بصمته في غضبٍ شديد، حتى عندما شكّ في كون أنياب الفتاة طويلة نوعًا ما، أخذته أمي من يده، ومرّت به على بيوت القرية لتريه بعض الرجال والنساء الذين تطول أنيابهم قليلًا ومن بينهم زوجة أخيه، مؤكدة له أن الفتاة منّا، فابتلع لسانه هو وكل المشككين الآخرين، لكنّ عمي بهلول أصرّ على الانتقال بأسرته إلى بيتٍ خشبي جديد بناه على بعد ثلاثة أميال داخل غابة الزافور، لتكمل ناي حياتها هناك وإن حُرمت من عبور سياج ذلك البيت بعدما لم يضحن أبواها وشي ضعاف النفوس من أهل القرية الذين استغلوا حاجتهما إلى كتمان سرهما، وأعلنوا أنهم لن يدفعوا مقابلًا لعملهما بإزالة الفضلات وإحضار المياه النقية ما دامت ابنتهما على قيد الحياة، أيضًا أصرّت الخالة ريحانة على تسريحة شعر واحدة لناي تسقط فيها مقدمة شعرها الأسود إلى منتصف وجهها ليخفي عينيها، وكذلك لم تسمح لأي أسرة من أسر القرية بزيارتهم في بيتها الجديد باستثنائي أنا وأمي، ربما لأن أمي كانت أكثر الداعمات للطفلة، ولا ينسى الناس داعميهم وقت المِحَن أبدًا، لذا لم أتوقف عن زيارتهم كل يوم قاطعًا تلك الأميال من أجل مرافقة الطفلة التي كانت بالنسبة لي أجمل ما في ذلك الكون، عيناها صفراوان؟ وماذا يهم في ذلك، صار الأصفر لوني المفضل، بل صار كل شيء تحبه في مقدمة الأشياء التي أحبها. قالت لي ذات مرة عندما بلغت الثامنة:



- نوح إنكَ جميل.

وقتها شعرت بقلبي يدق فرحًا كأنني امتلكت الكون بأكمله، لا أعرف متى يدق العشق قلوب الأطفال، لكنّي أقسم أنني عشقت ناي منذ اللحظة الأولى التي رأيتها رضيعة في مهدها، وها أنا أعيش حياتي فقط من أجل تلك الجميلة لأخرجها من القمقم الذي وضعها أهلنا فيه دون ذنب منها، ولأواجه الجميع بأعلى صوتٍ بأنها مثلنا جميعًا لا يعيبها شيء، وإن اعترض شخص واحد فلن أتوانى عن ضرب رأسه بالفأس التي أقطع بها أشجار غابة الزافور.

***

في عامي الرابع عشر عرفت أن ناي تنتمي للـملدبين دون أن يخبرني أحد بعدما لاحظت أنها تحمل صفتين إضافيتين اكتسبتهما على ما أعتقد في عامها العاشر؛ الأولى: حاسة شمها القوية للغاية، والتي كانت تمكنُها من الانتباه إلى قدوم أحد والديها قبل وصوله إلى البيت بمسافة كبيرة، حيث كانت تستطيع شم رائحة عربة أبيها عند دخولها إلى الغابة، وعربة أمها على بعد نصف ميل على الأقل، وهذا ما ساعدنا كثيرًا على التجوال بحرية في جوار بيتها داخل الغابة والعودة قُبيل رجوع أمها وأبيها حينما كنت أفر من العمل وأذهب للقائها، والثانية: أنها كانت تستطيع سماع الهمسات التي لا تستطيع أذناي سماعها داخل الغابة رغم قوة سمعي، تلك الميزة ساعدتها كثيرًا على التواري بين الغصون أو الرجوع إلى البيت ركضًا وهي تسدل مقدمة شعرها على وجهها مخفيةً عينيها إن اقترب شخص غريب منّا، بالطبع لم أخبرها ولم أخبر أحدًا عن ملاحظتي هاتين الصفتين من أجل سلامتها وسلامة أسرتها، بل كنت في داخلي أكثر الأشخاص سعادةً بعدما منحتنا هاتان المزيتان حرية عبور سياج بيتها باطمئنانٍ في أي وقت لا يوجد فيه أبواها.

***

في يوم مولدها السادس عشر صفعني العم بهلول بقوة على وجهي عندما أركبتها ورائي صهوة حصاني وانطلقنا إلى أعماق الغابة بعيدًا، في خطأ كبير

منّي بعدما عاد إلى البيت باكرًا دون أن نشعر أننا ابتعدنا أكثر من عشرة أميال عنه ولم تسعفنا حاسة شمها، لكنّها قبّلتني على الخد ذاته في يومنا التالي معتذرة عمّا فعله أبوها.

هو الآخر اعتذر لي بعد يومين عمّا بدر منه عندما قابلني أمام بيتنا، لكنّه فاجأني بطلبه منّي الابتعاد عن ابنته قبل أن أكون سببًا في موتها، فقلتُ له حينذاك دون أي تخطيط مسبق مني:

- أريد الزواج من ناي عندما تبلغ عامها الثامن عشر.

وقتها نكز حصان عربته، وتركني مغادرًا دون أن يقول كلمة واحدة، قلت لأمي ليلتها وهي تعد لي الطعام:

- سأتزوج ناي.

صمتتْ، ثم قالت دون أن تنظر إليَّ:

- أحبُّها وأحبُّ عائلتها، لكنَّ ذلك قد يجعلك طريدًا مثلها طوال العمر، ستلازمكما نظرات الناس التي تظنها منبوذة حتى وإن صرتما عجوزين، وقد يأتي جندي مجنون ويقدمها للسجن في أي لحظة، حتى وإن أثبتُّ لهم ألف مرة أنها بشرية مثلنا.

قلت:

- سأحميها بكل ما أملك، أعتقد أنني خُلقتُ قويًا من أجل حماية تلك الفتاة الضعيفة، سأبني بيتًا آخر في الغابة، وسأكتفي من الدنيا بها.

قالت:

- لن يرضى أبوك بهذا الأمر مطلقًا.

قلت ساخطًا:

- إنّني أقطع الأشجار وأتقاضى أجرًا مثلي مثله، لا حاجة لي به ولا حاجة له بي، إنّها حياتي.

جلست أمي أمامي ونظرت في عينيَّ وقالت:

- إنَّها ملدية وإن لم تجتمع فيها كل صفاتهم، لقد أخبرتني أمها بذلك السر بعد أيام من ولادتها. إنَّ ريحانة من نسل أحد الملديين، جد أبوها استطاع الفرار من المذبحة الكبرى رغم كونه أعمى، وتزوج من بشرية رحَّالة تعاطفت معه، وأنجبا ستة أطفال، لحسن حظه جاء جميعهم بشرًا كاملين، استطاعوا بعد بلوغهم التسلل إلى القرى وتزوجوا من بشر هم الآخرون منجبين أطفالًا عاديين، نقلوا إليهم سرهم بأن أصلهم يعود إلى الملديين، ليتوارثوا ذلك السر جيلًا بعد جيل خشية أن يأتي يوم وتنجب إحدى نسائهم ملديا سيئ الحظ يمزق الجنود أو الناس جسده إربًا، لذا ستجد في بيت كل نسل منهم مسحوقًا أبيضًا كان جدهم الأكبر يحمل مثله؛ سمٌّ فتاك يقتل لاعقه في لحظات، سيتناوله من يُولد ملديًا خوفًا من التمثيل بجثته، كانت ريحانة تستعد لتسميم ناي به إن أوشك رجالنا على قتلها لولا أن الفتاة نجت بقدرتها على الإبصار، ورغم كل السنوات التي مرَّت فإنَّني متيقنة أن ناي تحمل ذلك المسحوق لقتل نفسها إن قرر الجنود اعتقالها يومًا ما، لا بد أن أمها زرعت في ذهنها ما زرعه فيها أبواها من قبل.

ثم زفرت وأكملت وهي تنهض:

- إنَّ ريحانة وبهلول يعرفان أنكَ تحب ابنتهما، لكنَّهما رغم كل هذا الحب الذي يظهر في عينيك لها لن يقبلا بزواجك منها، لا هما ولا ناي التي تعرف عامًا بعد عام حقيقة أمرها، وتدرك جيدًا أن مصيرها في هذا البلد مرهون بوشاية شخص خسيس عنها، إن كانت تحبك فلن تقبل أن تصير أرملًا في أي لحظة.

قلت:

- إنَّني أكثر من يعرف ناي في هذه الدنيا، أكثر من أبويها نفسيهما، وأعرف منذ سنوات أنها تحمل صفات الملديين، لكنِّي لا أعبأ بذلك، حديثك بشأن ذلك المسحوق غير صحيح، لن تقتل الفتاة نفسها أبدًا، إنَّها تحبني وتثق بي، وتعرف أنني سأدافع عنها حتى آخر نفس لي؛

ستعيش من أجلي حتى نموت معًا بعد عمر طويل، وقتما يكتفي قلبانا
من نبضهما في هذه الحياة.

وتابعتُ متحديًا وأنا أنهض:

- سأتزوج ناي عندما تبلغ عامها الثامن عشر مثلما عهدنا عن قبيلتنا،
سأتزوجها مهما كانت عواقب ذلك الأمر.

وخرجتُ غاضبًا أفكر فيما قالته أمي، وألعن في داخلي الناس والنار
والجنود، ثم وجدت نفسي أكمل مسيرتي إلى داخل الغابة رغم تأخر الوقت،
وأتجه نحو بيت العم بهلول في مرارة لم أشعر بها من قبل، حتى وصلتُ
إلى سياجه الأمامي، وعبرتُه متسللًا، فخرجت لي ناي بسراجها قبل أن أطرق
نافذة غرفتها، وقالت ضاحكة إنها صارت تعرف رائحتي أنا الآخر، لم أستطع
الضحك، وسألتها في اقتضاب:

- هل أمي صادقة بشأن ذلك السم الأبيض؟

صمتت متفاجئة، قبل أن تخرج قلادة عنقها وتقول وهي تشير إلى قنينة
صغيرة مُعلقة بها وفي داخلها ذلك المسحوق:

- نعم يا نوح، لن أتركهم يفعلون بي ما فعلوه في أجدادي.

12

مصدومًا وقفت أمام ناي أحدق إلى قنينة السم الأبيض المعلّقة على صدرها دون أن أنطق بكلمة، فتابعت باسمة عندما وجدتني في تلك الحالة:

- لا تقلق يا فتى، لن أتناوله إلّا إن صرتُ على يقين تام أنه لا مفر من الاعتقال، وهذا لن يحدث ما دمت بجواري، أليس كذلك؟ ألن تحميني بفأسك مثلما تعدني دومًا؟

واصلت صمتي، فضمّت شفتيها وصمتت الأخرى، ثم أخرجت زفيرها وقالت بعدما طال صمتنا:

- لقد سمعت أبي يتحدث إلى أمي عن طلبك الزواج مني بعد إتمامي الثامنة عشرة، ورغم السعادة التي لم أشعر بمثلها في حياتي عند سماعي تلك الكلمات فإنها المرة الأولى التي يتمكن فيها الخوف مني إلى ذلك الحد.

وتابعتْ وهي تنظر في عيني:

- لقد عشت حياتي كلها أخاف من كل لحظة قادمة، كالجرذ الذي يستشعر مرتجفًا أي خطر وشيك فيركض متواريًا في أقرب جُحر خشية الموت سحقًا بالأقدام. لطالما فكرت في أن الموت أهون كثيرًا من العيش بهذه الطريقة، لكن بقيَ شيء واحد جعلني أتمسك بالحياة، هو وجودك معي. إنني أحبك يا نوح وأحب بقاءك معي، لكن إلى متى ستتحمل هذا العبء؟!

إنك ترى أبي وأمي وما عاشاه من ذل وتعب وإهدار لحقوقهما نظير صمت أهل القرية عن أمري، لكنهما يبقيان أبي وأمي في النهاية، أمّا

أنت ما ذنبك في إكمال حياتك يتملكك الخوف مثلي، ستسأم عاجلًا أو آجلًا، حتى وإن حاولت إخفاء ذلك الشعور عنِّي بكل طاقتك.

تريد أن تتزوجني؟ وماذا بعدها؟ تنجب أطفالًا قد يحملون صفات مني؟! يعيشون حياتهم مثلي في ذعر ورعب مع كل وقع أقدام تسمعها آذانهم؟! يعيشون في سجنٍ أبدي لن ينتهي أبدًا ما دام الناس يؤمنون بالنبوءة وباحتمالية ظهور الشاهد من جديد؟! لا يا نوح، أقسم لك أنني أحبك حبًّا لا يستطيع أحد بلوغه، لكنِّي عندما فكرت مليًّا في طلبك الزواج مني وجدت أنه أكبر ضررٍ قد أسببه لك، ولن أرضى بذلك أبدًا ما دمت أحبك. إن قتلي على يد أحدهم آتٍ آتٍ يا صديقي، بعد يوم، بعد شهر، بعد سنوات، مصير قادم لا محالة، فلا داعي إذن لعيشنا أحلامًا لن يأتي من وراءها إلا الحزن والبأس.

ثم تساقطت دموعها وهي تقول:

- إن أقسى شيء كنت أخشاه هي اللحظة التي أطالبك فيها بالابتعاد عنِّي، لا أعرف من سيحميني بعد ذلك، لكنَّ بقاءك معي سيظل مُهدِّدًا لحياتك مثلي، وأنا لن أقبل بذلك، لن أكون سببًا في إيذائك يا نوح.

مددت يدي ومسحت دموعها، وقلت:

- سأبقى معكِ يا ناي، سأبقى وسنعيش معًا ما تبقى من عمرنا، سيأتي يومٌ وينسى الناس أمر النبوءة، سيدركون خطأ معتقداتهم، وسيدركون أنها أساطير لا أكثر، وحتى يأتي ذلك اليوم سأبني لنا بيتًا في أعماق الغابة نعيش فيه أنا وأنتِ وأطفالنا، إن غابتنا كبيرة للغاية ولن يستطيع أحد الوصول إلينا.

وأمسكت يدها برفق، وقلت:

- إنني أطلب الزواج منكِ الآن يا ناي، لن أنتظر بلوغكِ الثامنة عشر، تبًّا لتلك التقاليد، اقبلي الزواج منِّي وسأدلف حالًا إلى أبيكِ لأوقظه وأخبره بأنني سأبدأ في بناء بيتنا البعيد في الصباح، إن قلبي لم يدق عشقًا إلا لكِ يا ناي، وما دام يواصل دقه فسأعيش كل لحظة من أجل إبقائك سعيدة مطمئنة فحسب.

كادت ترد، لكننا سمعنا صوت أمها ينادي باسمها فجأة، فتحركنا سريعًا نحو فناء البيت الخلفي، ثم تكرر نداء أمها، فهمست لي بأن أغادر ونتقابل في اليوم التالي مع ذهاب أبيها وأمها إلى عملهما كي نكمل حديثنا، فأومأت لها إيجابًا ثم اقتربت منها موحيًا لها بأنني سأقول شيئًا، فمالت لي بجسدها، ففاجأتها وانتزعت قنينة السم من قلادتها وابتعدت، صرخت متفاجئة مما فعلته، ومعها نادت أمها باسمها في قلقٍ خشية أن تكون في خطر ما، فقلت باسمًا وأنا أبتعد نحو السياج المنخفض:

- لست في حاجة إلى هذه القنينة، سأقابلكِ غدًا، وفكري في طلبي الزواج منكِ كي أحضر أمي وآتي إلى أبيكِ، سأنتظر ردكِ غدًا.

قالت:

- أرجوك يا نوح أعطني هذه القنينة، لا أعرف إن كان لدى أمي قنينة أخرى أم لا.

قذفتها في الهواء والتقطتها من جديد، وقلت باسمًا:

- ربما أتناوله إن لم تقبلي طلبي.

نادت أمها من جديد، فأشرت لها كي تجيبها وأن تنسى أمر القنينة، حاولتْ الاقتراب مني، لكنّي عبرت السياج واثبًا إلى جانبه الآخر، ثم اقترب صوت أمها أكثر، وظهر صوت أبيها في الأرجاء ينادي هو الآخر باسمها واسم أمها، فاضطرت إلى العودة إلى الفناء الأمامي لتجيب نداءهما وهي تنظر إليَّ، فغادرتُ عائدًا في اتجاه القرية ممسكًا قنينة السم في يدي ومتمنيًا في داخلي ألّا تكون لدى أمها قنينة أخرى، ومفكرًا في التخلص منها في مكان لا يصل إليه كائن حي قد يتناولها عن طريق الخطأ، لذا أكملت سيري بعيدًا عن قريتي حتى وصلت إلى جرف بحيرة جِمارة الجافة وهناك جلست.

كانت أرض البحيرة الصخرية تلمع بشدة أسفل ضوء القمر الذي كان أحدب في ذلك التوقيت، فكرت في هيئة سمائنا قبل أكثر من تسعة عقود وكيف كان بها بدر إضافي ساطع على الدوام يضيء بشدة ليالي وادينا، حتى أن أسقف الحانات الهرمية وقتها كانت تحمل نوافذ مربعة كبرى يعبرها

الضياء فلا تحتاج إلى مشاعل لإنارتها، لتنتعش الحياة ليلًا خلال تلك الأوقات وتدوّن الكتب أن أحد أسباب ازدهارنا قديمًا هو ضوء الشاهد الذي جعل العمل يستمر اليوم بأكمله لا نهارًا فقط مثل البلدان الأخرى، ثم جال في بالي ما تعلمته عن أصل الملديين وعن النظرية الأكثر انتشارًا عن نُبتتهم الأولى في هذه الأرض قبل مئات السنين، والتي تقول إنه قبل قرون طويلة كان هناك ملك مغرم بالنساء تزوج أكثر من سبعين امرأة، ثم ظهرت في المدينة فتاة جميلة اسمها «ملدة»، فهام بها عشقًا وأراد أن يتزوجها هي الأخرى، فرفضت، فأشعل ذلك غضبه، وأمر جنوده بأن يكبّلوها ويأتوا بأحد ذئابه لينكحها أمام ضيوفه عقابًا لها، لكنَّ أحدًا لم يتوقع أن تحمل تلك الفتاة بعد ذلك بسبعة أطفال في بطنٍ واحدة، وُلد منهم أربعة أحياء؛ طفلان وطفلتان كانت عيونهم صفراء لا ترى وشعورهم كالفراء، نبذهم الناس لسنوات طويلة فعاشوا في الغابة مع أمهم، حتى اكتشف أحدهم في سن العاشرة قدرته على التخاطر مع أحد الذئاب ومقدرته على الرؤية من خلال عينيه لدرجة أنه استطاع عبور غابة الزافور من شرقها إلى غربها دون تعثر، ومن بعده استطاع إخوته فعل الأمر نفسه، ثم عُرف عنهم ذلك الأمر فكانت طامة كبرى عليهم وعلى أمهم، إذ أُحضِروا للملك فوجدها فرصة عظيمة لتقوية حكمه بفهم عقول الذئاب، وكرر أمر اغتصاب الذئب لأمهم «ملدة»، فأنجبت ملديين آخرين، ثم حاول فعل الأمر نفسه مع نساء أخريات لكنَّه لم يفلح، لتبقى تلك المرأة حبيسة لديه تنجب أطفالًا من الذئاب، حتى ماتت.

تكاثر الملديون فيما بينهم بعد ذلك ولم يتزوجوا من غير جنسهم، وقيل إن الحبلى منهم كان باستطاعتها إنجاب ستة أو سبعة أطفال في الحمل الواحد مثل الذئاب، وبمجرد وصول كل ملدي سن العاشرة كان يستطيع التخاطر مع ذئب ما يختاره ويستطيع أحيانًا رؤية الأشياء من خلاله رؤيةً مشوشة باللونين الأبيض والأسود فقط، ثم أعلن أحدهم بعد سنوات عن قدرته على استقبال الرؤى التي يبثها الشاهد إلى الذئاب، فسُجلت لأول مرة العلاقة الوطيدة بين شاهد السماء والذئاب، لتزداد مكانة الملديين أكثر وأكثر لدى الملوك،

خاصةً من استطاع منهم التخاطر مع ذئاب «صامون» القادة الحقيقيين لبقية الذئاب، لكن في الآن نفسه لم يسمح الحكام بتزايد أعدادهم خوفًا من تمردهم، وبعد بلوغ عددهم أربعة آلاف ملدي آثروا تحديد نسلهم، فسمحوا لنسائهم بالاحتفاظ بطفلين فقط من كل مرة حمل، وأمروا الجنود باقتياد بقية الأطفال إلى البحيرة لإغراقهم فيها، حاول الملديون التمرد حينذاك، لكنَّ اعتقالهم جميعًا واحتجازهم في قفص كبير يتوسط المدينة وإشعال النار من حولهم تمهيدًا لإحراقهم جعلهم يتراجعون ويخضعون لأوامر قادة البلاد.

ذكرت كتب التاريخ أن الناس تجمعوا حول ذلك القفص في خوف كبير من تمرد الذئاب على إثر العلاقة القوية بينها وبين الملديين، لكنَّ ذلك لم يحدث وانتهى الأمر بالامتثال للأوامر بالاكتفاء بطفلين فقط، وإن تركت تلك الحادثة شرخًا عظيمًا بين الملديين والذئاب، أما الأمر العجيب الذي دُوِّن عنهم أيضًا أن أجساد الأنقياء منهم؛ أي الذين يمتلكون كل صفاتهم، كانت مثل أجساد الذئاب تحتفظ بهيئتها سليمة عشر سنوات بعد الموت، ثم تبدأ في التحلل بعد ذلك، لم تضع الكتب القديمة تفسيرًا منطقيًا لذلك، لكنَّ طبيبًا قديمًا دوَّن في أحد كتبه أن أنسجة أجسادهم تختلف بعض الشيء عن أنسجة أجسادنا نحن البشر، وتحتوي غددًا إضافية وإن بدوا أمامنا بهيئة تماثلنا، مُرجحًا خطأ نظرية الأم المغتصبة من ذئب الملك، ومفترضًا نظرية أخرى بأن أسلاف الملديين أتوا إلى عالمنا بصفاتهم عبر إحدى العابرات وتناسلوا فيما بينهم هنا، يدعم تلك الفرضية الأساطير التي أكدت مقدرتهم على الوصول إلى عابرات أعماق الجبال مثل الذئاب، وإن ظلَّت النظرية الأولى المتعلقة بالفتاة «ملدة» هي الأكثر شيوعًا في تراثنا القديم.

أيًا كان فقد انتهى عهدهم مع انتهاء عهد الذئاب، ومن فرَّ من مذبحتهم الكبرى واستطاع الاندماج مع البشر لم يبقَ منه إلا نسل يحمل صفات قليلة لا قيمة لها مثل ناي، بل يحمل عبئًا لا ذنب له فيه. فكرت أثناء جلستي تلك أن ناي إن كانت ملدية كاملة قد يحتفظ جسدها بهيئته لعشرة أعوام بعد موتها مثل أسلافها الملديين الأنقياء، لكن مع عينيها التي ترى وشعرها الأسود

الناعم البشري كان ذلك الاحتمال ضعيفًا، ضربت رأسي لأبعد تلك الفكرة برمتها عنه، وهمست لنفسي:

- لا لن تموت الفتاة، لن يمسَّها أحد بسوء.

وأخرجت قنينة السم من جيبي وألقيتها بعيدًا بكل طاقتي نحو أرضية البحيرة، ونهضت عائدًا إلى البيت لأدلف إلى غرفتي وأخلع قميصي وأرقد مطمئنًا مع تخلصي من ذلك السم، لم أستيقظ إلا عندما صاحت في أمي وهي تحرك جسدي بقوة على غير عادتها، لأفتح عيني مندهشًا من سلوكها الغريب، قبل أن أقفز من سريري مفزوعًا عندما وجدت الدماء تسيل من رأسها إلى أذنيها، وأسألها في قلق:

- ماذا حدث؟!

قالت في ارتباك شديد:

- إنه أبوك، ما إن تحدثت معه بشأن رغبتك في الزواج من ناي حتى استشاط غضبًا وخرج يلعنك ويلعنها ويلعن أبويها.

قلت في ريب وأنا أفكر في تهور أبي:

- خرج إلى بيت العم بهلول؟!

قالت:

- لا، قال إنه حذَّر بهلول أكثر من مرة كي يبعد ابنته عنك، لقد خرج وهو يقسم أنه سيخبر الجنود عن ناي، وحين حاولت إيقافه ضربني بعصا فأسه على رأسي، لم أشعر بشيء بعد ذلك، ولا أدري المدة التي غبت فيها عن الوعي.

لم أنتظر أن تكمل أمي حديثها وركضت إلى الخارج عاري الصدر، كانت الشمس تتوسط السماء بينما ينشغل الناس في أعمالهم على جانب الطريق، سألت أحد المارة عن أبي، فقال إنه رآه في الصباح يركب حصانه متجهًا دون أن يلقي التحية على أحد، قلت:

- هل ذهب تجاه الغابة؟

قال:

- لا أتذكر.

سألته:

- هل رأيت العم بهلول هذا الصباح؟

هزّ رأسه إيجابًا وقال:

- نعم، كان يجوب القرية بعربته منذ قليل، ورأيت ريحانة كذلك.

فكرت في أن ناي بمفردها في بيتها، وسألت آخر عن أبي في توتر كبير، قال إنه رآه يقطع الطريق نحو «بليجة» وهي قرية كبيرة تقع على بعد ثلاثة أميال شمال قريتنا، ويُوجد فيها معسكر كبير للجنود تتحرك منه كل صباح جماعات منهم إلى أماكن تقطيع وتجفيف الأخشاب ليشرفوا على سير العمل بانتظام، بينما يبقى الجزء الأكبر منهم داخل أسواره استعدادًا لأي طارئ، همست إلى نفسي مرتعبًا:

- لا، لن تفعلها يا أبي.

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أخطف فأسًا من شاب كان يقف على جانب الطريق يتناول طعامه، قبل أن أركض وأمتطي حصانًا كان صاحبه يغازل امرأة تمر دون أن ينتبه له، وقلت معتذرًا وأنا أنكز مؤخرة الحصان بقدمي:

- عذرًا سيدي، سأعود في الحال.

ثم ركضت بالحصان وأنا أصيح فيه بكل طاقتي كي يسرع لينطلق بي إلى داخل الغابة.

***

لم أشعر في حياتي بسرعة مرور الوقت مثلما شعرت في تلك اللحظات، كان الحصان يركض بأقصى سرعته ورغم ذلك كنت أشعر أنه أبطأ حيوان على وجه الأرض، كالمجنون كنت أغمغم إلى نفسي:

- لماذا يا أبي، ما ذنب الفتاة؟!

وأصرخ إلى السماء بأعلى صوت كي تسمعني:

- نااااي، اهربي، إن الجنود قادمون.

تتساقط دموعي وأنا أفكر في كلاب الصيد التي ترافق الجنود وأتخيل أنها تطارد ناي من كل جانب لتنهش لحمها دون رحمة، لا تضاهي سرعة مخلوق في بلدنا سرعة تلك الكلاب.

الحصان يواصل ركضه بين الأشجار، تتكسر أسفل حوافره الأخشاب والغصون الجافة، وأنا أواصل ندائي:

- نااااي، إن الجنود قادمون.

وأهمس إلى نفسي مضطربًا:

- ستسمعني وستهرب، لا يهم إلى أين، اهربي فحسب، سأبحث عنك فيما بعد في كل مكان.

وأصرخ إلى الحصان راجيًا:

- أسرع، علينا أن نصل إليها قبل الجنود.

تردد صوت نباح الكلاب فجأة في الأرجاء، فسرَت في جسدي رعشة قوية ومعها توقف الحصان بغتةً رافعًا قائمتيه الأماميتين، ليسقطني من فوقه إلى الأرض، ويركض عائدًا تجاه القرية وهو يصهل مرتعبًا، أمسكت بفأسي وركضت نحو الاتجاه الذي يأتي منه النباح، والذي كان بعيدًا عن بيت العم بهلول، أضرب غصون الأشجار المتشابكة أمامي لأزيحها عن طريقي، وأواصل صراخي بصوت أعلى:

- نااااي، اهربي.

صوت النباح يتواصل، وسمعت ناي تصرخ!

تجمد جسدي قبل أن أركض في الاتجاه الآخر الذي أتى منه صراخ ناي، وأنادي:

- ناي، إنني قادم.

أتجاوز الأشجار والحشائش والغصون الأفقية، وأسقط وأنهض، فيما تواصل ناي صراخها والكلاب نباحها، حتى اقتربتُ من مصدر تلك الأصوات، وظهرت عربة الجنود أمامي بحصانيها، كانت خاوية لا يقف بجوارها أحد، تقدمت أكثر وأكثر نحو رقعة جرداء لا تُوجد فيها أشجار ولا غصون، تقف ناي في منتصفها يحاصرها ستة جنود يمسك ثلاثة منهم بكلاب ينبحون تجاهها، تنظر نحوهم مرتعبة وهي تتحرك خطوات قليلة عشوائية في كل اتجاه بفستان من الكتان الأبيض ممسكةً بجاروف حديدي كبير في يدها، وتواصل صراخها إلى السماء، تقدمتُ بفأسي وصحت إليها:

- لا تخافي يا ناي، إنني هنا.

انتبه أحد الجنود إليَّ، فضربته بالفأس ضربة أسقطته، هجم كلب عليَّ فأسقطته هو الآخر بضربة جعلته يعوي متألمًا، التفَّ ثلاثة من الجنود حولي، فركضت ناي في تلك اللحظة من ثغرة بين البقية نحو أشجار الغابة، حاول جندي مهاجمتي، أفلتُّ ذراعي من ضربة سيفه الحاسمة في اللحظة الأخيرة وكدت أضرب رأسه بفأسي لولا أن جنديًا آخر غرس سيفه في فخذي اليسرى فصرخت متألمًا، وسقطت لا أقوى على الاستناد إليها، هنالك هوى جندي آخر بدرعه على مؤخرة رأسي، فسقطت على الأرض تسيل الدماء من رأسي مغرقة وجهي، حاولت النهوض لكنَّ أحدهم داس بقدمه على رأسي بينما ظهر آخران وهما يجرَّان ناي إلى الرقعة مرة أخرى، كانت تنظر إليَّ باكية وتواصل صراخها، حاولت النهوض مرة أخرى فضغط الجندي بحذائه على صدغي بقوة في حين تقدم برمحه جندي آخر بدا من درعه وخوذته أنه قائد تلك المهمة نحو ناي المُقيدة من الجنديين، صرخت باكيا:

- أرجوكم، إنها بشرية مثلنا، إنه بلاغ كاذب.

كان القائد يتحرك نحوها بخطوات ثابتة محطمًا الحصى أسفل حذائه العسكري بينما تنظر الفتاة نحوه ونحو رمحه في رعب شديد، وهي تحاول التملص من مكبليها، ثم تحررت من أحدهما فقبض الآخر بذراعه على عنقها مقيدًا حركتها، فواصلت مقاومتها حتى أفلتت ذراعها اليمنى وتحسست بيدها

قلادة صدرها باحثةً عن شيء ما، لكنَّها ما لبثت أن أسقطت يدها بالسقـ
بكيتُ بحرقة وأنا أتذكر قنينة السم التي أخذتها منها، وصرخت من جديد
عندما وقف قائد الجنود على بعد قدمين في مواجهتها:

- إنها بشرية مثلنا.

قبل أن تتحجر الدموع في عيني ويتوقف الزمان بي وتسكن كل الأصوات
من حولي عندما رفع رمحه وبضربة واحدة غرسه بقوة في منتصف صدرها
لتسقط غارقة في دمائها لا تحرك ساكنًا.

13

كنت لا أزال طريح الأرض مدكوك الرأس والوجه أسفل حذاء الجندي عندما أخذت كلاب الصيد تتشمَّم جسد ناي الغارق في دمائه قبل أن تطلق نباحًا نصيرًا وتبتعد عنها في اتجاه عربة الجنود وكأنه إشعار منها أنها فارقت الحياة، حينذاك تقدم قائد الجنود نحو جثتها، فأغمضت عيني كي لا أرى ما سيفعله بها، لكنَّه اكتفى بنزع رمحه من صدرها واستدار سريعًا ليأمر جنوده بأن ينسحبوا إلى عربتهم، توقعت أن يهوي سيفٌ في تلك اللحظة على عنقي ليفصل رأسي عن جسدي إلا أنهم لسببٍ لا أعرفه تركوني ومضوا في طريقهم، فزحفت بصعوبة على يدي وركبتي اليمنى نحو ناي، كانت راقدة مغمضة العينين شاحبةً كالثلج، احتضنتها وأنا أناجيها:

- أرجوكِ يا ناي انهضي، أرجوكِ لا تتركيني وحيدًا، انهضي وسنغادر هذا البلد بأكمله، أرجوكِ.

قبل أن أصرخ إلى عنان السماء صرخةً جعلت طيور الأشجار تحلق من أعشاشها.

❊❊❊

بعدما استعدت بأسي بعض الشيء مزقت بنطالي، ولففت قماشة منه بقوة حول فخذي النازفة، ثم حملت ناي عائدًا إلى بيتها، بدا على أبيها وأمها أنهما كانا عائدين لبيتهما منذ قليل وقد بحثا عنها بعضًا من الوقت دون أن يعرفا شيئًا عن مطاردة الجنود لها، جريا نحوي في جنون، ولما رأيا وجهها الساكن الشاحب وثوبها الغارق في دمائها توقفا مذهولين وكأنَّ صاعقةً

أصابتهما، قبل أن تصرخ خالتي ريحانة وهي تهز جسدها وتنادي باسمها. قلت باكيًا:

- لقد قتلها الجنود، ولم أستطع إنقاذها.

هوى العم بهلول إلى الأرض يلطم وجهه، فيما واصلت خالتي ريحانة عويلها ونداءها جثة ناي راجيةً لها بأن تنهض، وضعتُ ناي إلى الأرض برفق وابتعدت خطوات باكيًا، فاحتضناها وهما ينتحبان غير مصدقين.

بعد دقائق تحسست خالتي ريحانة صدر ناي أسفل فستانها، ثم مزقت عنق الفستان كاشفة صدرها وكأنَّها تبحث عن شيءٍ ما، فأبعدت عيني، قبل أن تغمغم إلى زوجها وهي تنشج:

- لقد طُعنت في قلبها، ماتت ابنتنا بلا رجعة.

وصرخت وهي تضم ناي إليها، بكيتُ بحرقة أنا الآخر، ثم نهضت ماشيًا متجهًا إلى حافة البحيرة التي جلست عندها في الليلة السابقة، وعندما وصلت إليها هبطت إلى أرضيتها، كانت القنينة لا تزال هناك سليمة كما ألقيتها، التقطتها، وعدت إلى قريتي، كان الجميع ينظرون نحوي في تعجب وأنا أسير أعرج عاري الصدر ممزق البنطال، تتجلط الدماء على وجهي ورقبتي وظهري، وتتساقط من فخذي المُضمدة قطراتٌ من الدماء، حاول البعض إيقافي لسؤالي عمَّا حدث، لم أتوقف، سمعت البعض يتهامسون عن خبر مقتل ناي وكأنَّ الجنود نشروه في القرية، فامتلأت عيناي بالدموع وأنا أواصل تقدمي، كانت أمي تقف عند باب البيت، وحصان أبي معقولًا في وتد على جانبه يأكل التبن، تقدمتُ، قالت أمي والدموع في عينيها:

- إنَّني آسفة يا نوح، إنَّني آسفة يا بني.

لم أجبها، وواصلت تقدمي أنظر إلى أبي الذي كان يجلس في الردهة يحدق إليَّ دون أن يقول شيئًا، لم أزح عيني عن عينه، فوجدته يحرك يده نحو فأسه التي كانت تقبع بجواره، واصلت اقترابي منه، ثم صرخت فيه:

- لماذا؟!

قال في برود:

- لن يتلوث نسلك بهم، لقد فعلت ما في مصلحتك.

زعقت فيه:

- إنك أحقر من رأيت في حياتي.

ثم أمسكت رأسه بقوة، حاول أن يضربني بفأسه، فأمسكت بمعصمه وضربت يده في مسند الأريكة التي كان يجلس عليها، فسقطت الفأس منها.

صرخت أمي:

- إنَّه أبوك يا نوح.

قلت:

- لا، إنَّه قاتل حبيبتي.

ثم قبضت على فكِّه السفلي بأقصى قوتي لأفتحه، وبإبهام يدي الأخرى أزلت سدادة قنينة السم، وأفرغت ما فيها بالكامل في حلقه، ثم أغلقت فمه من جديد بإحكام، وعندما سقط أمامي ينازع اختناقه محتقن الوجه جاحظ العينين غادرت راكبًا حصانه عائدًا إلى الغابة مرة أخرى.

***

في فناء بيت العم بهلول كان الجمود لا يزال مسيطرًا على كل شيء، جثة ناي في الموضع نفسه الذي تركتها فيه، يجلس بجوارها أبوها وأمها هائمين ساكنين يحدقان نحوها بأعينٍ زائغة ولا يدريان شيئًا من حولهما، نزلت من فوق حصاني وتقدمت إليهما، وحاولت النطق لكنِّي لم أستطع، فجلست بجوارهما صامتًا. لم يأتِ أيٌّ من أهل القرية لمواساتهما في مصيبتهما، كان جميعهم جبناء خشوا أن يتورطوا في إخفائهم أمر وجود ناي كل تلك السنوات فيعاقبهم الجنود، أنذالٌ، مثلهم مثل أبي يستحقون جرعة كبرى من السم الأبيض.

عند اقتراب الشمس من المغيب نطقتُ إلى العم بهلول أخيرًا بأسمر...
شيء قد أقوله:

- أين تريدني أن أحفر قبرًا سيدي؟

لم يجبني وظلّ صامتًا غارقًا في شروده، لكنّ خالتي ريحانة قالت ...
ترتشف دموعها:

- نريد برميلًا من القار الأسود أولًا يا نوح.

تعجبت من طلبها، وتساءلت:

- لماذا؟!

قالت بصوت تخنقه الدموع:

- حتى لا يصلها ضوء الشاهد عندما يظهر في السماء من جديد، نريدها
أن ترقد في سلام إلى نهاية الزمان.

أطلقت زفيري في سأم، وهمست إلى نفسي:

- النبوءة مجددًا!

ثم حدثتها مفكرًا في أنّ الصدمة أتلفت عقلها:

- إنّ الشاهد إن ظهر سيُنهِض الذئاب فحسب، خالتي.

قالت دون أن تنظر إليّ:

- والملديون كذلك.

توقفت عند كلمتها مستغربًا، ورغم أنّني كنت أشك في سلامة عقلها في
تلك اللحظة فإنّني قلت مؤكدًا ومستفهمًا في الآن نفسه:

- لم تذكر النبوءة شيئًا عن الملديين الموتى.

قالت:

- نعم هذا صحيح.

قبل أن تتابع:

- لكن ما لا يعرفه الناس أنَّ ما دُوِّن على حائط الرؤى هو نصف النبوءة فقط.

وأكملتْ حين نظرتُ لها متعجبًا من نبرتها الواثقة:

- لقد كان جَدّي الأكبر هو من استطاع تلقي رؤية الشاهد الأخيرة، ودوَّن على حائط الرؤى الجزء المتعلق بالذئاب فحسب، أمّا الجزء المتعلق بنهوض الملدبين مع الذئاب فاكتفى به لنفسه ولذريته من بعده خوفًا من إحراق الناس لكل مَن يشكُّون في كونه ملديا.

أطلقت إيماءة مستنكرة، وقلت:

- وما الفارق بين الموت حرقًا والموت بأي وسيلة أخرى؟!

قالت:

- اعتقد جَدّي أنَّ الشاهد سيستطيع رؤية ذئب «صامون» ويعاود الظهور خلال العشرة أعوام الأولى بعد اختفائه على الأكثر، قبلما تتحلل الأجساد وتصير عظامًا، لكنَّ السنوات مرَّت تباعًا ولم يظهر الشاهد، وعندما شعر بقرب انتهاء أجله مرَّر لنسله من البشر قنائن السم كي يتناوله من يأتِ ملديًا من ذريته ليموت بأعضاء سليمة ينهض بها إن جاء يوم وظهر الشاهد من جديد.

يبدو أنَّ ناي لم تستطع استخدام قنينتها رغم أنَّني أفنيت عمري أحدثها كذبًا عن تمثيل الجنود بجثتها إن أمسكوا بها، كنت أريدها أن تحتفظ بقلبها سليمًا لعلَّ الشاهد يظهر قبل تحلل جسدها وتعود للحياة مرة أخرى، أمّا الآن فإن نهضت مع ذلك القلب الممزق داخل صدرها فلن تكون إلا شبحًا لا دماء فيه، ميتًا يتحرك، لذا لا بد وأن نغطي قبرها بطبقة من القار مثل الوادي الأسود، لن يرحمها الناس إن نهضت، سيمزقونها وسيطعمونها للكلاب، حتى وإن لم يفعلوا فلا جدوى من عيشها.

قلت مندهشًا مما تقوله:

- لا أصدق شيئًا من ذلك.

قالت مصممة:

- إنّها الحقيقة، أليس كذلك يا بهلول؟

كان العم بهلول لا يزال صامتًا محدقًا إلى جثة ابنته، لكنه هز رأسه إيجابًا.

فكرت في أنّ ناي ليست ملدية مكتملة الصفات بحملها صفات بشرية سائدة مثل إبصارها وطبيعة شعرها، لذا احتمالية بقاء جسدها سليمًا خلال العشرة أعوام التالية كان أمرًا مستبعدًا من الأساس، لكن ماذا لو كان ما تحدثت بشأنه خالتي ريحانة حقيقيًّا؟ ماذا لو وعد الشاهد حقًّا في نبوءته بعودة الملديين مع الذئاب؟ ماذا إن عادت ناي للحياة مرة أخرى؟! بعد عام؟ بعد عامين بعد عشرة؟! حتى لو بعد أعوام أكثر من ذلك؟! حينذاك أعدت سؤالي إليها:

- هل أنتِ صادقة بشأن ذلك الجزء من النبوءة يا خالتي أم أنّ موت ناي أثّر على عقلك؟

قالت في هدوء:

- اذهب إلى حائط الرؤى ستجد النبوءة محفورة عليه وبجوارها حروف منقوشة على مسافات، إنها الحروف الأولى من النصف الباقي من النبوءة؛ «سينهض الملديون وستشع عيونهم بالأصفر من جديد ليقرروا الذئابَ أخوةً متعاهدين ضد البشر».

س ا و س ع ب م ج ل ا أ م ض ا

ظنّ الناس أنّ ذلك نوع من السحر، لكنّها رموز وضعها جدي كي يثبت رؤيته فيما بعد.

قلت وأنا أفكر في أنّني لم أرَ حائط الرؤى من قبل خاصةً أنّه نُقل إلى «تيبيانا» قبل عقود، ويُقال إنه مُلقًى هناك في مكان قذر، وقد تهشم جزء كبير منه:

- أريد دليلًا آخر.

صرخت فيَّ:

- إنَّني أخبرك بالحقيقة، إن كنت تحبها حقًا أحضر لها ذلك القار اللعين.

صرختُ فيها:

- أريد دليلًا آخر على أنَّ ناي قد تنهض إن عاد الشاهد للظهور.

نطق العم بهلول للمرة الأولى:

- انظر إلى لون عينيها، لن تجده أصفر مثلما تعودت أن تراه.

نظرت إليه مستغربًا، كانت عينا ناي مُغلقتين منذ اللحظة التي سقطت فيها غارقةً في دمائها ولم أحاول فتحهما، ودون أن أقول شيئًا تحركت نحوها، وبرفق رفعت جفن عينها وحينها انتفض جسدي إذ وجدتها زرقاء كالسماء الصافية.

فأردف:

- ستعود للونها إن نهضت قبل تحللها، لكن بلا قلبٍ سليم ستكون شبحًا مثلما قالت ريحانة، لن تعود ناي التي تعرفها أبدًا.

واصلت تحديقي في ناي، ومددت يدي وفتحت العين الأخرى كانت زرقاء أيضًا، هنالك أغلقت عينيها في رفق، وقلت لأبويها:

- لن أغطيها بالقار مثلما تريدان، ولن أدع جسدها يتحلل، إنَّني أستطيع الحفاظ على سلامة جسدها حتى يظهر الشاهد من جديد أو أموت، أيهما أولًا.

14

مروة طارق

لم أظن يومًا أنّني قد أفعل ما فعلته في تلك الليلة، أن أذهب بمفردي إلى مكانٍ قصيٍّ مُظلم في قرية لم أزرها في حياتي إلا مرتين، وأن أتتبع شخصًا كل ما أعرفه عنه هو حسابه الإلكتروني على موقع «فيسبوك»، وأن أعبر وراءه سور بيتٍ مهجور في ليلةٍ مطيرة كان طقسها الأغرب على الإطلاق منذ سنوات.

قبل أيام من تلك الليلة تلقيت اتصالًا من «فاروق» زميل دراستي الذي يعرف أناسًا في قرية «البهو فريك» يخبرني فيه عن اكتشاف أحدهم إزالة كومة طين قبر الشيخ موسى وإغلاقه بالطوب المرصوص فحسب، وتأكيد أحد سكان البيوت المحيطة بالمقابر له رؤيته لخالد وهو يغادر المقابر بجوالٍ منبعجٍ قبلها بيومين في وقت متأخر من الليل، ورغم أنّني فكرت وأنا أنهي المكالمة أن أنسى أمر ذلك الذئب وأركّز على باقي رسالتي العلمية فإنّ غضبًا في داخلي من ذلك المدعو «خالد» جعلني أرغب في العودة إلى تلك القرية مرة أخرى لأعرف سبب إصراره على حرماني من ذلك الاكتشاف، لاسيما أنّنا صرنا نمتلك شاهدًا على فتحه قبر الشيخ موسى، بيد أنّ الأسباب تجمعت تباعًا لتؤخرني أيامًا عن الذهاب إلى تلك القرية، تارةً تُصاب أمي بفيروس «كورونا» وتُحجَز في المستشفى، وتارةً تضع أختي مولودها الأول، وتاراتٍ أخرى تفعلها سيارتي وتتعطل كالعادة، إلى أن جاء الفرج أخيرًا واستطعت توفير يومٍ للسفر إلى تلك القرية، ورغم سوء الجو منذ صبيحة ذلك اليوم وتذبذب أداء شبكة الاتصالات الهاتفية وتعطل سيارتي مرتين في

الطريق فإنّني أصررت على إكمال الطريق إلى هناك، حتى وصلت القرية قرابة التاسعة مساءً لأجد شوارعها خاويةً في ذلك التوقيت وكأنّها صارت قرية من الموتى مع سوء الطقس.

حاولتُ مهاتفة فاروق أكثر من مرة، لكنّي لم أستطع بسبب تلاشي الإرسال مع اشتداد الهواء، كنا قد اتفقنا صباحًا في آخر مكالمة هاتفية بيننا أنّنا سنلتقي في القرية في تمام الخامسة مساءً ومن بعدها ساءت شبكة الاتصالات تمامًا، أرسلت له رسالة إلكترونية عبر تطبيق «واتس آب» أخبره فيها أنّني وصلت القرية، لعلّ بصيصًا من الإرسال يصل الهاتف فيعلم أنّني أمكث في انتظاره، ثم ركنت سيارتي على جانب طريقٍ قريب من بيت خالد وبقيت في داخلها أنظر إلى هاتفي كل دقيقة آملة أن تُرسَل رسالتي بينما يواصل المطر هطوله في الخارج.

فكرت في النزول إلى خالد ومواجهته بمفردي، لكنّي كنت أعرف أنّها ستكون مواجهة بلا قيمة، إذ كان من المفترض أن يأتي فاروق وصديقه بالشاب الذي رآه يتحرك بجوالٍ من منطقة المقابر كي لا ندع له مجالًا للإنكار، إلا أنّ كل شيء صار في مهب الريح مع عدم قدرتي على الوصول إلى فاروق، حتى فوجئت بما لم أتوقعه قط، خالد يخرج من بيته حاملًا حقيبة ظهر سوداء، ويتحرك في الشارع أمامي دون أن ينتبه إلى سيارتي، واريت جسدي سريعًا خشية أن يلتفت إلى السيارة فجأة، قبل أن أنزل منها وأتتبعه من بعيد، كان الأمر برمته غريبًا، أن يخرج من بيته في ذلك التوقيت رغم سوء الطقس، ثم يتخذ طريقًا يمتد من المنطقة السكنية نحو الأراضي الزراعية وينير مصباح رأسه ليضيء الظلام أمامه كأنّه أعدّ العدة لتلك المسيرة المريبة.

واصلت ملاحقتي له عن بعد رغم تعثري في حُفر المياه الضحلة التي سببتها الأمطار وتلطخ بنطالي وحذائي بالطين عن آخرهما، يساعدني في تعقبه نور المصباح الذي يحمله فوق رأسه، وبين حين وآخر كنت أنظر إلى شاشة هاتفي لعله التقط إرسالًا لكنّه لم يحدث.

لا أنكر الخوف الذي أصابني مع ابتعادي كثيرًا عن المنطقة السكنية وتكرار البرق والرعد أكثر من مرة، وتفكيري في الرجوع إلى سيارتي والعودة إلى الإسكندرية، وسُحقًا للذئب والحفريات جميعها، لكنّي عدلت عن ذلك التفكير عندما رأيته يتوقف فجأة في مكان ما ويبدأ حفر الأرض أسفل قدمه بجاروف صغير ليخرج منها جوالًا، كان الأمر في تلك اللحظة غريبًا جدًا بالنسبة لي، إن كان ذلك جوال الذئب، ما الذي يدفعه ليدفنه في الوحل بعيدًا، وما الذي يجبره على استخراجه في تلك الليلة بالذات. فكرتُ في الإطباق عليه في تلك اللحظة، لكني تريثت موقنة أنّ الوقت سيكشف لي إجابات أسئلتي.

تحرك بعد ذلك نحو بيتٍ كان يوجد أيضًا في المنطقة الزراعية بعيدًا عن بيوت القرية، وكلص محترف ألقى الجوال والحقيبة نحو الجهة الأخرى من سور ذلك البيت قبل أن يتسلقه، لم يكن لديَّ حل سوى أن أفعل مثلما فعل، وفي سلوك غريب مني تسلقت السور أنا الأخرى إلى جانبه الآخر، كان بيتًا مظلمًا بدا غير مأهولٍ بالسكان، أنرت مصباح هاتفي وتقدمت إليه وأنا أرتجف من الخوف الذي يعصف بي، ثم دلفت عبر بابه، فخشخش عقد الصدف الموصول بحلقات نحاسية الذي كنت أرتديه حول عنقي مع السكون القاتل في الداخل، فحررتُ مشبكه سريعًا وكوّمته ووضعته في جيب بنطالي، ثم نزلت على أطراف قدميَّ سُلَّمًا يؤدي إلى قبوٍ يصدر منه ضجيجٌ وبعض الهمهمات، وهناك وجدته يضع حقيبته وجواله ومصباحه المُضاء جانبًا، ويقف لاهثًا بجوار صخرة كبرى بدا أنَّه كان يحاول تحريكها عن موضعها في ذلك الأوان، لأقول له:

- هل تحتاج إلى مساعدة أيها الكاذب؟

التفَّ إليَّ مضطربًا، وقال في صدمة كبرى:

- أنتِ؟! ماذا جاء بكِ إلى هنا؟!

قلت:

- لا بد أنَّ القدر أرسلني لأعرف الجريمة التي تخطط لها.

ورفعت هاتفي لأعلى وقلت بثقة كاذبة وأنا أعرف أنَّه لا يحمل إرسالًا:

- والآن لنبلغ الشرطة لتحقق في أمر رجلٍ يذهب ليلًا إلى بيتٍ مهجور على أطراف قريته، ويعبر سوره، ومعه رفات ذئب قديمة استخرجها دون تصريحٍ من أحد قبور القرية.

نظر إليَّ مترقبًا، فضغطت رقمًا على شاشة الهاتف موحيةً له أنني أتصل بالنجدة، وفي داخلي أخشى أن يهاجمني ويكتشف أمرَ زيف مكالمتي، لكنه قال:

- أرجوكِ، لستُ لصًا ولا مجرمًا، إنّني أحاول إنقاذ ابني فحسب.

أدركت أنّ اللعبة خالت عليه، فأطلقت إيماءة ساخرة مما يقوله، فتابع:

- لقد أخرجت عظام الذئب من القبر حقًّا، لكنّها أصابت ابني بلعنةٍ جعلته مريضًا طوال الشهور الماضية، وعندما أحضرت روحانيًا إليه أكد أنه ممسوس بجن ما، وسبيل شفائه من ذلك المس هو إعادة تلك العظام إلى موطنها، لقد كنتِ محقّةً عندما فكرتِ في احتمالية مجيء ذلك الذئب قديمًا إلى بلدتنا من عالم آخر.

وصمتَ ثم أكمل:

- نعم، هناك عوالم أخرى تعيش أسفل هذه الصخرة، أو بمعنى أدق ما يوجد أسفل هذه الصخرة.

ضحكتِ ساخرةً، كنت أظنه محتالًا قبل تلك الدقائق، صار محتالًا ومجنونًا، وضغطت رقمًا آخر، فأردف مضطربًا:

- تظنين أنّني أكذب، لكنّها الحقيقة، إنه سر لا يعرف عنه الكثيرون، وجود تلك العوالم هو ما جعلني أخفي عليكِ عثوري على عظام الذئب رغم أنّني لن أستفيد شيئًا من وراء ذلك، لقد خشيت أن يُكتشف أمره في البلاد فيُضر أهلها.

مجيء الشرطة واعتقالي لن يفيدكِ في شيء، أرجوكِ دعيني أذهب بالعظام إلى السرداب الذي يوجد أسفل هذه الصخرة، وأضع الذئب فيه، وأعدكِ بأن...

وقبل أن يكمل جملته انطفأت شاشة هاتفي وهو يطلق صافرته المشيرة إلى نفاد بطاريته، توقعت أن يهاجمني حينها ويؤذيني، لكنّه لم يفعل شيئًا من ذلك، وأكمل حديثه هادئًا:

- واعدكِ بأن أترك لكِ عظام الذئب بعدما يُشفى ابني.

قلت:

- هل لي أن أراها الآن؟

قال:

- لا، لن تمسيها إلا بعدما أتيقن من زوال لعنتها عن ابني، وقتها تستطيعين أن تفعلي بها ما شئتِ، اتفقنا؟

ضممتُ شفتيَّ مفكرة، ثم أومأت له موافقة، بعدها تساءلت وأنا أنظر إلى الجزء الظاهر من الباب الحديدي المُغلق أسفل الصخرة:

- هل يوجد شيء خطير أسفل هذا الباب؟

قال:

- إنها قصة يطول شرحها، ونحن مُلزمون بالساعات المتبقية على زوال البدر، لكن على كل حال هناك نفق صغير سأعبره ثم سرداب سأضع فيه العظام وأعود.

قلت:

- سنعبره، وسنضع، لن تتركني وحدي هنا.

نظر في عينيَّ مفكرًا، ثم هزَّ رأسه إيجابًا وقال:

- حسنًا.

ثم تابع بعد برهة:

- لتساعديني إذن في تحريك هذه الصخرة.

❊❊❊

زحزحنا الصخرة معًا لنبعدها تمامًا عن الباب الحديدي الذي فتحه خالد فأصدر صريرًا صاخبًا، بعدئذٍ وجّه ضوء مصباحه إلى داخله، فدقّ قلبي عندما أبصرت سُلّمًا حديديًّا يهبط عموديًّا من ذلك الباب الصغير، فقال:

- إنّه نفق ضيق، الهواء فيه قليل، عليكِ أن تتبعيني بلا تلكؤ للخروج منه سريعًا إلى السرداب، وإلا سيصيبكِ الاختناق.

ترددت للحظة وأنا أنظر مجددًا إلى الأسفل، لكنّي هززت رأسي في النهاية موافقة، فأعطاني حقيبة ظهره، وقال:

- دعي هذه معكِ.

حملتها على ظهري، فهبط قبلي ماسكًا جوال العظام، وهبطت من ورائه، كما قال تمامًا كان حيز النفق ضيقًا للغاية تملؤه شباك العناكب، وقبل أن تمر دقيقة واحدة شعرت أنّ صدري يضيق من قلة الهواء، فكرت في العودة مجددًا إلى أعلى، لكنّه أمسك بمعصم يدي، وتقدم بي سريعًا نحو بابٍ خشبي صغير يقع على جانب النفق، ما إن عبرناه حتى ارتوت رئتاي بالهواء، لكنّه نطق مستاءً وهو يلهث:

- الغيوم!

تساءلت وأنا أنظر إلى الفراغ المظلم أمامنا:

- ماذا؟

قال:

- إنّ الغيوم الكثيفة تمنع البدر من إضاءة السرداب، إنّها المرة الأولى التي أراه بهذا الظلام.

ضحكت ساخرة:

- وكيف سيصل ضوء البدر إلى الأسفل هنا أيها المتحذلق؟

قال:

- لن تصدقي إلا إن رأيتِ الأمر بنفسك.

ثم تحرك بي لنهبط على مهلٍ سُلَّمًا طويلًا كان عدد درجاته وعمقه مخيفين جدًا لي، سألته وأنا أهبط بحذر:

- أهذه مقبرة فرعونية؟

قال:

- لا، إنَّه سرداب فوريك الذي بناه «فوريك» أثرى المماليك الذين عاشوا في قريتنا قبل قرون.

ضممتُ شفتيَّ مستغربة، كان ما يحدث مذهلًا بالنسبة لي خاصةً عندما وصلنا إلى قاع السلَّم، فحرك ضوء مصباحه في الظلام أمامنا لأجد ممرًّا طويلًا ترتفع جدرانه على الجانبين إلى عشرة أمتار تقريبًا، فتابع ونحن نتقدم في الظلام مسترشدين بمصباحه:

- عند خط معين في هذا الممر سيدفعكِ السرداب إلى طريق إجباري ينتهي بأرض أخرى يعيش فيها أناسٌ تختلف عيشتهم عن عيشتنا.

قلت مازحة وأنا مذبذبة بين التصديق وعدمه:

- ربما علينا خوض المغامرة الآن.

قال:

- لا، إنَّ تلك المدينة مُغلقة في هذا الوقت من العام، إنْ دفَعنا السرداب إلى هناك سنموت جوعًا أمام بوابتها الكبرى التي تُفتَح مرة واحدة في العام، وتلك المرة ستكون في اليوم الثاني عشر الذي يلي بدر الشهر القادم، هذا إن كانت حساباتي دقيقة ولم تُغيِّر قواعدها منذ زيارتي الأخيرة لها.

ثم بدأ يحرك ضوء مصباحه على الجدران يمينًا ويسارًا كي يريني النقوش المرسومة عليها، لأفتح فاهي من الانبهار، قبل أن يتحول ذلك الانبهار إلى قلقٍ ورعبٍ عندما تعثرت قدمي بشيء مُكوَّر أجوف تدحرج على إثر تعثري به، وحين وجَّه إليه خالد مصباحه وجدناه جمجمةً بشرية، فصرختُ، فقال في هدوء:

- لا تخافي، سيقابلنا الكثير منها.

فتقدمت وراءه رغم الفزع الذي أصابني كليًا، حتى توقف بنا بعد عشرين دقيقة من السير، وقال وهو يهمُّ بالجلوس:

- أعتقد أننا قطعنا مسافةً كافية داخل السرداب، أخشى ألا تنزاح الغيوم عن البدر فيضيع كل تعب هذه الليلة هباءً وأنتظر شهرًا آخر حائرًا في مرض ابني.

سألته وأنا أجلس بجواره عمَّا أصاب طفله، فحكى لي ما حدث له منذ الليلة التي أخرج فيها عظام الذئب، وما رآه من رؤى عبر ملامسة جبينه، واختتم حديثه وهو يخرج العظام من الجوال ليضعها بجوارنا:

- إنها محاولة إن لم تنجح سأضطر للذهاب إلى بلاد ما وراء هذا السرداب منتصف الشهر القادم.

ثم وجدته يخرج من حقيبته كمامة كلب جلدية تتصل بحبل طويل، ويثبتها بإحكام على مقدمة جمجمة الذئب التي أدركت من رؤيتي الأولى لها أنها لذئب رهيب، ويقول:

- علينا أن نتوقع أي شيء.

مددت يدي منبهرة كي أمسك بالجمجمة، فأزاحها بعيدًا عن يدي، وقال:

- كما اتفقنا، بعد شفاء ابني.

فأومأتُ برأسي إيجابًا، فأسند رأسه إلى الحائط، وتابع:

- سنبقى حتى طلوع النهار لعلَّ البدر يظهر في لحظةٍ ما.

ثم بدأ يحكي لي ما حدث له في زيارته الأولى والثانية إلى أرض زيكولا، وكلما تعجبت من شيء في غير تصديق قال نفس الجملة:

- عندما ينير البدر السرداب سيبدأ عقلك في تصديق ما أقوله.

أسرعت تلك القصص من مرور الوقت، حتى أنَّ الساعة وصلت الثالثة صباحًا دون أن نشعر، وقتئذٍ وضع خالد عظام الذئب في الجوال مرة أخرى، ونهضنا لنتحرك أعمق في السرداب، أمسكت أنا بالمصباح تلك المرة وحركته

في كل جانب، ليتواصل انبهاري الشديد بكل تفصيلة من تفاصيل بنائه، ولن يبقى عقلي غير مصدق لجزء كبير مما رواه لي خالد قبل قليل، توقفنا للمرة الثانية قُبيل صورة رجلٍ منقوشة على جدار السرداب، قال خالد إنَّها الحد الذي لا يجب أن نعبره، بل أصرَّ على الرجوع أمتارًا إلى الخلف، حدَّقت إلى تفاصيل الصورة من بعيد وهو يقول:

- إنَّها صورة فوريك، الرجل الذي شيَّد هذا السرداب، من بعدما تهتز الأرض وتنهار الجدران من خلفك لتدفعك إلى عالم زيكولا.

كان قد حكى لي ذلك الجزء تفصيلًا بين حكاياته، فوافقته رغم عدم اقتناعي الكامل، وعدت لأجلس بجواره بينما كان يخرج عظام الذئب إلى أرض السرداب مرة أخرى. ثم سألته:

- متى يطلع النهار؟

قال بعدما نظر إلى ساعة هاتفه:

- بعد ساعة وأربعين دقيقة.

أخرجت زفيري وقلت:

- إن مرَّت الليلة دون ظهور البدر، سأستعير منك جمجمة الذئب وعظمة فخذٍ واحدة، وأترك لك باقي العظام، وأعدك بأنَّني سأعيدها لك قبل بدر الشهر القادم.

وتابعتُ عندما لم يعطني جوابًا:

- أقسم لك أن يبقى هذا الأمر سرًّا بيننا، سأجري بعض الفحوصات عليها بمفردي بدون أن أريها لأحد، وسأعيدها لك في أسرع وقت، وليلة البدر القادم سآتي لنزول السرداب معك أيضًا، لقد أحببته.

قال بصوت هادئ:

- ربما يصيبكِ المكروه الذي أصاب ابني.

قلت:

- طالما لم يصبكَ شيء أنت وزوجتك فهناك فرصة ألا يصيبني أنا الأخرى.

ثم نظرت إليه، بدا أنَّه وافق مبدئيًا على طلبي، وإن بقي حزنه بعدم ظهور البدر واضحًا جدًّا عليه، إذ واصل صمته وشروده وهو يسند رأسه إلى الجدار. فسكتُّ أنا الأخرى، وأخذت أفكر في توابع إثباتي انتماء ذلك الذئب إلى النثار الرهيبة، لأغمض عيني وأرى نفسي في قاعةٍ كبرى بأعرقِ جامعات العالم أتحدث عن اكتشافي العظيم، بينما ينظر الحاضرون إلى عارض شاشتي بانبهار كبير، قبل أن يصفقوا لي تصفيقًا شديدًا، هزَّ معه أرجاء تلك القاعة. بيد أنَّ ما هزَّني حقًّا هو خالد الذي كان يمسك بذراعي، ويصيح لي فرحًا:

- إنَّ الضوء يتسلل إلى السرداب.

فتحت عينيَّ لأجد ما لم أتوقعه قط، إذ بدأت إضاءة السرداب تزداد رويدًا رويدًا لتتضح معها الرؤية تمامًا وكأنَّ أحدهم أتى بمصابيح عملاقة وأنارها لتكشف السرداب وتفاصيله بالكامل، دقَّ قلبي خوفًا، كنَّا على وشك الخروج، والآن أُضيءَ السرداب بنور البدر، ما كان يعني صدق حكايات خالد التي رواها لي قبل قليل، نظرت بطرف عيني إلى عظام الذئب المُبعثرة على الأرض، وإلى خالد الذي وقف ليمسك في ترقبٍ طرف الحبل المرتخي الواصل بكمامة الجمجمة، وإلى صورة فوريك التي ظهرت بوضوح مع اشتداد الضوء في السرداب، وإلى امتداد السرداب بعدها، ثم وقفتُ بجوار خالد وحدَّقتُ إلى العظام في ترقبٍ أنا الأخرى.

خلال الدقائق الأولى لم يحدث أي شيء، نظرت إلى خالد مجددًا، كان لا يزال محملقًا في العظام دون أن يحرك عينيه عنها، أدركت في تلك اللحظة أنَّه لن يسمح لي بالمغادرة بالجمجمة أو أي عظمة أخرى تحت أي ظرف. قلت بعد دقائق أخرى وأنا أنظر إلى العظام:

- لم يحدث لها شيء.

قال:

- ربما عليَّ أن أزيل هذه الكمامة.

ونزل على ركبتيه كي يزيلها، لكنَّه سحب يده سريعًا وعاد مبتعدًا وهو يشير بسبابته إلى عظمة لوح الكتف، ويقول:

- لقد تحركت هذه العظمة.

فقلت:

- إنها ثابتة، لا تدع التهيؤات تنلْ منك.

لكنّي ابتلعت لساني من المفاجأة عندما لاحظت أنا الأخرى عظمة الفخذ تتحرك من مكانها في اتجاه معين كأنَّ سربًا من النمل يحركها، فصرخ إليَّ:

- أرأيت؟!

انتفضت دقات قلبي، وتسارعت أنفاسي في حين بدأت باقي العظام تتحرك لتتقارب من بعضها وتتراصّ متتابعة في هيئة هيكل عظمي للذئب، قبل أن تلتصق ببعضها وكأنَّ مغناطيسًا ما يتموضع عند نهاية كل عظمة، نهمست إلى خالد في رعب:

- إنَّ هذا الذئب مسكون، علينا أن نغادر.

قال بنبرة لا تخلو من الخوف:

- نعم، حان الوقت لنغادر.

وهبط بحذر ليلتقط حقيبته، لكنَّه ما إن أمسكها بيده حتى صرختُ رعبًا إذ نهض هيكل الذئب على قوائمه الأربعة فجأة، قبل أن يلتفت بجمجمته في جميع الاتجاهات كأنَّه يتفقد المكان من حوله، حتى ثبَّت محجرى عينيه نحو صورة فوريك وكأنَّه وجد ضالته فيها، همست إلى خالد وأنا أموت رعبًا:

- علينا أن نخرج.

لكنَّ الأوان قد فات، إذ اهتزت الأرض أسفل أقدامنا بقوة، ووجدنا جدران السرداب التي عبرناها قبل قليل تبدأ في انهيارها مندفعة نحونا، ليركض هيكل الذئب، ومن ورائه خالد يمسك بحبل كمامته في يده اليمنى وبحقيبته في يده اليسرى، وأنا من خلفهما بأقصى سرعة لي، يدفعنا الحطام نحو طريق مستقيم طويل لا طريقين متفرعين مثلما ادَّعى خالد في قصصه، صرخت إليه وأنا أركض:

- ألم تقل إنَّ الطريق يتفرع إلى فرعين؟!

قال وهو يحاول اللحاق بهيكل الذئب بأقصى سرعته:

- إنّه يقودنا إلى طريقٍ جديد لم أخضه من قبل.

ولم يكد يكمل جملته حتى ظهرت في الأفق أمامنا دائرةٌ كبرى من الضوء الأبيض الشديد جعلتنا نغمض أعيننا من شدة الضوء والحرارة المنبعثين منها، كنا نتقدم نحوها بينما تواصل الجدران انهيارها خلفنا مباشرةً، صرخت إلى خالد مرتعبةً:

- ماذا نفعل؟

قال وهو يركض نحو تلك الدائرة:

- اتبعيني.

لأندفع وراءه ووراء هيكل الذئب، وأقفز إلى داخلها.

15

نوح

قلت لأبويْ ناي:

- لن أعطيها بالقار مثلما تريدان، ولن أدع جسدها يتحلل، إنّني أستطيع الحفاظ على جسدها حتى يظهر الشاهد من جديد أو أموت، أيهما أولًا.

قالت خالتي ريحانة:

- حتى وإن استطعت، لن يفيد ذلك في شيء يا بني.

قلت مصممًا:

- لا أعرف ماذا سيحدث مستقبلًا، ولا أعرف متى قد يظهر الشاهد، لكن حتى تأتي تلك اللحظة سأحافظ على جسد ناي من التحلل إن لم تكن قد حظيت بمزية الاحتفاظ به لعشرة أعوام مثل الملدبين الأنقياء، وسأعمل على إيجاد طريقة لإصلاح نسيج قلبها قبل نهوضها.

قال العم بهلول متذمرًا:

- لا تعبث معنا يا فتى، اتركنا وشأننا.

قلت:

- إنّني لم أحب في حياتي مثلما أحببت ابنتكما، وإن كانت هناك ذرة أمل لعودتها إلى الحياة فلن أتخلى عنها أبدًا، أرجوكما دعا لي هذه الفرصة.

هزّت زوجته رأسها نفيًا، وقالت:

- لا يا نوح، لقد قُضي الأمر، عُد إلى بيتك.

قلت بنبرة أعلى:

- لن أبرح هذا المكان إلا ومعي ناي.

صرخ فيّ العم بهلول:

- ارحل من هنا، لقد ماتت ناي، وليس لدينا طاقة نضيعها في ترهاتك.

وغمغم باكيًا مؤنبًا نفسه:

- كان لا بد أن نبتعد أكثر في الغابة يوم قررنا ترك القرية، وكان عليّ أن أمنع زياراتك وزيارات أمك إلينا كي نقطع كل صلة بمن يعرفون بأمرها.

لذتُ بصمتي لبعض الوقت مُفكرًا، ثم قلت متراجعًا مع الإصرار الذي وجدته في أعينهما من رفض ما عزمتُ عليه:

- حسنًا، أستطيع مساعدتكما في حفر القبر، لكنّي لا أستطيع العودة إلى القرية من أجل إحضار القار، لقد قتلت أحد الجنود الذين تسببوا في قتل ناي، وسأعتقَل إن عدتُ إلى هناك.

حينذاك قالت خالتي ريحانة:

- اذهب يا بهلول وأحضر أنتَ برميل القار من القرية، أما أنتَ يا نوح فاحفر قبرًا في الفناء الخلفي للبيت واجعله عميقًا على قدر المستطاع.

هززتُ رأسي إيجابًا، وأومأ زوجها إيجابًا كذلك.

***

كان الليل قد أسدل ظلامه عندما أحضرتُ جاروفًا وفأسًا ومصباحًا زيتيًا وأخذت أحفر الأرض الرطبة على بُعد خمسة عشر قدمًا من باب البيت الخلفي، بينما جهّز العم بهلول عربته ذات الحصان، وثبّت مصباحًا مُضاءً في مقدمتها، وتحرك بها في ناحية القرية واهنًا مطأطئ الرأس منتفخ الأجفان من كثرة البكاء، في حين بقيت الخالة ريحانة بجوار جثة ناي في الفناء الأمامي للبيت تنظف جسدها بالماء وتلبسها فستانًا سماويًا نظيفًا، وتصفف

شعرها، وتزينها بحُلي ذهبي أظن أنَّها اشترته قديمًا عندما باعت بيت القرية وحفظتها من أجل هذا اليوم، إذ اعتادَ قومنا دفن موتاهم مع أثمن ما لديهم. بين حينٍ وآخر كنتُ أتوقف عن الحفر وأتطلع إلى القمر في السماء، أنا الذي لم أتمنَّ يومًا صدق نبوءة حائط الرؤى صرتُ في لحظة أتمنى ظهور الشاهد في الحال حتى وإن أعادَ كل الذئاب القديمة وطاردوا أناس بلدنا. فكرتُ في أنَّ بشر هذا الزمان لم يقترفوا جرمًا بقتل الذئاب، إذ فات على ذلك التاريخ أكثر من تسعة عقود، ولم يعد أحد ممن شاركوا في تلك الحرب على قيد الحياة، كما أنَّ الحكايات القديمة كانت تروي أنَّ أجدادنا لم يفعلوا ذلك إلا دفاعًا عن أنفسهم بعد تمرد الذئاب وقتلها الآلاف منهم، ثم فكرتُ في حديث خالتي ريحانة المتعلق بنصف النبوءة غير المعلن وخوفها من نهوض ناي لتصبح جثة متحركة، وسألتُ نفسي: ماذا إن فعلنا ما أرادته وغطينا القبر بالقار، وجاء يومٌ وظهر الشاهد ولسبب ما أُزيل ذلك القار عن القبر، بقصد أو دون قصد، نعرف أنَّ ضوء الشاهد يخترق التربة الطينية والرمال لذا استُخدمت طبقات القار، فماذا لو حدث ذلك الافتراض، أليسَ أمرًا واردًا؟

- بلى، لا يوجد شيء مؤكد في هذه الحياة.

أجبتُ نفسي، وأنا أضرب الفأس بقوة وأتحسر على رفض السيد بهلول وزوجته طلبي متذكرًا أحد العمال الذين عملوا معي منذ عامين وهو يخبرني أنَّه كان يعمل غرب الغابة في صناعة الثلج الذي تعتمد عليه حانات القرى هناك، وكيف كانوا يحضرونه كُتلًا من قمم جبال الغرب ليخزنوه في هياكل مخروطية حوائطها مصنوعة من الطين والرمال وشعر الماعز بنسبٍ معينة، يُسمى الواحد منها «ياخشال»، تستطيع تلك الياخشالات حفظ الثلوج في داخلها لأسابيع حتى في أشد المناطق حرارة، أستطيع فعل الأمر نفسه مع ناي، أستطيع أن أبني ياخشالًا يحفظ برودة الهواء من حولها، وأستطيع أن آتي إليها كل يوم بثلج من قمم الجبال لحفظ جسدها إن اقتضى الأمر، وضربت فأسي في التربة أمامي وأنا أحدث نفسي غاضبًا:

- إنَّ هذا الطين سيأكل جسدها.

وضربتُ مرة أخرى وقلت آسفًا:

- إنَّ أباها وأمها يحبانها حقًّا، لكنَّهما يقتلانها إلى غير رجعة بوضعها في هذا القبر.

ثم غرست الجاروف بقوة أكبر، وقلت:

- لو كانت على قيد الحياة وخُيِّرَتْ فيما يصير لها بعد موتها، لاختارت أن أحفظ جسدها حتى يتسنى لنا اللقاء مرة أخرى.

ثم زفرت بقوة ونظرت إلى الحفرة المستطيلة التي كنت أقف على عمق قدمين في منتصفها، وألقيت الفأس والجاروف جانبًا، ثم نظرت إلى حصاني الذي كان يرعى في حشائش الفناء على بعد خطوات مني، وهمست لنفسي:

- لن أدعها ترقد في هذا التراب وهناك ذرة أمل بعودتها إلى الحياة من جديد، لن أخذلها مرة أخرى.

ثم خرجت من القبر المحفور وحملت مصباحي متجهًا إلى حصاني، وقفزت إلى صهوته ونكزته، ليركض ملتفًا حول البيت، كانت خالتي ريحانة جالسةً واضعةً رأسها بين كفيها بجوار ناي، صحتُ في حصاني، فالتفتت لي خائفة ومندهشة وأنا أنطلق كالسهم نحوها، وقبل أن تطلق صرختها كنت قد انحنيت بجذعي والتقطت جثة ابنتها من الأرض ووضعتها أمامي، لأهرب بها إلى أعماق الغابة بأقصى سرعة لحصاني.

***

كانت القرى جنوب غرب الغابة تُعرف بزحامها وتحضرها دونًا عن غيرها من القرى، لكنِّي خشيتُ أن يعثر عليَّ العم بهلول هناك، لذا آثرتُ المضي قدمًا نحو الشمال الغربي البعيد، وبعد فترتَي استراحة واتخاذ أكثر من طريق مهجور داخل الغابة وضلال طريقي لثلاث مرات وصلتُ وجهتي أخيرًا مع طلوع النهار، وهناك تحاشيت القرى المُطلة على الغابة، واتخذت الطريق الصخري الملتف حولها والمؤدي إلى جبال الغرب وهي أكبر سلسلة جبلية في وادينا، ويُقال إنَّها تحتوي بين تشعباتها وأنفاقها أربعةً من عابرات بلادنا

الست، والتي لم يرها أيٌّ من جيلنا، لأواصل تقدمي بالحصان بسرعةٍ أخف بعض الشيء مع أرض الطريق الوعرة الصاعدة إلى أعلى والهواء البارد الشديد الذي كان يقاوم تقدمنا.

قابلني أكثر من رجل مترجلين، فأوحيت لبعضهم بأنّ ناي نائمة، ولآخرين بأنها ثملة، فلم يعبؤوا بأمرنا، لم أكن أعرف إلى أين أذهب تحديدًا، كل ما كنت أبحث عنه هو مكان آمن أضع فيه ناي حتى أتدبر أمر ذلك الباخشال، ثم ظهرت في الأفق أمامي بعيدًا قمة جبلية بيضاء يغطيها الثلج، فصحتُ في الحصان كي يسرع من خطاه، لنمضي قدمًا، حتى توقفنا رغمًا عنّا عندما انتهى الطريق أمامنا فجأة بأخدودٍ واسع عميق عمود الجرفين كان يستحيل على الحصان عبوره، حينذاك نزلت عن صهوته باحثًا عن أي فرع آخر للطريق، فلم أجد، لكنّي انتبهت إلى وجود سلم عمودي من الأحبال السميكة على بعد أقدام مني، وسلم آخر في الناحية الأخرى، كان ذلك يعني أنها النقطة الأخيرة التي يتوقف عندها الحصان عن مساعدتنا إن أردت إكمال طريقنا.

عقلت الحصان جانبًا في نتوءٍ صخري، وحملت ناي على كتفي وبحذرٍ شديد وألمٍ أشد صدرَ من فخذي المصابة هبطتُ سلم الأحبال إلى أرضية الأخدود، وعبرتها نحو الجرف الآخر حيث بدأت أصعد درجات سلمه بشق الأنفس حتى أنّني كدتُ أسقط على ظهري وأسقط ناي معي لولا أنّ أطراف أصابعي تشبثت بالحبل في اللحظة الأخيرة، لأتمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى، وقتئذٍ وضعتُ ناي على الأرض، وارتميت بجوارها ممسكًا بفخذي المصابة وأنا أصرُّ بأسناني من شدة الألم، ثم نهضت أستكشف الطريق الذي أتخذه من بين ثلاثة طرقٍ ظهرت أمامي بين الجبال، وبعد حيرة اتخذت الطريق الأيمن منها، إذ كانت أرضه القريبة الأكثر استواءً.

❊❊❊

بعد قطعي قُرابة فرسخٍ حاملًا ناي أبصرتُ في سفح جبل جانبي كهفًا صغيرًا يرتفع خمسة عشر قدمًا عن مستوى بصري، ويهبط منه منحدر رملي ضيق إلى جانب الطريق، فانحرفت إليه وصعدت منحدره، ثم أنزلت ناي برفق

عند بابه لأتفحصه أولًا، كان كهفًا صغيرًا لا تتجاوز مساحته دائرة قطرها ستة أقدام، يضرب الهواء البارد جدرانه الداخلية بقوة فطبّعَ برودته عليها وعلى أرضيته، تأكدت من خلوه من أي خطر، ثم أدخلت ناي إليه برفق، واستلقيت بظهري بجوارها كي أستريح لبعض الوقت، لأغمض عينيّ لا إراديًا مع إرهاقي الشديد، لكني سرعان ما تذكرت الحصان العالق على ضفة الأخدود، فنهضت وعزمت على العودة إليه، وقبل أن أترك ناي أزلت حليها الذي زينتها به أمها أثناء حفري قبرها؛ عقدًا ذهبيًا وقرطين، ودسستهما في جُحر قريب من الكهف خشية مرور أي ضالٍ يكتشف وجودها ويبحث عن أي غنيمة معها، ثم ساويتُ بيدي موضع أقدامي المنطبعة على رمال منحدر الكهف، وعدت مهرولًا بساقي العارجة إلى الحصان، كان في نفس الموضع الذي تركته فيه، امتطيته وهبطت إلى أقرب قرية للطريق، وهناك حدجني الناس بنظراتهم المستغربة إذ كنت لا أزال عاري الصدر بنطالي ممزق وملطخ بالدماء، واصلتُ طريقي مطمئنًا نوعًا ما دون أن أخشى اعتقال الجنود لي إثرَ قتلي لأبي، فبالإضافة إلى عدم معرفة أحد لشخصي كانت تلك القرى تخضع لسيطرة جنود واديا القدامى لا جنود «تيبيانا» الذين يسيطرون على أمن الجانب الآخر من الغابة، ولا يخفَى على أحد القطيعة بين هاتين الفئتين، ثم سألتُ أحد المارّة:

- أين حانة القرية؟

انزعجَ من هيئتي، فقلت:

- إنّه حادث عارض، أرجوك أريد أقرب حانة هنا.

دلّني على حانة قريبة، توجهت إليها مباشرة، كانت امرأة ثلاثينية ذات شعر بني طويل مموج وعينين رماديتين تقف خلف طاولة تقديم الشراب شعرت أنّها اضطربت هي الأخرى من هيئتي خاصةً مع خواء الحانة من الزبائن في ذلك الوقت، فقلت:

- أرجوكِ، أريدكِ أن تدليني على من يبيع لكِ الثلج.

زالت حمرة الاضطراب سريعًا عن وجهها الأبيض المستدير، وقالت وهي تنظر إلى ساقي:

- هل هي إصابة شديدة؟

هززتُ رأسي إيجابًا، وكررتُ سؤالي عن بائع الثلج، فقالت:

- سيأتي في المساء، إنّه يحضر ثلجه من قرية بعيدة في الجنوب.

ثم تابعت وهي تنظف كوبًا بقطعة قماشية:

- هناك طبيب في القرية الواقعة جنوبنا، عليكَ أن تذهب إليه في الحال وإلا سيتمكن القيح من جرحك وقد تُبتَر، لقد رأيت ذلك المصير مع كثيرٍ من المهملين في إصاباتهم.

قلت:

- ليس لديَّ نقود، شكرًا على كل حال.

وهممتُ بالمغادرة، فقالت:

- لتترك له حصانك إذا استلزم الأمر.

شكرتها مجددًا، ثم خرجت دون أن أكترث لحديثها عن الطبيب، لكنّي سرعان ما فكرت في صحة حديثها، فإن تلوث جرحي وأدّى إلى بتر ساقي، نسيُفشِل ذلك كل ما جئت ساعيًا إليه، لن أستطيع إنقاذ ناي بساق واحدة. نضممتُ شفتيَّ ثم عدت إليها مرة أخرى وسألتها:

- ما اسم الطبيب سيدتي؟

فأجابتني:

- اسمه السيد «رسلان»، إنّه أشهر شخص في القرية الأولى التي تقع جنوبنا.

أومأت برأسي إيجابًا ثم التففت كي أغادر، فقالتْ:

- انتظر.

ثم دلفتْ إلى غرفة وراءها وعادت بعد قليل وفي يدها قميص وبنطال نظيفان، وقالت:

- يمكنكَ أخذهما.

قلت باسمًا:

- ليس لديَّ نقود كما أخبرتكِ.

قالت:

- ربما يكون لديكَ بحلول المساء عندما تأتي لمقابلة بائع الثلج، حتى وإن لم تمتلك لا يهمك على أي حال، إنَّهما ليسا جديدين، أتمنى فقط أن يكون مقاسهما مناسبًا.

ثم أردفت وهي تشير بيدها نحو باب في أحد أركان الحانة:

- وهناك مرحاض خلف ذلك الباب فيه وعاء ممتلئ بماء نظيف، نظف جسدك من آثار الدماء.

سألتها باسمًا:

- ما اسمكِ سيدتي؟

قالت:

- سارة.

أومأتُ ممتنًا لها ولكرمها، وبعدما نظفتُ جسدي في المرحاض ولبست تلك الثياب شكرتها مرة أخرى ووعدتها بدفع ثمنها في أقرب وقت أمتلك فيه المال، فهزَّت رأسها موافقة، ثم شرحت لي الطريق إلى القرية الجنوبية التي يوجد فيها ذلك الطبيب.

❊❊❊

عندما وصلت تلك القرية لم آخذ وقتًا لأستدل على بيت الطبيب «رسلان»، إذ أشارَ أحدهم عندما سألته عن مكانه إلى زحامٍ شديد أمام بيت خشبي هرمي السقف، وقال:

- هناك.

كان الوقت حينها قد تجاوز منتصف النهار بقليل، هبطت عن حصاني ووقفت أمام العيادة بين المتزاحمين من الرجال والنساء والأطفال دون أن

أعرف ما إن كان ذلك الطبيب هو الوحيد في تلك الأنحاء أم أنّه ماهر للدرجة التي جعلت كل أولئك الناس ينتظرون ساعات للقائه من دون أن يبدو على وجوههم أي شعور بالتذمر.

قبيل غروب الشمس جاء دوري أخيرًا، دلفت عبر باب العيادة إلى ردهة واسعة توجد في جانبها مكتبة كبرى صُفَّت على رفوفها كتب سميكة كثيرة، وعلى الجانب الآخر رُصّت أوانٍ صغيرة وآلات معدنية مختلفة الأشكال والأحجام فوق طاولاتٍ خشبية قصيرة الأرجل، وفي نهاية الردهة كان يجلس هو خلف طاولة مُثبّت فوقها مصباح زيتي مُضاء ويقف بجواره مساعد شاب، كما توقعت؛ عمره ستون عامًا أو أكثر، شعره أشيب قصير خفيف عند مقدمة رأسه، حليق الشارب واللحية، عيناه خضراوان فاتحتان، وجسده ممتلئ بعض الشيء لكنّه ليس سمينًا إلى الدرجة التي تلفت انتباهك. قلتُ له وأنا أشعر بارتياح من هيئته الطيبة:

- لقد أُصبتُ في فخذي بالأمس، طعنها أحد الجنود بسيفه، وأخاف أن يتمكن القيح منها، لا أمتلك مالًا، لكن لديّ حصان في الخارج عندما أبيعه سأعطيكَ ما تريده من مقابل.

نهض من مقعده وهو يشير إلى سرير جانبي ذي حَشية جلدية، فرقدت عليه وخلعت بنطالي، فأخذ يفحص فخذي وأسفل قدمي بعناية شديدة دون أن ينطق بشيء حتى عندما دسّ إصبعه في جرحي وهو ينظفه بسائل لا أعرفه وصرخت من شدة الألم أكمل عمله وكأنّ شيئًا لم يحدث، ثم انتهى فضمَّد فخذي بقماش نظيف، وسألني:

- كم عمرك؟

قلت:

- عشرون عامًا سيدي.

قال:

- إنَّكَ محظوظ، ضربة مثل هذه كان من المفترض أن تقطع أحد شرايين فخذك الرئيسية، لكنَّكَ نجوت، تحتاج فقط إلى تغيير هذه الضمادة كل يومين، وسأعطيك بعض الأعشاب كي تتناولها كل مساء حتى التئام الجرح تمامًا.

وأشارَ إلى مساعده، فأعطاني زجاجة من الأعشاب المُسالَة كان قد جهزها بالفعل وسيده يحدثني.

فقلت مؤكدًا في حرج:

- بعد أن أبيع الحصان سأدفع لك ثمن هذا سيدي.

هزَّ رأسه إيجابًا من غير أن ينطق، ثم أشار إلى المساعد كي يحضر مريضًا آخر، فخرجت عائدًا إلى القرية الأولى آملًا في اللحاق بمن يبيع الثلج إلى الحانة.

***

كانت الحانة صاخبة ومكتظة بالزبائن عندما عدت إليها، قلت للسيدة سارة التي كانت تقف مكانها وراء طاولة الأكواب مثلما قابلتها في الظهيرة:

- هل جاء الرجل؟

قالت وهي تملأ كوبًا بشراب من زجاجة نصف ممتلئة، وتناوله إلى نادل يقف منتظرًا بصحفته:

- أعتقد أنَّه على وشك الوصول.

سألتها وأنا أنظر إلى الزبائن الجالسين على الطاولات:

- هل تعرفين أحدًا قد يُبدل حصاني ببغلٍ أو حمارٍ ويدفع لي فارقًا جيدًا من المال؟

قالت:

- هل ذهبتَ إلى السيد «رسلان»؟

أجبتها:

- نعم.

أردفت:

- ومتى ستعود إليه؟

قلت:

- بعد يومين، سأذهب إليه من أجل تغيير الضمادة.

قالت:

- إذن مُرّ عليَّ قبل أن تذهب إليه أكون قد دبرت لكَ أمر استبدال الحصان.

وتابعت وهي تشير إلى مقعد شاغر:

- سيقدم لكَ «سُلاف» النادل عشاءً، سأخصم ثمنه منك عندما تحصل على مال حصانك، اجلس هناك وعندما يأتي «همَّام» بائع الثلج سأناديك.

تعجبتُ كرمها للمرة الثانية، وجلست على المقعد الذي أشارت إليه أفكر في ناي التي تركتها في الكهف.

قدَّم لي النادل طبقًا كبيرًا به ثلاث كعكات محشوة بالتمر، فأكلت واحدة، ودسستُ الباقيتين في جيبي عندما نادت لي السيدة سارة وهي تتحدث مع رجل كان القش يلتصق بثوبه وشعره المبللين، ونهضت إليهما سريعًا، فقال وهو يتفحص وجهي:

- قالت السيدة إنَّكَ تنتظرني منذ الظهيرة.

قلت:

- نعم سيدي.

قال:

- كم لوحًا تريد من الثلج؟

أجبته:

- لا أريد ثلجًا، أريد فقط زيارة المكان الذي تحفظ فيه ثلجك، لقد سمعت عن الياخشالات وأريد أن أراها.

نظرَ إلى السيدة سارة كأنَّها خيَّبت أمله في بيعة كان يأملها، ونظرت لي هي الأخرى متعجبة، فقلت:

- أرجوك، إنَّني أريد بناء ياخشالٍ من أجل حفظ شيءٍ ما، وأستطيع العمل معك دون مقابل، سأساعدك في توزيع الثلوج على الحانات، لقد نشأت قويًا وبمجرد أن يلتئم جرح ساقي ستجدني خير مساعد لك.

قال:

- لستُ إلَّا عاملًا عند صاحب العمل، ولدينا من العمال ما يكفي لكن إن أردتَ رؤية الياخشال فإنَّه ليس سرًّا، يمكنكَ المجيء معي، لقد أوصتني السيدة سارة بك، وهذه السيدة نحبها هنا، ولا نرفض لها أو لأبيها طلبًا، فقط عليكَ الانتظار حتى أنتهي من توزيع ألواح الثلج على باقي الحانات، وسأعود لآخذك معي، إنَّ الياخشالات تقع على بعد عشرين ميلًا جنوبًا.

هززتُ رأسي موافقًا في فرحة، وشكرتُ السيدة سارة من جديد، حقًّا في سعيكَ نحو المجهول يُسخِّر لكَ القدر أناسًا لا تعرفهم يذللون لكَ عقبات الطريق، وسارة واحدة منهم.

ركبت مع همَّام عربته وعقلْت حصاني في مؤخرتها، وتحركنا نحو الجنوب ترتعش أجسادنا من البرد القارس في ذلك الوقت، بعد قُرابة ساعتين وصلنا إلى منطقة طرفية في الجنوب تنتصب فيها سبعة أبراج مخروطية يناهز ارتفاع الواحد منها ثلاثين قدمًا على أقل تقدير، ورغم ظهورها أسفل ضوء القمر كان من الصعب عليَّ معاينتها ليلًا، فآثرت الانتظار حتى طلوع النهار كي أفحصها جيدًا، وحينذاك فارقني همَّام عائدًا إلى بيته.

مع شروق الشمس صهل حصاني بجواري، ففتحتُ عينيَّ متكاسلًا فوجدتني مستلقٍ على الأرض بعدما غلبني النعاس، وثلاثة صبية يقفون بجواري ويحدقون إليَّ غاضبين، تساءلتُ وأنا أنهض من رقدتي:

- ماذا بكم؟!

قال أوسطهم طولًا متذمرًا:

- إنك تعيق طريقنا أنتَ وحصانك.

وأشارا إلى عربة ذات حصان تقف على بُعد خطوات منّي يوجد في صندوقها انبعاج يغطيه غطاء كبير من جلد الماشية، أدركتُ أنّها عربة الثلج القادم من قمم الجبال، فيما فُتح على الجانب الآخر مني باب أقرب الياخشالات لي، اعتذرت لهم، ثم ابتعدت أنا وحصاني عن طريقهم، وسرتُ وراءهم مباشرة إلى داخل الياخشال هابطًا سلمه الداخلي، كانت أرضيته المستديرة منخفضة عن مستوى الأرض في الخارج قرابة خمسة أو ستة أقدام، وواسعة لتحتوي أربعة صناديق خشبية ضخمة يتدلى من كل واحد منها سلم عمودي من الخيرزان، صعدها الصبية تباعًا وهم يحملون على أكتافهم مكعبات كبرى من الثلج ملفوفة بالقش والخيش وجلود الحيوانات ليضعوها في داخلها، نظرت إلى هيكل الياخشال الداخلي وجدرانه التي كانت تضيق كلما ارتفعت إلى الأعلى لتنتهي بفتحة دائرية في القمة تظهر عبرها السماء، وسألت أحد الصبية وأنا منبهر ببرودة الجو من حولي:

- إلى متى تستمر صلابة الثلج قبل أن يذوب؟

قال:

- أسبوعان على الأكثر.

هززتُ رأسي إيجابًا في سعادة، ثم مرّرتُ يدي على جدار الياخشال البارد مستكشفًا بنيته، ثم طرقته برفق بقبضة يدي، كما قال صاحبي قديمًا، كان مصنوعًا من الرمال والطين وشعر الماعز، حاولت تبين إن كان هناك مكون آخر غير تلك العناصر، بيد أنّ صوتًا أجش نطقَ فجأة من خلفي:

- ماذا تفعل أيها الشاب؟

التفتُّ، كان رجلًا خمسينيًا ممتلئ الوجه ثيابه نظيفة ورائحته عطرة، أدركت أنّه صاحب تلك الياخشالات، وبجواره وقف رجل آخر بدا أنّه أقل شأنًا، قلت:

- لقد جئت طالبًا للمساعدة سيدي، إنَّني أريد بناء ياخشال.

ضحكَ هو والرجل الآخر ساخرين، فقلت باقتضاب:

- إنَّني جاد في هذا.

سألني:

- من أي بلد جئت؟

قلت:

- من قرية تقع في الشمال، إنَّني قريب السيدة «سارة» مالكة الحانة التي تشتري ثلجكم.

لا أعرف لماذا كذبت تلك الكذبة، لكنِّي أكملت كاذبًا:

- إنَّني صياد بري، وأريد بناء ياخشال كهذا لأحفظ فيه لحوم صيدي أطول فترة ممكنة.

فكر ثم تساءل:

- هل لديكَ مال؟ إنَّ بناء الياخشال مكلف للغاية.

قلت في حماسة شديدة:

- سأعطيكَ حصاني مقابل المؤن وأجر بنَّاء واحد. .

ضحك وقال:

- لستُ أنا من يبنيه، ثم إنَّ حصانكَ هذا يكفي لبناء قدمين على الأكثر من هذه الجدران، إنَّ بنَّائيه نادرون.

قلت:

- لا أريد كل هذا الارتفاع، أريد ارتفاعًا يكفي لتبريد صندوق واحد صغير فحسب.

قال بنبرة هادئة:

- سيُكلفك الكثير أيضًا، والارتفاع المنخفض الذي تتحدث عنه سيضطرك لإحضار الثلوج كل يومين على الأكثر.

ضممتُ شفتيّ مفكرًا ثم قلت:

- سأتكفل أنا بحفر القاع، وسأساعد البنّاء في البناء وخلط المؤن وحملها إليه.

هزّ رأسه رافضًا كأنّ كلامي لم يقنعه، فخطرت في بالي فكرة كرهتُ ذاتي وأنا أفكر فيها، لكنّني لم أكن أمتلك غيرها مع إغلاقه كل الأبواب أمامي، وعدم رغبتي في إضاعة مزيد من الأيام، وقلت:

- حسنًا، دُلّني على بنّاء منهم، وسأعطيه المقابل الذي يريده.

فقال الذي يقف بجواره ضاحكًا:

- إنّني البنّاء، ما المقابل الذي تدفعه؟

قلت آسفًا وأنا أفكر في حُلي ناي:

- لديّ عقد ثمين من الذهب سأعطيه لكَ مقابل بناء ذلك الياخشال، لكنّ لي شرطًا ورجاءً، أما شرطي فأن تبدأ في بناء الياخشال بعد يومين، وأن تُنجز بناءه في أسرع وقت، وأما رجائي فألا تَبع ذلك العقد كي أشتريه منكَ لاحقًا عندما أجمع ثمنه.

جاءت فكرتي بتأخير بناء الياخشال ليومين عندما تذكرت أنّني لم أحدد بعد المكان المناسب لبنائه، ووجدت حاجتي ليوم آخر غير اليوم الذي كنا فيه كي أبحث عن مقصدي، لكنّي في الآن نفسه فكرت في ناي وتلك الساعات التي تضيع هباءً دون وضع جسدها في الثلج، فتابعتُ إلى صاحب الياخشال عندما أبدى البنّاء موافقته على كلامي:

- أما أنتَ سيدي فأريد شراء منكَ صندوقًا صغيرًا يتسع لذبيحة متوسطة الحجم وما حولها من ثلج.

وصمتُّ للحظة مفكرًا وأكملت:

- ولوحان خشبيان يتحملان عبور عربة ممتلئة فوقهما، طول الواحد منهما خمسة عشر قدمًا على الأقل، على أن ينقل تلك الأشياء «همّام» إلى قريتي الآن ومعها تسعة ألواح من الثلج، وتسعة أخرى آخذها منه

غدًا، وسأرسل لكَ معه اليوم قرطًا ذهبيًا ثمنه أضعاف ثمن الأشياء التي طلبتها، مع الرجاء نفسه بأن تحافظ على ذلك القرط حتى أستعيده منك.

استغربَ طلباتي، فقلتُ مبررًا:

- هناك صيد أود الحفاظ عليه حتى اكتمال بناء الياخشال.

فابتسم وقال:

- لكَ ما طلبت.

***

كان الجو لا يزال باردًا داخل الكهف عندما عدت إليه قُبيل غروب الشمس لأطمئن على ناي وآخذ قرطها إلى همَّام الذي أصرَّ على ضمان حقه أولًا قبل أن يسمح لي بإكمال الطريق الجبلي بعربته وحدي، ساعدني اللوحان الخشبيان على عبور العربة للأخدود، ورغم التعب الشديد الذي أصابني وأنا أحمل الصندوق إلى الكهف إلا أنَّ ملاءمته لجسد ناي أنساني كل شيء، ثم جالَ في ذهني وأنا أنظر إليها وهي نائمة كالملاك بين ألواح الثلج بهيئة سليمة لم تُصَب بأي تغيير أنَّها تمتلك صفة الاحتفاظ بجسدها كالطيبين الأنقياء، لكنِّي واصلتُ تغطية جسدها بالثلج لتختفي تمامًا عن بصري وأنا أتمتم لنفسي:

- ما دمتُ غير متيقن من ذلك الأمر فلا مجال للمجازفة.

أعدت العربة لهمَّام، وعدتُ لأنام في الكهف بجوار صندوقها تلك الليلة، وما إن طلع النهار حتى خرجت لأبحث عن المكان المناسب لبناء الياخشال، كان في بالي البحث عن مكان يحمل مواصفات معينة؛ يكون قريبًا من الطريق الصاعد إلى قمة الجبل الثلجية، وفي نفس الوقت متواريًا عن الأنظار لا يصل إليه أحد بسهولة، ويا حبذا لو لم يكن بعيدًا للغاية عن القرية، فأخذت أبحث بحصاني اليوم بأكمله متنقلًا من وادٍ إلى وادٍ، حتى عثرت على مرادي في النهاية، سهل رملي ضيق بين تل صغير وجبل شاهق تميل قمته نحو

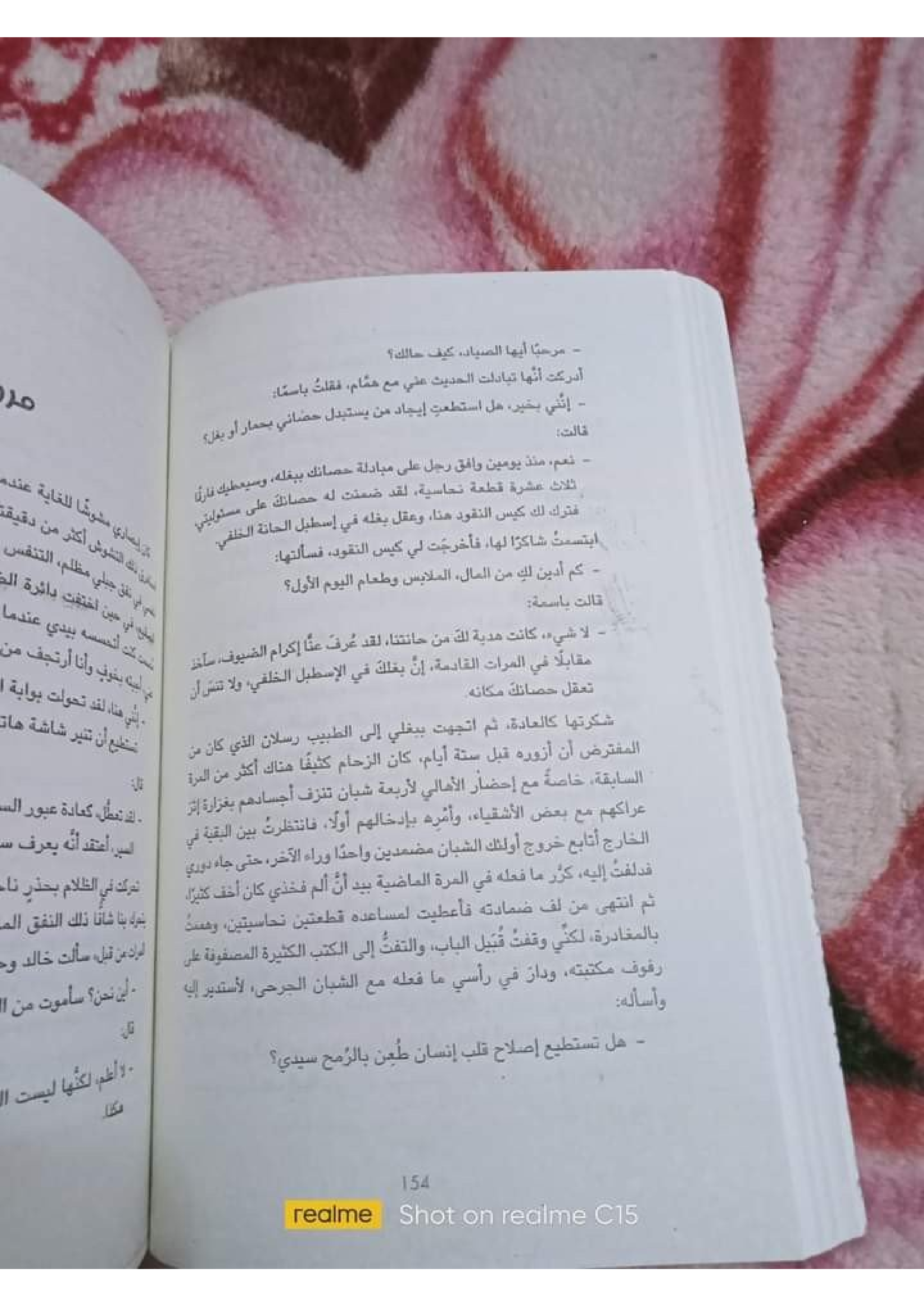
ذلك التل لتحجب السماء عن الأرض أسفلها، الطريق إليه ملتوٍ لا يمكن لأحد الوصول إليه بسهولة، وليس بعيدًا للغاية عن الطريق الصاعد إلى القمم الثلجية، أدركت من اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام حصاني ذلك السهل أنَّه المكان المناسب، حتى عندما أحضرت البنَّاء إليه تعجب من اختياري ذلك المكان، وأقسم أنَّه لن يحمل المؤن إليه ما دامت العربة لن تستطيع بلوغه، أخبرته بأنني سأحمل على صهوة حصاني كل ما يحتاج إليه من عربته الواقفة على جانب الطريق الجبلي إلى أرض السهل؛ أجولة من شعر الماعز، وزجاجات ممتلئة ببياض البيض، وطمي من مستنقعات الغابة، ورماد ناعم للغاية، وأوانٍ من الماء، حملتها تباعًا إليه بينما كان يحفر أرضية الياخشال الدائرية، أما الرمال فلم يكن أكثر منها في أرجاء السهل.

***

استغرقَ بناء الياخشال أربعة أيام كاملة رغم ارتفاعه الذي لم يتجاوز عشرين قدمًا، وفي صباح اليوم الخامس كان الصندوق الذي ترقد فيه ناي يتمركز في منتصف أرضيته أسفل فتحة قمته التي تظهر عبرها صخور الجبل الذي يغطي السهل، تذكرت وأنا أنظر نحو تلك الفتحة حديث البنَّاء وهو يخبرني عن دورها في إخراج الهواء إلى الأعلى كمدخنة في حين يدخل الهواء البارد إلى الياخشال عبر فتحاته الجانبية السفلية، لتحدث دورة تبريد كاملة تُصقلها الجدران العازلة للحرارة التي صنع خلطتها بنسبٍ لا يعرفها الكثيرون.

للأسف اضطررت إلى مبادلة القرط الآخر بمزيد من ألواح ثلج همَّام بعدما استغرقَ البنَّاء أيامًا أكثر مما توقعت، وإن أخبرني في المرة الأخيرة بأنَّه لن يحضر لي ثلجًا مجددًا إذ كان ما لديه يكفي بالكاد حانات القرى، كنتُ على كل حال أنوي الاعتماد على ثلج القمم الجبلية في الأيام التالية مع فقداني كل حُلي ناي وعدم امتلاكي أي قطعة نقود إضافية.

في اليوم السادس عدت مرة أخرى إلى حانة السيدة سارة، قالت باسمة عندما رأتني أدلف إليها:



- مرحبًا أيها الصياد، كيف حالك؟

أدركت أنَّها تبادلت الحديث عني مع هشام، فقلتُ باسمًا:

- إنَّني بخير، هل استطعتِ إيجاد من يستبدل حصاني بحمار أو بغل؟

قالت:

- نعم، منذ يومين وافق رجل على مبادلة حصانك ببغله، وسيعطيك فارقًا ثلاث عشرة قطعة نحاسية، لقد ضمنت له حصانك على مسئوليتي، فترك لك كيس النقود هنا، وعقل بغله في إسطبل الحانة الخلفي.

ابتسمتُ شاكرًا لها، فأخرجَت لي كيس النقود، فسألتها:

- كم أدين لكِ من المال، الملابس وطعام اليوم الأول؟

قالت باسمة:

- لا شيء، كانت هدية لكَ من حانتنا، لقد عُرفَ عنَّا إكرام الضيوف، سأخذ مقابلًا في المرات القادمة، إنَّ بغلكَ في الإسطبل الخلفي، ولا تنسَ أن تعقل حصانكَ مكانه.

شكرتها كالعادة، ثم اتجهت ببغلي إلى الطبيب رسلان الذي كان من المفترض أن أزوره قبل ستة أيام، كان الزحام كثيفًا هناك أكثر من المرة السابقة، خاصةً مع إحضارْ الأهالي لأربعة شبان تنزف أجسادهم بغزارة إثر عراكهم مع بعض الأشقياء، وأمرِه بإدخالهم أولًا، فانتظرتُ بين البقية في الخارج أتابع خروج أولئك الشبان مضمدين واحدًا وراء الآخر، حتى جاء دوري فدلفتُ إليه، كرَّر ما فعله في المرة الماضية بيد أنَّ ألم فخذي كان أخف كثيرًا، ثم انتهى من لف ضمادته فأعطيت لمساعده قطعتين نحاسيتين، وهممتُ بالمغادرة، لكنِّي وقفتُ قُبيل الباب، والتفتُّ إلى الكتب الكثيرة المصفوفة على رفوف مكتبته، ودارَ في رأسي ما فعله مع الشبان الجرحى، لأستدير إليه وأسأله:

- هل تستطيع إصلاح قلب إنسان طُعِن بالرُّمح سيدي؟

16

مروة

كان إبصاري مشوشًا للغاية عندما عبرتُ دائرة الضوء إلى جانبها الآخر، استغرق ذلك التشوش أكثر من دقيقتين قبلما يعود بصري إلى طبيعته وأجد نفسي في نفق جبلي مظلم، التنفس فيه صعب للغاية، وشديد البرودة لدرجة الصقيع، في حين اختفت دائرة الضوء تمامًا وحلَّ موضعها جدار صخري تُمست كنت أتحسسه بيدي عندما سمعت صوت خالد يُنادي باسمي باحثًا عني، أجبته بخوفٍ وأنا أرتجف من البرودة:

- إنَّني هنا، لقد تحولت بوابة الضوء التي عبرناها إلى جدارٍ صخري، هل تستطيع أن تنير شاشة هاتفك كي أستطيع رؤيتك؟

قال:

- لقد تعطَّل، كعادة عبور السرداب، هيا إنَّ هيكل الذئب يصر على مواصلة السير، أعتقد أنَّه يعرف سبيلًا للخروج من هذا النفق.

تحركت في الظلام بحذرٍ ناحية صوته حتى أمسكت بذراعه، ثم بدأ الذئب يتحرك بنا شاقًا ذلك النفق المتعرج دون تعثر وكأنَّه سار في ظلامه مئات المرات من قبل، سألت خالد وجسدي لا يزال يرتجف:

- أين نحن؟ سأموت من البرودة.

قال:

- لا أعلم، لكنَّها ليست البلاد التي زرتها من قبل، لم يكن الطقس باردًا هكذا.

انعطف بنا الذئب فجأة إلى ممر جانبي فارتطم جسد خالد ببروز صخري كاد يُسقطه لولا أنَّني أمسكت به، ليتمالك نفسه ويكمل الطريق خلف الذئب لاعنًا له، انعطفنا بعد ذلك في أكثر من ممرٍ، حتى ظهر بصيصٌ من النور أخيرًا في الأفق أمامنا، كان واضحًا أنَّه نور البدر، انطلق بنا الذئب نحوه لنخرج من النفق لاهثين مقطوعي الأنفس، وحينذاك قبض خالد على الحبل بقوة فلم يستطع الذئب التزحزح، نظرت حولي كانت قمم الجبال المغطاة بالثلوج تحيط بنا من كل جانب أسفل ضوء القمر والنجوم، تحسست حبات الثلج أسفل قدمي وهبطت لأمسكها وأفركها في يدي فذابت، وقلت:

- يبدو أنَّنا على ارتفاع عالٍ جدًّا عن سطح الأرض.

إلا أنَّه لم يُجبني، نظرت له، كان يحدق نحو السماء مشدوهًا، فنظرت أنا الأخرى إلى السماء وهنالك انتبهت إلى وجود بدرٍ آخر فيها، لم أكن قد انتبهت له، فنهضت متسائلة في دهشةٍ كبرى وقلبي يدق فزعًا:

- بدران في السماء؟!

بينما هبط هيكل الذئب العظمي على قائمتيه الأماميتين مُخفِضًا جمجمته وموجهها نحو أحدهما كأنَّه يخضع له، فقال خالد هامسًا وهو ينظر إليه:

- إنَّنا في موطن الذئب الأصلي.

سألته:

- وكيف سنعود إلى موطننا بعد اختفاء دائرة الضوء التي عبرناها؟

صمت مفكرًا ثم قال:

- علينا أن نعرف أولًا أين نحن، ومن ثَم نبحث عن طريقٍ آخر للعودة إلى وطننا.

ثم جذب حبل كمامة الذئب بقوة أكبر إذ كان واضحًا قوة التصاق الجمجمة بفقرات الرقبة حتى أنَّه صرَّ بأسنانه وهو يزيد من قوة جذبه، حتى استطاع نزع الجمجمة أخيرًا عن باقي الهيكل، وجدتُ باقي الهيكل يتحرك في اتجاه الجمجمة التي نزعها، فصرخت إليه كي يحترس، ففتح حقيبته السوداء سريعًا

وألقى بالجمجمة في داخلها، فانهارت عظام الذئب إلى الأرض منفصلة كبناء شاهق انهار فجأة، بعدئذٍ التقط تلك العظام ووضعها هي الأخرى في حقيبته بينما كان يوجِّه عينيه نحو البدر الأكثر سطوعًا الذي انحنى له الذئب، قبل أن يغلق سحَّاب حقيبته ويقول:

- مثلما جاء بنا هذا الذئب إلى هذه الأرض، فسيكون هو السبيل أيضًا لعودتنا إلى أرضنا، إنه يعرف الطريق إليها منذ مائة عام.

***

بقينا في موضعنا حتى طلع النهار بعد أقل من ساعة، ومعه انكشفت الرؤية تمامًا في الآفاق من حولنا، تحركتُ بعيدًا عن خالد بعض الشيء وأخذتُ أتفقد جميع الجهات، ثم ظهرت الشمس بعيدًا خلف سحابة كبيرة فوضعتُها عن يميني لأحدد الاتجاهات الأربعة، ثم أعدتُ تفقد الآفاق مجددًا، وقلت لخالد:

- تمتد الجبال في جميع الاتجاهات عدا الاتجاه الشرقي، هناك رقعة شاسعة من الأشجار وكأنَّها غابة كبرى.

نظر إلى اتجاه يدي الذي كنت أشير إليه، وقال:

- إذن هي وجهتنا القادمة، إن كان هناك بشر يعيشون في هذه الأرض فسيكونون بالقرب من تلك الأرض الخصبة.

وافقته على ذلك، ثم سألته مجددًا:

- ألا تتذكر مكانًا كهذا في أي زيارة سابقة لك؟

قال:

- مع وجود تلك الغابة وذلك القمر الإضافي في السماء صرت متيقنًا أنَّنا لسنا في جوار زيكولا حتى، ادعي الله أن نكون محظوظَيْن ونجد أي بشر نعرف منهم أين نحن.

بعدها هبطنا الجبل إلى طريق صخري يمتد متعرِّجًا نحو الشرق، وبين حينٍ وآخر كنا نلتفت تحسبًا لظهور أي خطر مفاجئ، لكنَّ شيئًا لم يحدث

طوال الطريق الذي قطعناه حتى منتصف النهار، أنهيتُ آخر شربة ماء من الزجاجة الصغيرة التي كانت لدينا في الحقيبة، وتساءلت كي أفتح نقاشًا مع خالد الذي ظلَّ صامتًا أغلب الطريق:

- هل طرأت خطة ما في بالك؟

قال:

- أتأكد أولًا هل نحن في عالم زيكولا وأماريتا أم لا، إن كان الجواب نعم فهناك أمل بالعودة إلى وطننا، وإن كان الجواب لا فنحن في ورطة.

أومأت برأسي إيجابًا ثم أكملت الطريق خلفه يبطئ من حركتي البنطال «الجينز» الضيق الذي كنت أرتديه، حتى أنَّ خالد ابتعد عني بعشرة أمتار على الأقل، ثم امتلأت مثانتي عن آخرها فصِحْت إليه كي ينتظر، وانعرجت في ممر جبلي جانبي باحثةً عن مكان متوارٍ أقضي فيه حاجتي، ثم انتهيت فانتبهت إلى شيء يلمع بين الرمال، التقطته، فوجدته عملة نحاسية منقوشًا على جانب منها رأس ذئب، بحثت في الرمال على بعد أمتار أخرى، كانت هناك عملة أخرى، كان ذلك يعني أنَّ بشرًا ما كانوا هناك من قبل، تحركت باحثةً عن أي عملات أخرى، عابرةً وديان صغيرة وممراتٍ متشعبة دون أن أدري، حتى توقفت عندما رأيت أمامي بناءً دائريًا طينيًا مُهدَّمًا يتوسطه صندوق خشبي قديم، اقتربت منه ودرت حوله وأنا أتحسس حائطه المُشبَّع بشعر الماشية، ثم عدت ركضًا إلى خالد، وقبل أن ينطق متذمرًا من تأخري أريته العملتين اللتين عثرت عليهما، وقلت:

- لقد عثرت على هاتين العملتين، وهناك بناء قديم مُهدَّم في الجوار.

ركض ورائي ناحية السهل الرملي الواقع بين تل وجبل مائل إليه، ثم توقف أمام حطام البناء، وقال وهو يحدق إلى أرضيته الداخلية المنخفضة نسبيًا عن خارجه:

- يشبه مخازن الغلال القديمة في القرى، وجوده مع وجود الصندوق والعملتين يؤكد وجود بشر قريبين.

انفرجت أساريري، ثم بحثنا عن أي شيء في الجوار له صلة بالبشر فلم نجد، فعدنا إلى طريقنا لنواصله نحو الشرق، لنقابل العلامة الثالثة الدالَّة على قرب البشر وهي سلالم الأحبال المثبَّتة على جرفي أخدود عميق عبرناه وأكملنا الطريق من بعده، حتى ظهر في الأفق أخيرًا مع اقتراب الشمس من غروبها تجمعٌ من بيوت منخفضة ذات أسقف هرمية، تتناثر في أرض مستوية تاركةً مساحات كبيرة بينها، وحينها قلت:

- يبدو أنها قرية صغيرة، أظن أنَّه من الأفضل أن ننتظر هنا، ونراقب من بعيد ظهور سكان تلك البيوت لعلَّنا نتحاشى خطرًا يقبع في انتظارنا.

صمتَ مفكرًا وهو يحدق نحو القرية، ثم هزَّ رأسه موافقني في النهاية، بعدئذٍ اتخذنا مكانًا على جانب الطريق يطل مباشرة على تلك البيوت في انتظار ظهور أول كائنٍ حي، إلا أنَّ ذلك لم يحدث، إذ بقينا حتى أظلمت السماء وظهر القمران فيها من جديد، فاتفقنا على أن نعكسر الليلة في مكاننا وأن نهبط القرية مع طلوع الشمس باحثين عن أي أناسٍ فيها، والأهم عن أي سبلٍ للبقاء على قيد الحياة بعد شعورنا بالجوع والعطش.

***

كالليلة السابقة كان نور أحد البدرين كافيًا ليكشف الأرجاء من حولنا كأنَّه مصباح شديد الإضاءة عُلِّق فوقنا، فيما تضاءل الآخر نورًا وحجمًا ليصير أحدب، تركت خالد وتحركت في الجوار باحثةً عن شيءٍ خطر في بالي، حتى عثرت على غصن شجرةٍ طويل وجاف، وعدت به إليه، حيث كسرته إلى قطعٍ قصيرة، صنعت منها هرمًا، ثم ضربت حجرين صغيرين ببعضهما فأطلقا شررًا لم يأخذ وقتًا حتى أشعل النيران في تلك القطع، فقلت متباهية عندما رأيت نظرة إعجاب على وجه خالد:

- لطالما اعتدنا فعل ذلك في رحلاتنا الاستكشافية إلى صحراء الفيوم بحثًا عن الحفريات.

ابتسم وهو يقرب يده من النار لتدفئتها، ثم سألني:

- كيف تستطيعون تحديد عمر الحفرية؟

قلت بنبرة التباهي نفسها:

- هناك فارق بين كم عاشت الحفرية؟ ومتى ماتت؟ كم عاشت نعرفها من خصائص معينة في أنسجة العظام، فمثلًا يكشف لنا تتابع الحلقات في المقاطع المستعرضة التي نحصل عليها من عظام الحفريات عدد السنوات التي عاشتها تلك الحيوانات، أما متى ماتت فهناك طرق عديدة أشهرها النظائر المُشعة مثل «كربون 14» و«يورانيوم 235»، التي تُحدَّد كميتها في أنسجة الحفرية عبر جهاز يُسمى «مطياف الكتلة».

ثم أخذتُ أشرح له تفصيلًا عن فترة عمر النصف لكل عنصرٍ مشع من تلك العناصر، والسنوات التي تستغرقها تلك العناصر لتقل إلى النصف في الحفرية، ومن ثَم يستطيع العلماء تحديد الوقت الذي ماتت فيه الحفريات. أومأ برأسه موحيًا لي أنَّه فهم ما شرحته، فلم أثقل عليه بمزيد من المعلومات المرهقة خاصةً بعدما تثاءب أكثر من مرة، فتثاءبت أنا الأخرى، ثم رقدت على ظهري بجوار النار أتأمل البدر الساطع في السماء، وأفكر فيما قد يحدث مع طلوع شمس اليوم الجديد، وفعل خالد الأمر نفسه، لينال مني النعاس سريعًا بعد إرهاق النهار وعدم نوم الليلة الماضية، لم يوقظني بعد ساعات إلا شخير خالد الصاخب الذي طيَّر النوم من عيني، فنهضت وتمشيت خطوات بعيدة عنه، ثم جلست فوق صخرة تُطل على القرية والغابة التي تظهر خلفها، لأتيقن أنَّ تلك القرية مهجورة بعدما لم أبصر فيها مصدر ضوء واحد، وأخذت أؤنب نفسي على تهوري غير المحسوب الذي علقت بسببه في تلك الورطة، كان عليَّ البقاء في الإسكندرية وإكمال رسالتي العلمية ونسيان أمر ذلك الذئب تمامًا، كيف حال أمي في تلك الساعات وهي لا تعرف عني شيئًا؟ كنت أنا مرافقتها الوحيدة بعد وفاة أبي وزواج أختي الكبرى، أخشى أن تموت قلقًا عليَّ، لا، لا بد أنَّها ستهاتف فاروق، ولا بد أنَّ فاروق سيبحث عني في القرية وسيجد سيارتي هناك، وحينها سيبلغ الشرطة عن غيابي وسيتهم خالد اتهامًا مباشرًا بتسببه في ذلك الأمر، ستستجوب الشرطة زوجة خالد، ستخبرهم

بدورها عن أمر السرداب كي يبحثوا عن زوجها الغائب هو الآخر، ربما يكون تدوم أحدهم في أثرنا هو أملنا الوحيد.

تقلّب خالد على جانبه الأيسر وكاد يلامس النار، فنهضت سريعًا كي أبعده، لكنّه عاد إلى جانبه الآخر مرة أخرى ما إن اقتربت منه، هنالك نظرت إلى حقيبته السوداء التي كانت تتموضع على الأرض بجواره، وفكرت في وعده لي بإعطائي العظام بعد إنقاذ ابنه، وأخرجت زفيري، إن كنا في موطن الذئب حقًّا فلا أظن أنّنا سنغادر بها أبدًا حتى وإن نجحنا في إيجاد طريق للعودة، لكنّي على الأقل أستحق فحصها عن قرب ولو لمرة واحدة لعلّي أسجّل ملاحظات لم يسجلها الغرب عنها من قبل، كنت أعرف أنّه لن يسمح لي بذلك ما دمنا لا نعرف شيئًا عن مصيرنا، فجال في بالي أن أنتهز فرصة نومه العميق التي ربما لا تتكرر لاحقًا وأفحص العظام سريعًا، وبدون تفكير جذبت الحقيبة في سكون وأنا أراقب وجهه النائم، ثم تحركت بها بعيدًا على أطراف أقدامي، وفتحت سحّابها ببطء وأخرجت العظام تباعًا، كانت تفاصيلها ظاهرة للغاية مع ضياء البدر، العظام أطول حقًّا وأكبر حجمًا من عظام الذئب الرمادي، أمّا الفارق الأكبر فظهر جليًّا في الجمجمة ذات الحجم الكبير، نزعت الكمامة الجلدية عن فكيها الكبيرين، ومرّرت في انبهارٍ يدي على أنيابها السيفية وضروسها القوية، تمنيت في تلك الأثناء لو امتلكت هاتفًا يعمل من أجل تصوير تلك اللحظة الفارقة في حياتي وربما في علم الحفريات الفقارية بأكمله، وأخذت أقلّبها في يدي وأنا أنظر لمحجرَيْ عينيها وأمد إصبعي فيهما، وأهمس:

- لم نعد في السرداب اللعين على أي حال، ليس منا صورة لغوريك تحدق إليها.

هبّت ريح مفاجئة، فدحرجت الحقيبة أقدامًا بعيدة عني، فنهضت وأنا أحمل الجمجمة لأمسك بها قبل أن تتطاير بعيدًا في أحد الخنادق ولا أستطيع الوصول إليها، لكنّي ما إن أمسكت بالحقيبة والتفتّ حتى وجدت باقي العظام قد تجمعت لتشكل هيكلًا عظميًا للذئب يقف على قوائمه الأربعة دون جمجمة.

وفي لمح البصر وجدت ذلك الهيكل يقفز نحوي، سقطت على ظهري من المفاجأة، وقبل أن أتدارك ما حدث كانت العظام قد التحمت مع الجمجمة التي فتحت فكّيها عن آخرهما نحوي، أغمضت عيني رعبًا وأنا أصرخ، فاستدار هيكل الذئب وركض بعيدًا نحو الجبال، عدت سريعًا إلى خالد، كان لا يزال نائمًا، مددت يدي المرتعبة كي أوقظه، لكنّي تراجعت في اللحظة الأخيرة، لقد اختفى الهيكل العظمي على كل حال ولن نستطيع اللحاق به، فعدت وأمسكت بالحقيبة الفارغة ثم وضعت فيها بعض الصخور الصغيرة حتى صار وزنها مماثلًا لوزنها السابق بالعظام، ثم وضعت الكمامة الجلدية معها، وأغلقت سحّابها، وبحذر شديد أعدتها إلى مكانها بجوار خالد، ورقدت في الموضع نفسه الذي كنت أنام فيه، أنظر إلى البدر الساطع في السماء بينما تسيل دموعي على جانبَيْ وجهي خوفًا مما سيفعله بي ذلك الرجل عندما يكتشف أنّني أضعت ذئبه.

17

نوح

سألتُ السيد رسلان:

- هل بإمكانكَ إصلاح قلبٍ طُعن برمح، سيدي؟

أجابني بغير اكتراث وهو يجلس وراء طاولته:

- دائمًا ما يصل المطعونون قلوبهم موتى.

عدتُ إليه وقلت:

- لكن هل جربتَ من قبل إصلاح قلبٍ بشري ممزق؟

هزَّ رأسه نافيًا وقال:

- لا.

قلتُ:

- لقد رأيت حرصكَ على مداواة الجرحى ولو لم يمتلكوا مالًا مثلي، ماذا إن كان هناك شخص مات بطعنة في قلبه، وهناك فرصة لإعادته للحياة يومًا ما، بشرط أن يكون قلبه سلبمًا.

أطلقَ مُساعده ضحكة ساخرة، أما السيد رسلان فقال في جدية:

- علَّمنا الطب يا بني أنَّ الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل الشك.

فكرتُ قليلًا ثم قلت:

- لنفترض سيدي أنَّ هناك شخصًا هكذا، هل تستطيع فعلها؟

قال:

- حتى وإن كنت أستطيع، بقاؤه ميتًا يعني فشل العملية برمتها، لأنّ التئام الجروح عملية معقدة تحتاج إلى دورة دموية نشطة تهاجر من خلالها عناصر الالتئام إلى مكان الجرح كي يكتمل التئامه قبل ذوبان الخيوط الجراحية، وهذا لا يتوفر في الموتى.

وابتسم وهو يتابع:

- إن كنا نعرف متى ينهض الموتى لأصلحنا قلوبهم الممزقة قبلها بساعات.

قلت حينذاك بعين لامعة في حماس:

- إنّني أعرف متى سينهض.

لكنّي سرعان ما تابعتُ مترددًا:

- لا أعرف اليوم تحديدًا، لكنّه سينهض يومًا ما.

ثم جالَ في خاطري شيء لم أفكر فيه قبل تلك اللحظة، فقلت:

- هل تقبل بي خادمًا لديكَ سيدي؟

هنالك تحرك المساعد نحوي كي يخرجني متعللًا بأنّني أضعتُ على سيده وقتَ مريض آخر، فقلت وهو يدفعني نحو الباب:

- أرجوكَ سيدي، لا أريد تقاضي أجر، سأخدمك بلا مقابل، أستطيع أن أنظف الأرضية هنا وأحمل المرضى وأمنع شجارهم في الخارج.

لكنّه لم ينطق بشيء، فخرجت خائب الأمل، وركبت بغلي مطأطئ الرأس متجهًا إلى القرية أولًا لشراء بعض احتياجاتي، ثم إلى الياخشال لأبيت ليلتي خارجه مدثرًا بدثار صوفي قديم كنت قد اشتريته هو ومعطفًا ثقيلًا وفأسًا وبعض الطعام مقابل أربع قطع نحاسية.

***

في الصباح التالي كانت رحلتي الأولى نحو قمة الجبل الثلجية، ركبتُ بغلي شاقًا الطريق الصاعد إليها وسط الريح الشديدة الباردة حتى وصلت إلى سفح

الجبل المراد بعد منتصف النهار بقليل، وهناك تركت بغلي وبدأت صعوده بصعوبة متكئًا على فأسي، إلا أنَّني عندما وصلت قرب قمته وجدت ثلجه قد صار هشًا، إذ أذابته الشمس الساطعة، وأدركت خطئي حينها بتأخري كل تلك الوقت من النهار، فإن كنت أريد الثلج صلبًا فعليَّ التحرك ليلًا لبلوغ تلك القمة قبل طلوع الشمس، وهذا ما فعلته في اليوم التالي، إذ تحركت مع منتصف الليل مصطحبًا مصباحي الزيتي لأصل قمة الجبل قُبيل الفجر، وأكسر ثلاثة قطع كبيرة من الثلـج، وألفُّها جيدًا بجلد الماعز الذي كان قد تركه لي «همَّام» في آخر مرة، وأهبط بها تباعًا إلى بغلي، لأحملها على ظهره، وأجره عائدًا إلى صندوق ناي مع منتصف النهار.

حافظت جلود الماعز على وصول الثلج إلى الياخشال في حالة جيدة، أما الياخشال نفسه ففاقَ توقعاتي إذ أبقى الثلج الذي اشتريته من «همَّام» آخر مرة صلبًا لأكثر من خمسة أيام، لذا تركت الثلوج التي أحضرتها خارج الصندوق وأحضرت غيرها في اليوم التالي، لأصفَّها مُغلفةً بجواره، ومع الأسبوع الأول أدركت أنَّ قطعة الثلج التي أحضرها من قمة الجبل تبدأ في ذوبانها بعد ستة أيامٍ كاملة، لذا اتخذت قراري بصعود الجبل ليلتين متتاليتين كل أسبوع أحضر خلالهما الثلج الكافي لغمر جسد ناي، أما بقية الأسبوع فكنت أهبط إلى القرية للبحث عن عمل ولإحضار الخبز بعدما اتفقت مع أحد الخبازين على شراء رغيف خبز يومي لمدة شهر كامل مقابل قطعتين نحاسيتين نالهما مني مقدمًا، ليتبقى معي خمس عملات فقط من ثمن الحصان.

ذهبت بعد أيام من البحث عن عمل دون جدوى إلى الطبيب رسلان مرة أخرى، وفي تلك المرة لم أنطق بشيء، فقط انتهى من تضميد جرحي وأعطيت مساعده قطعة نحاسية، وخرجت إلى حانة السيدة سارة، وهناك جلست على إحدى الطاولات أحتسي شرابًا ساخنًا، جاءت وجلست على مقعد أمامي، وقالت باسمة:

- هل عاد صديقك للحياة؟ أم لم يعد بعد؟

تعجبت من معرفتها بالأمر، لكنِّي هززتُ رأسي نفيًا وحسب، فقالت:

- لذلك كنتَ تبحث عن بائع الثلج، أليس كذلك؟ لستَ صيادًا كما تدّعي.

فكرتُ فيما قالته، ثم قلت:

- نعم.

قالت:

- أهو غالٍ عندك إلى هذه الدرجة؟

أومأتُ إيجابًا، فتابعت:

- إنَّ الموتى لا ينهضون يا فتى.

قلتُ مقتضبًا:

- ستنهض.

لمعت عيناها وهي تقول باسمة بأسنانها الرائعة:

- امرأة؟!

قلت:

- نعم، حبيبتي.

قالت:

- اممم.

ثم أردفت:

- لقد أخبرني أبي عن طلبك العمل معه.

نظرتُ في عينيها، كانت المرة الأولى التي أعرف أنَّها ابنة الطبيب رسلان، وانتبهت وقتئذٍ إلى تشابههما الواضح الذي لم ألحظه من قبل، فقلتُ بشيء من الحزن:

- أردتُ أن أتعلم منه ومن كتبه لعلّي أستطيع إصلاح قلب حبيبتي يومًا ما.

قالت:

- إنّه يظن أنّك مجنون.

قلت:

- وماذا تظنين؟

قالت:

- الأمر نفسه.

قلت وأنا أتذكر طيبتها معي منذ قدمتُ إلى تلك القرية:

- أريدكِ أن تأتي معي لأريكِ شيئًا.

فكّرتْ للحظة ثم صاحت إلى النادل بأنّها ستغيب بعض الوقت، وارتدت معطفها وخرجت معي، لأقودها ببغلي إلى السهل الذي يقع فيه باخشال ناي، وهناك فتحت الصندوق الخشبي وأزلت قطع الثلج التي تغطي وجه ناي، فجفلت واحتقن وجهها خوفًا واضطرابًا، قبل أن تتمالك أعصابها وتقول:

- كم من الوقت مرَّ على موتها؟!

قلت:

- ثلاثة أسابيع تقريبًا.

نظرت إلى هيئة وجهها السليمة، ثم أزالت مزيدًا من قطع الثلج المغطية لجسدها، وتحسست بيدها جلدها وهي تقول:

- مستحيل.

قلت:

- لقد ماتت في اليوم الذي سبق زيارتي الأولى لحانتك.

ابتلعت ريقها، وقالت متعجبة:

- لا يحافظ الثلج على الأجساد بهذه الجودة.

قلت:

- إنّها ملديّة.

تركت قطعة الثلج التي كانت تحملها في يدها، ونظرت لي نظرة مطولة وقالت:

- لقد مات الملديون منذ زمن بعيد، قبل أن نُولد جميعًا.

قلت:

- إنّها قصة طويلة، سأحكيها لكِ في طريق العودة إلى القرية، لكن هذه الفتاة بحاجة إلى إصلاح قلبها المطعون قبل أن يعود الشاهد إلى السماء، إنّه جزء مخفي من النبوءة لا يعرف عنه الكثيرون.

ابتسمَتْ:

- أنتَ من المؤمنين بالنبوءة إذن.

قلت:

- صرتُ مؤمنًا بها بعد موت ناي.

تساءلَتْ:

- ومن يعرف بأمر هذا الياخشال وهذه الفتاة؟

قلت:

- أنتِ وحسب، كان البنّاء من قرية بعيدة، ويظن أنّني شيدته من أجل حفظ صيدي.

قالت:

- ربما إن عرف أحد بهذا السر وأفشاه قد تُقاد إلى الشنق على أيدي الجنود.

قلت:

- لن تخبري أحدًا، أليس كذلك؟! لقد جئتُ بكِ إلى هنا لأنّني استشعرتُ فيكِ مروءة لم أجدها في كثيرين.

ثم صمتُّ وتابعتُ سريعًا:

- وإن كان هناك أحد قد يستطيع إقناع السيد رسلان بقبوله عملي معه فلن يكون إلّا أنتِ، إنَّني أتوسل إليكِ بأن تحدثي أبيكِ مرة أخرى بشأن عملي معه، إنَّني سريع التعلم، أريد أن أتتلمذ على يديه، وأتعلم من كتبه، لعلّي أكون قادرًا على إصلاح قلب ناي الممزق وقتما يعاود الشاهد الظهور.

نظرَتْ إلى ناي من جديد، ثم أعادت قطع الثلج إلى مكانها فوق جسدها، وأغلقت الصندوق برفق، وقالت:

- احكِ لي قصة الفتاة كاملة وقصة الجزء المخفي من النبوءة وبعدها سأقرر ما عليَّ فعله بشأنك وشأنها.

***

كانت الشمس قد غربت عندما انتهيت من سرد قصتي وقصة ناي إلى السيدة سارة، أخبرتها كل شيء بداية من يوم ولادة ناي إلى لحظة موتها، مرورًا بما فعلته بأبي، ظلَّت صامتة تُنصت إليَّ دون أن تعلِّق بكلمة، إلى أن أفرغتُ ما في جعبتي كله، فقالت:

- لقد زرتُ حائط الرؤى في «تيبيانا» في طفولتي مع أبي، ولم أنتبه إلى تلك الحروف التي ترمز إلى الجانب المخفي من النبوءة، لكن أيًا ما كانت ترمز إليه صارت رؤية الشاهد لذئب «صامون» ضربًا من المستحيل بعد كل هذه السنوات، أينعم احترس الناس لسنوات بعد اختفاء الشاهد، لكن مع مرور الوقت باتَ الجميع يدركون أنَّ تلك النبوءة كانت من وحي خيال كاتبها، أرى أنَّكَ تتعلق بالوهم ليس إلا، ستقضي حياتك بجوار هذه الجثة إلى أن يصيبها التحلل بينما تفقد سنوات عمرك واحدة وراء أخرى دون أن تشعر، إنَّكَ ما زلتَ شابًا، وهناك جوانب من الحياة عليكَ أن تخوضها، هذه نصيحة لك من امرأة تكبرك بأكثر من عشر سنوات.

ثم تابعت متنهدة وهي تزيل بعض الغبار عن غطاء الصندوق:

- لكن على كل حال سأقنع أبي بقبولك مساعدًا له، لعلّنا نكتسب طبيبًا ماهرًا يساعد أهل القرية مستقبلًا، وكن مطمئنًا لن أخبره أو أخبر أحدًا بأمر الفتاة والياخشال، إنّني أعرف كيف أحفظ الأسرار.

أومأتُ لها إيجابًا باسمًا، ثم أوصلتها ببغلي إلى حانتها، وهناك سألتني أن أنتظر على إحدى الطاولات وغادرت، لتعود قُبيل منتصف الليل، وتقول لي ووجهها مرهق للغاية:

- لم أعتقد أنّني سآخذ كل هذا الوقت لإقناع أبي بانضمام مساعد جديد له، لكن على كل حال لقد وافق في النهاية، ستبدأ عملك معه في صباح الغد، سيختبرك لسبعة أيام، وبعدها يقرر مصيرك، عليكَ أن تثبت أنّكَ جدير بهذا العمل.

18

مروة

هبطنا القرية مع طلوع الشمس، حمل خالد حقيبته على ظهره دون أن يلاحظ أي اختلاف في وزنها بينما سرتُ وراءه أتطلع كل دقيقة إلى تعابير وجهه، وأدعو الله في سري ألّا يكتشف أمر هروب الذئب وأن نجد مخرجنا قريبًا. قال عندما وصلنا إلى مدخل القرية:

- لا تبتعدي عنِّي كثيرًا، لا نعرف ما قد نواجهه.

أومأتُ برأسي إيجابًا، وتحركنا في الشارع الترابي الرئيسي نحو أقرب البيوت، طرق خالد بابه برفق، وعندما لم يجب أحد فتحه بدفعة قوية بقدمه. كان البيت خاويًا يغطي الغبار أثاثه، تجولنا بحذرٍ في غرفه الثلاث، كانت إحدى الغرف تحتوي جِوالًا من الدقيق، قال خالد وهو يمسك حفنة منه في يده:

- لم يُهجَر هذا البيت منذ وقت طويل.

خرجنا إلى البيت الذي يليه، وجدنا الشيء نفسه، التراب يغطي كل شيء، ولا يوجد بشر في داخله، وعظيمات دجاجٍ مطهي تتناثر في أرضيته، خرجنا إلى البيوت الأخرى، كانت جميعها خواء، وفي أحدها عثر خالد على خنجرٍ مُغمد فوضعه أسفل قميصه على جانب خصره دون أن يقول شيئًا، ثم تحركنا إلى بناء أوسع كانت الطاولات والمقاعد المغطاة بالأتربة موزعة في داخله، وكؤوس الشراب الزجاجية متراصَّة في شكل هرمي على طاولة طوبية عالية تقع في الركن المواجه للباب، وفي خزانة خشبية خلف تلك الطاولة كانت هناك ثلاث زجاجات فارغة لمع زجاجها مع ضوء النهار المتسلل عبر فتحة

دائرية في السقف عندما فتحنا باب الخزانة، أمسك خالد إحداها من قاعدتها بحرص ورفعها نحو فتحة السقف وأخذ يتفحصها وهو يقول:

- هناك بصمات بشرية على عنقها.

ثم وضعها على الطاولة وقال:

- كان البشر يسكنون هذه القرية حتى وقتٍ قريب.

وأكملَ وهو ينظر إلى الحانة:

- ووفقًا لهذا العدد من الطاولات كان عددهم كبيرًا، أين ذهبوا؟! ولماذا اختفوا؟!

لم أكن أملك إجابة، فسكتُّ.

جلسنا بعد ذلك على مقعدين بجوار أقرب الطاولات الخشبية، ووضع خالد حقيبته على سطحها، خشيت حينذاك أن يفكر في فتحها، فنهضت سريعًا أتظاهر بأنَّني أبحث عن أي آثار للبشر في أرجاء الحانة، وبدأت أزيح المقاعد عن مواضعها مُحدثة جلبة شديدة كي أشتت انتباهه عن الحقيبة، بالفعل بدأ ينظر إلى ما أفعله مستغربًا، قبل أن يصيح فيَّ متذمرًا كي أتوقف عمَّا أفعله، لكنِّي تجاهلت طلبه وواصلت إبعاد المقاعد والطاولات عن منتصف الحانة بجلبةٍ أكبر دون أي هدف، نهض وحمل حقيبته على ظهره من جديد، واقترب مني وأمسك بذراعي، وقال غاضبًا:

- ربما تأتي هذه الجلبة بشرٍ نخشاه، هيا علينا أن نغادر هذه الحانة لنكمل البحث في باقي القرية.

هززتُ رأسي إيجابًا، وهممنا لنغادر، لكنَّنا توقفنا عندما سمعنا صرير بابٍ يُفتح يأتي فجأة من ركنٍ بعيد في الحانة، نظرتُ في عينيه خائفة، فوضع يده على مقبض خنجره بينما أسرعتُ للاحتماء خلفه، همستُ إليه متوسلة بأن نواصل طريقنا للخروج، لكنَّه تقدم بحذرٍ نحو الركن الذي صدر منه ذلك الصرير، وقبل أن نصل إلى ذلك الركن فوجئنا بسيدة نحيفة ترتدي فستانًا

هيئة، شعرها طويل كثيف وعيناها رماديتان، تتحرك نحونا ممسكة بأداة حربية، وتصرخ فينا:

- من أنتما؟

رفع خالد يديه كي تهدأ، بينما عدتُ بأقدامي خطواتٍ إلى الخلف مقتربة من باب الحانة، قالت السيدة من جديد:

- من أنتما؟

قال خالد:

- إننا تائهان، ونبحث عمّن يدلنا على طريقنا.

نظرتْ في عينيه بشيءٍ من الارتياب، ثم تفحصتْ ملابسه وملابسي وتساءلت في تعجبٍ:

- هل أتيتما عبر إحدى العابرات؟

لم أفهم مقصدها بالعابرات، وأعتقد أنّ خالد لم يفهم مقصدها هو الآخر، لكنّه قال:

- لسنا من هذا العالم، لقد جئنا إلى هذه الأرض مرغمين، لقد أتى بنا ذئب إلى هنا.

تساءلت في لهفة:

- أي ذئب؟!

نقلت في تلعثم:

- ذئب من الذئاب الرهيبة، أتى إلى عالمنا قبل مائة عام.

نطقت على الفور:

- ذئب «صامون»؟

قال خالد:

- لا نعرف ماذا تسمونهم هنا، لكنّه انتقل إلى أرضنا عبر طاحونة قديمة قبل مائة عام، وظلّ مدفونا في قبرٍ في تربتي مع قاتله، أخرجته فقط

قبل ستة شهور، وأصاب طفلي بلعنة جعلتني أغامر بالقدوم إلى هنا لإعادته إلى موطنه.

قالت غاضبة:

- أنتما السبب في كل ما حدث؟

وضربت طاولة قريبة بفأسها فحطمتها، وتابعت:

- لقد أعدتما الشاهد للظهور من جديد.

قال خالد:

- لم نفعل شيئًا.

صرخت فينا:

- أين الذئب؟

قال خالد في هدوء:

- سأخبرك، لكن اتركي هذه الفأس.

فصرخت مجددًا:

- أين هو؟

ألقى خالد الحقيبة نحوها وقال:

- إنه في داخلها.

ابتلعتُ ريقي، إن كان مصيرنا مُعلقًا برؤية تلك السيدة لعظام الذئب فنحن هالكون لا محالة، حدقت السيدة إلى الحقيبة، ونظرت إلى خالد كأنها لا تصدقه، ثم قالت:

- منذ متى جئتما إلى هذه الأرض؟

قال:

- فجر الأمس.

قالت:

- مُحال أن يبقى معكما كل هذا الوقت، لن يترككما الشاهد والملدبين الناهضون.

لم تفهم ما تعنيه، لكنَّ خالد قال وهو يهبط على ركبتيه:

- سأثبت لكِ صدق قولي سيدتي.

تراجعَتْ للخلف وهي تحدق إليه، فأمسك بالحقيبة وفتح سحّابها، أخرج الكمامة الجلدية أولًا وألقاها جانبًا، ثم نظر إلى داخل الحقيبة نظرةً مطولة، والتفتَ لينظر إليَّ غير مصدق، ثم قلبَ الحقيبة ليفرِغ محتوياتها، فسقطت منها الصخور الصغيرة متدحرجة، فقال للسيدة:

- أقسم لكِ لقد كانت عظامه هنا، إنَّني من وضعتها هنا بيدي، أليس كذلك يا مروة؟!

أومأتُ برأسي إيجابًا دون أن أنطق، فواصل مغمغمًا في ذهول:

- لقد استحالَ إلى صخور، دونه لن نستطيع العودة إلى بلدنا.

صاحت فيه:

- أتظنني طفلة، لا تتحول العظام إلى صخور.

قال:

- لقد رأينا منه العجائب منذ أن أخرجته من قبره.

قالت:

- إن كنتَ صادقًا في قولك وعدتَ بذئب «صامون» إلى هنا، وأضعته بعدما كان في حوزتك فلقد حكمتَ على أمّة كاملة بالموت.

ثم وضعَت الفأس جانبًا، وجلستُ على مقعد قريب منها، ووضعَتْ رأسها بين كفيها وقالت بصوت ضعيف:

- انتهى كل شيء.

فاقترب منها خالد، وسألها:

- ماذا حدث؟ وأين نحن؟ وما علاقة الذئب بمصير الأمة التي تحدثت عنها؟! ومن أنتِ؟ وأين أهل هذه القرية؟

ارتشفت دموعها، وقالت:

- اسمي «سارة»، مالكة هذه الحانة منذ أكثر من عشرين عامًا.

ثم بدأت تروي لنا قصة وادي الذئاب وما حدث فيه قبل مائة عام بعد عبور ذئب «صامون» إحدى العابرات خلف بعض المتسللين ومقتله على يد بشري في عالم آخر، وما أدّى إليه ذلك من حربٍ شعواء بين الذئاب والبشر، واختفاء شاهد الوادي من السماء، وإغلاق العابرات، وتلك النبوءة التي نقشها أحد الملدبين على حائط الرؤى.

كنا نستمع إليها ذاهلين، ولولا أنني رأيت بنفسي ما حدث في السرداب ونهوض عظام الذئب لتركض أمامي لما صدقتُ كلمة واحدة مما تقوله، أمّا خالد فلم يُنزل عينه عنها، وظلَّ مشدوهًا لكل كلمة تقولها خاصةً عندما قالت:

- ظللنا سنوات طويلة نظن أنَّ النبوءة مجرد وَهْم كتبه أحد دجّالي الملدبين، لكنَّا فوجئنا بالشاهد يعاود الظهور في السماء قبل ستة أشهر، لندرك صدق المنقوش على حائط الرؤى، رغم ذلك كنا مطمئنين نوعًا ما لما فعله أجدادنا بدفن عظام الذئاب وأغلب الملدبين أسفل طبقة سميكة من القار في وادٍ بعيد اسمه «وادي الذئاب المنسية»، وعندما نهضت بضعة هياكل عظمية لذئاب لم تُدفن قديمًا في ذلك الوادي تولّى الجنود أمرها ببساطة وأحرقوا عظامها حتى صارت رمادًا؛ إذ كانت أعدادها قليلة للغاية.

ثم تنفّست بعمق وأخرجت زفيرها وتابعت:

- أمّا بداية الرعب الحقيقي فحدث مع عظام الملدبين الذين لم يتوقع أحد أن ينهضوا هم الآخرون مع ظهور الشاهد بعدما كان ذلك الجزء مخفيًا من النبوءة كما أخبرتكما، إذ فوجئنا بهياكلهم العظمية تهاجم ليلًا القرى القريبة من الجبال مثل قريتنا وتختفي أوقات النهار، أمرَ الحاكم وقتها بتشديد تأمين وادي الذئاب المنسية وزيادة سُمك طبقة قاره

وإخلاء القرى هنا، وإرسال حملات عسكرية لمطاردة تلك الهياكل في الجبال، وأعلنَ عن نيته إحراق الغابة مجددًا إن عبرتها تلك الهياكل، في لوجئنا قبل شهرين وتصف تقريبًا بإعلانه التخلص من هياكل الملديين جميعها من قِبل الجنود المطارِدين لهم، ودفنهم في قبور غُطيت بالقار هي الأخرى، وأقيمت الاحتفالات في العاصمة «براقيا» وكأنَّ الأمر انتهى وانتصرنا، لكنّا كنّا نعلم أنَّ الأمر لن ينتهي بهذه السهولة إذ بثَّ الشاهد قبل أسابيع رؤيةً استطاعت ملدية صديقة تلقّيها، كانت تلك الرؤية تؤكد عودة ذئب «صامون» إلى وادينا، ليصل فيما بعد إلى أم العابرات كي يكمل القطعة الناقصة فيما يريده الشاهد.

فسألتُها في قلق:

- أي قطعة ناقصة؟!

قالت:

- منذ عودة الشاهد إلى سمائنا ولم يستطع فتح العابرات الست مع عدم وجود ذئب «صامون»، لا أعرف كيفَ جئتم إلى عالمنا، ربما توجد عابرة أخرى غير تلك الست.

ثم تابعَتْ بحسرة:

- لكن ما إن يصل الذئب الذي أحضرتموه معكم إلى أم العابرات ويزأر هناك، سيستطيع الشاهد فتح العابرات الست من جديد، وحينها لن نعرف ماذا سيأتي عبرها من العوالم والأزمنة الأخرى لإعادة عهد الذئاب في هذه الأرض.

19

نوح

مع أول ضوء لنهار اليوم التالي كنت أقف أمام باب عيادة السيد «رسلان»، استقبلني مساعده «غنَّام» بوجه جامد متجهم، وأدخلني إلى غرفة جانبية وأخذ يفحص بدقة بدني وشعري وجلد نصفي العلوي وأسفل ركبتي، ثم أعطاني مقصًا وأمرني أن أقص أظافري الطويلة وشعري، وأن أبدّل ثيابي بقميص وبنطال أبيضين نظيفين كانا في الغرفة، ففعلتُ ما أمرني به.

أعطاني الشعر القصير مظهرًا مختلفًا وعمرًا أصغر عندما نظرتُ إلى صورتي في المرآة قبل أن أخرج إلى السيد «رسلان» الذي حدّق إلى هيئتي الجديدة وقال في هدوء:

- كما أخبرتك سارة، سيكون هذا الأسبوع اختبارًا لك. إن أثبتَّ جدارتك ستستمر معنا، وإن فشلت فبابنا مفتوح لك كمريض في أي وقت. «غنَّام» هو رئيسك، امتثل لأوامره، وتعلَّم منه قدر المستطاع.

قلتُ مخفضًا رأسي:

- حسنًا سيدي.

في اليوم الأول اشتمل عملي صباحًا على إدخال المرضى وحمل غير القادرين منهم إلى غرفة الكشف وتنظيف سرير الفحص بعد كل واحد منهم، أمَّا مساءً فنظفتُ الأرضية بالماء والصابون، وغسلتُ الضمادات والملاءات جميعها متحققًا من عدم وجود بقعة دم واحدة على أيٍّ منها، أمَّا الأدوات الجراحية وقناني الأعشاب فأمرني غنَّام ألا أقترب منها كونها وظيفته الأولى.

ثم انتهيت فبدّلتُ ثيابي وغادرتُ ببغلي إلى الياخشال حيث جلستُ بجوار صندوق ناي، وقلتُ باسمًا:

- اليوم بدأت وظيفتي الجديدة يا ناي، لم يُعلّق السيد رسلان على أي فعلٍ قمتُ به اليوم، كان غنّام فقط من يرجمني بنظراته وكلماته اللاذعة، يخشى أن أنال مكانته لدى سيده، في داخلي لا ألومه، لكنني سأفعل كل ما في وسعي للاستمرار في ذلك العمل كي أستطيع إصلاح قلبك يومًا ما.

ثم خرجتُ إلى خارج الياخشال وتدثرتُ بمعطفي ونمتُ حتى شروق الشمس، وعندما استيقظت هبطتُ مباشرةً إلى عيادة السيد رسلان، لأكرر ما فعلته تمامًا في اليوم السابق، وكان اليوم الثالث مثلهما.

في اليوم الرابع انتهينا في وقتٍ متأخر من الليل، فأسرعت بالعودة إلى الياخشال كي آخذ فأسي ومصباحي وجلود الماعز، لأصعد مباشرةً إلى قمة الجبل الثلجية من أجل إحضار ثلاث قطعٍ كبرى من الثلج، وعندما عدت بها مرة أخرى إلى الياخشال وبدّلتُ الثلج القديم بالجديد كانت الشمس قد أشرقت، فاتجهتُ مباشرةً إلى عملي دون أن أنام لحظة واحدة، حاولتُ ألّا أظهر إرهاقي الشديد وألّا أتثاءب أمام سيدي بقدر الإمكان، لكن مع مرور ساعات النهار نفدت طاقتي بعض الشيء وتشوشت رؤيتي، فقلّ جهدي وتثاءبتُ أمامه مرتين رغمًا عني، إلا أنّه لم يُعلق بشيء، حتى انتهى العمل وبدّلتُ ثيابي، فعدتُ إلى المنطقة الجبلية لأفعل الشيء نفسه الذي فعلته في الأمس إذ كان عليَّ إحضار كمية إضافية من الثلج، لأذهب إلى العمل دون نوم لليلة الثانية على التوالي.

نظفتُ الأرضية قبل دخول المرضى، وأعدتُ رصّ الكتب على الرفوف الجانبية، ثم بدأنا في إدخال المرضى تباعًا، كنتُ في داخلي أعرف أنّ لديّ يومين فقط بالإضافة إلى ذلك اليوم كي يقرر السيد رسلان مصيري، لذا كلما سقط جفناي المرهقان رغمًا عني كنتُ أحدث نفسي بأن تتحمل إرهاق تلك الساعات، وأعدها محفزًا بساعات نومٍ إضافية حال الانتهاء من العمل.

مع غروب الشمس ركلني غنّام بقدمه عندما غفوتُ وأنا أقف وراء سيدي الذي كان يفحص مصابًا اخترق قضيبٌ حديدي قدمه، قبل أن يقوم بإمساك قدم ذلك المصاب بينما كان سيدنا يغسل جرحه النازف، نادى عليّ سيدي حينها أن أحضر سريعًا قنينةً زجاجية بها مطهّر أحمر اللون على الطاولة الأخرى، شعرتُ وقتها وأنا أنظر إلى القنائن المتجاورة أنّ عينيّ وذهني مشوشان للغاية وكأنّني ثمل، صاحَ فيّ غنّام كي أسرع عندما أخذتُ وقتًا طويلًا، فالتقطتُ القنينة الممتلئة وعدتُ بها، لكن قبل أن أناولها لسيدي انزلقت من يدي، لتسقط إلى الأرض مهشمة بتناثر سائلها مُغرقًا الأرض من حولها وكذلك ثياب سيدي، شعرتُ حينها أنّ الزمن توقف بي، كان ذلك الخطأ يعني تمامًا أنّني فقدت وظيفتي، صاحَ فيّ غنّام معنفًا لي، وترك قدم المصاب وركض مُحضِرًا زجاجة أخرى، بينما واصلَ سيدي تضميد جرح المصاب دون أن ينظر إليّ حتى، هبطتُ إلى الأرض مضطربًا كي ألتقط قطع الزجاج، لكنّي زدتُ الطين بلّة عندما أغفلتُ قطعة كبيرة منها، وداسها المُصاب بقدمه السليمة وهو يغادر، ليصرخ متألمًا ويضطر سيدي لتضميدها هي الأخرى.

وقفتُ حينها أمام سيدي المحدّق إليّ حانيًا رأسي، أبتلع ريقي مرتبكًا، ولا يجول في بالي أي مبررٍ أستطيع النطق به، لا سيما أنّني لم أكن لأبوح عن سر الإرهاق الذي ينتابني، كنت أوقن في قرارة نفسي أنّني سأعتاد سهر ليلتي إحضار الثلج مع الوقت، وأنّني أحتاج فقط إلى مزيد من التعود، لذا واصلت وقوفي صامتًا بينما تولّى غنّام تنظيف الأرضية من السائل وقطع الزجاج التي لم تستطع عيني التقاطها، وعلى وجهه ابتسامة لم أرها منذ وطأت قدمي ذلك المكان.

في اليومين المتبقيين لم يطلب مني سيدي شيئًا يتعلق بالمرضى، فقط اقتصر عملي على تنظيف الأرضية وسرير الفحص، حتى غنّام لم يعلّق بنظراته أو بلسانه على أي شيء أفعله بالمدح أو الذم، وكأنّه أدرك أنّ خطئي بإسقاط القنينة قد حسم الأمر، وأنّ بقائي تلك الساعات لم يكن إلا لإكمال وعد سيدي لابنته بمنحي سبعة أيام كاملة للاختبار، ثم انتهى اليوم السابع

فأشار لي سيدي بأن أترك ما في يدي لغنّام، وأقترب منه، ثم قال وهو يقدّم لي كيسًا من النقود:

- هذا أجرك عن السبعة أيام الماضية، سبع قطع نحاسية.

قلت مضطربًا وأنا أعرف أنّ إعطاءه لي ذلك المال يعني عدم رغبته في استمراري معه:

- لا أريد هذا المال سيدي.

قال:

- لا يعمل معي أحد دون مقابل، سيكون هذا أجرك أسبوعيًا.

لمعت عيناي فجأة، وقلت:

- هل تعني سيدي ما فهمته؟!

هزّ رأسه باسمًا وقال:

- نعم يا نوح، ستكمل عملك هنا مع غنّام، ولا تشغل بالك بتلك القنينة التي أسقطتها، من لا يخطئ لا يتعلم.

انحنيت لأقبّل قدمه لكنّه أبعدها سريعًا، فشكرته كثيرًا ووعدته بأن أفعل ما في وسعي لأثبت له صواب قراره، ثم عدت سريعًا إلى ناي وفتحت صندوقها، وأزلت الثلج عن وجهها، وقبّلتُ جبينها وقلتُ فرحًا:

- لقد نجحتُ في اختبار السيد رسلان يا ناي، ليس هذا فحسب، سيعطيني أجرًا كبيرًا عن عملي معه، سأدّخر جميعه كي أعيد لكِ الحُلي التي استعرتها منكِ لأبني هذا الياخشال، إنّني أسعد إنسان في هذا العالم اليوم.

«- لا بد أنّها سعيدة هي الأخرى.»

جفلَ جسدي عندما سمعتُ تلك الجملة فجأة من ورائي، فالتفتُّ سريعًا في اضطراب، لأجد السيدة سارة تقف على بُعد خطوات مني ضاحكة، قبل أن تتابع:

- اعتذر إن كنتُ قد أخفتك.

قلتُ باسمًا:

- ظننتُ أنَّ ناي نهضت.

اقتربت مني وألقت نظرة على وجه ناي، ثم قالت:

- جئت لأهنئك على اقتناصك الفرصة التي أتيحت لك، لقد عرفت منذ قليل أنك ستكمل العمل مع أبي، وتوقعت أن يكون هذا أول مكان تحتفل فيه بذلك النجاح.

قلت:

- لولاكِ لما حظيتُ بها.

وتابعتُ وأنا أتذكر خطتي بإسقاط القنينة:

- هل أخبرتِ والدكِ عن ناي؟

قالت:

- لا، أقسم لك، ما دام وافق على بقائك معه فلا بد أنَّه رأى فيك شيئًا مميزًا.

ضممتُ شفتيَّ متعجبًا، وقلت:

- أتمنى ذلك.

●●●

في الأيام التالية قلَّت مهماتي بالعمل بعض الشيء إذ قُسِّمت أعمال النظافة بيني وبين غنَّام، ويومًا وراء آخر صرتُ أعرف أسماء الآلات الجراحية واستخداماتها، ثم كاد قلبي يتوقف فرحًا عندما طلب مني السيد رسلان أن أساعده في تضميد جرح مصاب أتى إلينا وقتما كان غنَّام يُحضر الطعام له، ولمَّا انتهينا شكرني على حسن مساعدتي ليطلب مني المساعدة مجددًا مع مريضين مختلفين في اليوم نفسه رغم حضور غنَّام

ثم مر الشهر الأول فوجدت في جعبتي عشرين قطعة نحاسية اقترتها بعد نفقات طعامي وشرابي بالحانة، فتمنيتُ أن يكون الثلج لا يزال في حوزة البنّاء وتاجر الثلج كي أدخر المزيد وأسترده قطعة وراء أخرى.

***

في مساء اليوم الأول من الشهر الثاني ناداني السيد رسلان فجأة، وسألني أن أحضر الكتاب الثالث في الرف العلوي بالمكتبة الجانبية، ثم أجلسني بجواره وفتحه ليريني رسمةً ليد دون جلد، فقط أنسجة وردية تتفرع عليها خطوط مُلونة بالأزرق والأحمر والأصفر، وقال:

- إنَّها اليد البشرية وأوعيتها الدموية وأعصابها، سأتركها لك تحفظها عن ظهر قلب، اقرأ أيضًا بتمعن الأوراق التي تلي هذه الرسمة وسنتناقش فيها غدًا عقب الانتهاء من المرضى.

كانت تلك اللحظة هي اللحظة الأولى التي أشعر فيها أنَّ حياتي بدأت تتخذ منعطفًا جديدًا إذ كانت إعلانًا صريحًا من سيدي عن رغبته في تعليمي شيئًا من مهنته، فجلستُ ليلتها أحفظ تفاصيل الرسمة وخطوطها بكل ما لديَّ من تركيز، وأقرأ الكلمات المكتوبة عن الشرايين والأوردة والأعصاب مرارًا وتكرارًا، وكلما غفت جفوني نهضتُ وغسلت وجهي بالماء كي أواصل قراءتي، حتى غلبني النعاس قُبيل الفجر ونمت ليلتي في العيادة لا تراودني إلا أحلام متتابعة عَنْ تلك اليد المسلوخة.

***

كانت تلك الرسمة هي أول قطرة غيثٍ لمزيد من الرسومات والتدوينات الطبية التي واظبَ السيد رسلان على شرحها لي بداية كل أسبوع، عرفت أنَّه حاول فعل الأمر نفسه قديمًا مع غنَّام، لكنَّه يأس مع الوقت من استيعاب تلك الدروس واكتفى بجعله مساعدًا يناوله الأدوات ويثبِّت حركة المرضى ويُجبِّرهم، فزادَ ذلك من تصميمي على استيعاب مزيدٍ من الدروس، وإعادة قراءة الدروس القديمة أكثر من مرة في كل فرصة تسنح لي، تحفزني نظرات

سيدي المشجعة وإطراؤه المستمر عليَّ مع كل إجابة صحيحة كنت أنطق بها إن سألني فجأة وهو يطبب أحد المرضى، فكرتُ كثيرًا أن أحدثه عن ناي لكنّي كنت أتراجع في كل مرة، هو أيضًا لم يسألني مطلقًا عن سر إصراري على المبيت خارج العيادة رغم توفر سريرين نظيفين لي ولغنَّام، لأكمل رحلتيَّ الأسبوعيتين إلى قمم الجبال الثلجية، وأقضي الليالي المتبقية أتحدث إلى جسد ناي عن كل خطوة جديدة قطعتها في المشوار الأهم في حياتي.

❁❁❁

في بداية العام الثاني استطعت إعادة العقد الذهبي والقرطين مرة أخرى، تعجَّب تاجر الثلج والبنَّاء من ادخاري تلك الأموال بهذه السرعة، لكنَّهما حافظا في النهاية على وعدهما لي بعدم التفريط فيها، ومنحاني إيَّاها بنفس راضية، لأزيِّن بها عنق وأذني ناي من جديد.

شهد ذلك العام أيضًا الحالة الأولى التي أطبِّبها بمفردي بعدما فاجأني السيد رسلان وطلب مني مداواة عجوز كانت قرحة عميقة مؤلمة تظهر في راحة قدمها، وجلس يراقبني من وراء طاولته دون أن ينطق بشيء، أصابني التوتر في البداية، لكنِّي تمالكت نفسي سريعًا، وسألت غنَّام أن يساعدني بإحضار الضمادات النظيفة وآنية الماء والأعشاب المهروسة، وبدأت أنظِّف القرحة وأزيل طبقات الجلد الميتة، حتى وصلتُ إلى لحمها الحي، فوضعتُ عشبًا مهروسًا مخلوطًا بالعسل وضمدتها. ومنذ ذلك الحين صارت أغلب الحالات البسيطة من اختصاصي بينما اكتفى سيدي بالحالات المعقدة التي تحتاج إلى خياطة ماهرة للجروح أو بتر أحد الأطراف ذات الأنسجة الفاسدة.

في منتصف ذلك العام بدأ سيدي يعلمني خياطة جروح الأوردة الكبرى والشرايين، وأهداني كتابًا يتحدث عن الدورة الدموية البشرية بصورة مُفصَّلة، لينبض قلبي منتفضًا وأنا أقرأ للمرة الأولى عن تشريح القلب وآلية عمله، وأدرك في نفسي صعوبة ما أسعى إليه، لدرجة أنَّني تمنيت لو تأخَّر الشاهد في ظهوره ظنًّا منِّي أنَّ اكتساب المهارة اللازمة لإصلاح قلب ممزق سيحتاج إلى سنوات وسنوات من التعلم، لكنَّني نحَّيت التشاؤم جانبًا وأخذت أدرس فصول

الكتاب فصلًا وراء آخر، يساعدني سيدي بشروحاته الهائلة، حتى انتهيت من فهم وحفظ كل سطوره مع مرور ثمانية أشهر، لأكتشف أنَّ العائق الحقيقي لاكتساب مهارة مثل إصلاح الأوعية الكبرى هو أنَّ حالاتها قليلة للغاية، وكثير ممن يصابون بها يصلون إلى عيادتنا موتى، ويأبى ذووهم الاقتراب من جثثهم بعد تأكيد سيدي موتهم، حدثت سيدي عن ضيقي من ذلك الأمر، ضحك وقال:

- إنَّ الطب يحتاج إلى الصبر، لقد انتظرت سنوات طويلة حتى أصلح شريانًا رئيسيًّا، لستُ أنا فحسب، بل حدث الأمر نفسه مع معلمي الذي عاش عهد الذئاب، حتى أنَّه دوَّن قصةً كاملة عن حياة أول مريض استطاع خياطة شريان رقبته.

وأردف بعدما تناول رشفة من شرابه الساخن:

- إنَّ قصَّته هناك، بين كتب المكتبة السفلية في القبو، ستجد كتابًا مكتوبًا على غلافه «قصة المصاب الأسمر».

فسألته وأنا أفكر في أنَّ البشرة السمراء ليست مألوفة في وادينا:

- هل كانت قصته مشوقة إلى الحد الذي يؤلَّف عنها كتابًا كاملًا؟

قال:

- نعم، يكفيكَ أن تعرف أنَّه أتى إلى بلدنا عبر إحدى العابرات قبل سنة وتسعين عامًا، تحديدًا قبل شهر واحد من مقتل ذئب «ضامون» واندلاع الحرب الكبرى.

20

أثار ما نطق به سيدي عن ذلك المصاب فضولي، فسألته:

- هل كان ذلك المصاب أحد اللصوص الذين هاجمهم ذئب «صامون»؟

أجابني:

- نعم.

وأردف:

- الوحيد الذي نجا منهم، ربما لو التقى شخصًا آخر غير مُعلمي لأطاح بعنقه جرّاء ما حدث للوادي بعد فعلتهم، لكنّه عالجه وصارا صديقين ليبقى على قيد الحياة ثلاث سنوات كاملة في هذا الوادي قبل أن يموت ويُدفَن هنا، ودوَّن مُعلمي قصة حياته التي رواها له، ومن بينها رحلته عبر العابرة، إنّ كتابه هناك في الأسفل إن أردتَ الاطلاع عليه.

قلت:

- سأفعل بكل تأكيد.

لكنّي ما إن نهضت كي أهبط إلى القبو حتى وجدنا غنّام يدلف إلينا لاهثًا، ويقول:

- إنّ حريقًا كبيرًا اندلع في قرية «سنجيرة»، وهناك العشرات من المصابين.

توقعت أن يأمرنا سيدي بتجهيز العيادة للمرضى القادمين من تلك القرية الجنوبية، لكنّه فاجأني وقال:

- هيا أعد أدواتنا وأعشابنا، سنذهب إلى هناك.

وأمر غنّام بأن يجهز عربته ذات الحصانين، فأومأ مطيعًا، لنتحرك في خلال دقائق نحو الجنوب.

***

كان الحريق هائلًا ليلتهم نصف بيوت تلك القرية، ولولا انحسار الفلاة فرسخًا كاملًا عن أقرب البيوت المشتعلة لحلّت في وادينا أكبر كارثة منذ حرب الذئاب.

وصلنا بعربتنا هناك وقتما كان الرجال والنساء يحاولون السيطرة بمياه الآبار والرمال على النيران المندلعة في كل جانب، وكان الدخان كثيفًا جدًا، فقال سيدي لغنّام وهو يسعل:

- فلنتحرك بالعربة إلى أقرب رقعة يقل فيها الدخان.

ففعل ما أمره به سيده، ثم توقفنا خلف بيت يطل على جبال الغرب، لم تصله النيران، فأنزلتُ آنية الأعشاب والعسل والضمادات، وفرشت الأرض بطبقتين من الملاءات البيضاء الكبيرة، ثم أشعلت المصابيح وعلّقتها فوق ثلاثة أعمدة حديدية كنت قد غرزتها متفرقة بين الملاءات، بينما ركض غنّام لإبلاغ الناس بوصولنا، ليتدفق إلينا سيلٌ من المصابين بالحروق أغلبهم من الأطفال، فبدأنا في تنظيف حروقهم وترطيبها بالأعشاب المهروسة والعسل وإعطائهم جرعات من الأعشاب المسكّنة.

كان المسئول عن فرز المرضى هو غنّام، الحالات الكبرى يوجّهها إلى السيد رسلان، والحالات البسيطة يوجّهها إليّ أو يسعفها هو، خفتُ أن تنفد أعشابنا فيصبح وجودنا بلا قيمة، لكنّي مع الوقت أدركت أنّنا لسنا الأطباء الوحيدين الذين قدموا إلى القرية، إذ جاء آخرون من قرى الجنوب بأدواتهم وأعشابهم أيضًا.

مع شروق الشمس كان الإنهاك قد أصابني، التفتُّ إلى سيدي في تعب، كان منهمكًا في تضميد حروق مُصاب أحرقت النار ساقيه بالكامل دون أن يبدو متعبًا، فواصلت استقبالي للمرضى وأنا أنظر بعيدًا إلى النيران التي

بدأت في انحسارها عن بعض البيوت وإلى الأهالي الذين أخذوا يزيلون الأنقاض باحثين عن أي ناجين أسفلها، قبل أن يُحضِروا إلينا فتاة عشرينية نائمة وعيها ذات وجه سليم تمامًا، حين قصصت ثوبها المحترق بمقص فوجئت بما لم أره من قبل، إصابة كبرى في منتصف صدرها حدثت على الأغلب إثر سقوط شيء ثقيل فوق صدرها فهشَّمه تمامًا، ومع تآكل نسيجه بالنيران صار منتصف صدرها عبارة عن فتحة كبرى تكشف ما أسفلها من رئة وقلب وأوعية دموية، كنت أجلس على ركبتَيّ محدقًا إلى قلبها الذي كان لا يزال ينبض عندما وقف سيدي ورائي، وقال بصوت هادئ:

- لا تفعل شيئًا، دعها ترقد في سلام.

هززتُ رأسي إيجابًا وأنا أواصل تحديقي إلى تجويف صدرها، بعد دقائق هدأت نبضات القلب رويدًا رويدًا حتى سكن تمامًا وشحبت معه الأجزاء السليمة من جسدها وازرقَّت شفتاها، سألني غنَّام:

- هل ماتت؟

قلت:

- نعم.

قال:

- سأنادي بعض الشبان كي ينقلوا جثتها إلى المكان الذي يدفنون فيه جثثهم.

نكرتُ للحظة وأنا أنظر إلى قلبها السليم الساكن، ثم قلت:

- سأضمد صدرها أولًا ثم أناديك.

قال:

- حسنًا.

وتحرك منشغلًا بشيء آخر، نظرتُ إلى سيدي كان قد انشغل هو الآخر بمصابٍ جديد، تلفتُّ حولي كان الجميع قد انفضُّوا عنَّا من أجل البحث عن ناجين آخرين، لأجد نفسي أدير ظهري لسيدي وأخرج سكينًا حادًا، وبسرعة

البرق بدأتُ أفصل قلب الفتاة عن الأوعية الدموية المتصلة به وأنزعه، وألف
بغشائه سريعًا في جرابي القماشي دون أن ينتبه لي أحد، ثم لففت
الفتاة بضمادة كبيرة، وناديت غنَّام الذي كان ينظر بعيدًا نحو البيوت
المحترقة، فكفَّن جسد الفتاة بالملاءة التي كانت أسفلها تاركًا رأسها ظاهرًا
ثم نادى بعض الشبان كي يساعدوه في نقلها بعيدًا، بينما تحركتُ أنا إلى
مريض آخر كان حرقه بسيطًا نوعًا ما.

❊❊❊

مع غروب الشمس كنا قد انتهينا من فحص وتضميد جميع المصابين
الذين قدموا إلينا، وخمد الحريق أيضًا، فتركني سيدي وركب مع غنَّام العربة
ليمرَّا على الأطباء الآخرين من أجل عرض مساعدتهما إن كان أحدهم في
حاجة إلى المساعدة، فأخرجت القلب من جرابي وفحصتُ ملمسه في سعادة
كبرى، قبل أن ألفَّه في قماشة نظيفة مُبللة وأعيده إلى الجراب من جديد.
عاد سيدي وغنَّام، فهبط غنَّام عن العربة وأخبرني بأن نجمع أدواتنا وأغراضنا
كي نستعد للرحيل.

❊❊❊

في الطريق إلى عيادتنا فكرتُ في إخبار سيدي عن القلب الذي اقتنيته من
أجل التعلم عليه بصورة عملية، لكنِّي تراجعت، إذ شعرت أنَّ ذلك قد يغضبه.
فكرتُ أيضًا في استعارة بعض الآلات اللازمة لتشريح ذلك القلب بعيدًا عن
العيادة، لكنِّي كنت أعرف أنَّ ذلك مستحيل مع غنَّام الذي لن يسمح بمغادرة
آلة واحدة باب العيادة، فقررت في داخلي أن يبقى القلب في جرابي آخذه
معي حين أغادر إلى ياخشال ناي، وأشرِّحه في العيادة ليلًا أثناء نوم سيدي
وغنَّام وقتما أبقى هناك من أجل مراجعة دروسي الطبية مثلما تعودت في
الشهور الماضية.

❊❊❊

في الليلتين التاليتين لليلة الحريق لم أتمكن من فعل ما فكرتُ فيه، حيث كانتا الليلتين المخصصتين لإحضار ثلج ناي من قمة الجبل، لذا تركت القلب في صندوق ناي بين الثلج من أجل الحفاظ على أنسجته، وفي اليوم الثالث لففته في جرابي وأخذته معي إلى العيادة، ولمّا انتهينا من المرضى وخلد سيدي إلى النوم، وتبعه غنّام بعد الانتهاء من غسيل الآلات الجراحية، أحضرتُ كتاب الدورة الدموية البشرية إلى طاولتي، وأخرجت القلب من الجِراب ويدي ترتعش، ثم قرّبت المصباح منّي وأخذت أقارن بين الشكل الظاهري للقلب ومثيله المرسوم في الكتاب، ثم أزلت الغشاء الخارجي الرقيق بملقاط صغير، فابتلعت ريقي اضطرابًا وأنا أتحسس الأوعية الدموية التي تلتصق بجداره الخارجي، ثم لاحظت أنَّ الجانب الأيمن من القلب يحتل ثلثي الأمام تقريبًا وجال في خاطري أنَّ إصابة ناي بصورة كبرى ستكون في ذلك الجانب إن لم يخترق الرمح قلبها عن آخره.

في تلك الليلة اكتفيت فقط بمعاينة الشكل الخارجي لغرف القلب الأربعة وأوعيتها الدموية، ثم أعدته مجددًا إلى جرابي، وذهبت إلى ناي لأحفظه هناك بين الثلج حتى صباح اليوم التالي حيث رجعت إلى العيادة وكررت ما فعلته في الليلة السابقة بدراسة جداره الخارجي مرة أخرى، وإن شعرت أنَّ رهبتي قلّت بعض الشيء.

***

في الليلة السابعة من اقتنائي القلب امتلكت الجرأة أخيرًا لشق جدار بُطَيْنه الأيمن بسكينٍ حاد، لأفتحه أمامي كالكتاب المفتوح، كانت تفاصيل البُطَين الداخلية تختلف كثيرًا عن رسمة الكتاب خاصةً الصمام الثلاثي الذي يقع بينه وبين الأُذين الذي يعلوه، تحسستُ بيدي ملمس الجدار الداخلي وخيوطه العضلية وعدت بإصبعي إلى ذلك الصمام وأنا أفكر في استحالة إصلاحه إن طاله التمزق، بل وصل بي الحال إلى التفكير في استحالة إصلاح أي إصابة تتجاوز جدار القلب أمامي، لكنّي حدثت نفسي بأنّني قد أمتلك الوقت لتعلم كل شيء، وواصلت فحصي ومقارنة ما أبصره بتدوينات الكتاب، ثم قطع

هدوء الليل فجأة صوت امرأة تنادي باسم السيد «رسلان» وتطرق الباب...

خبأتُ القلب سريعًا في جرابي، وأخفيته وراء الطاولة، ثم وضعت لفافة

الأدوات الجراحية التي كنت أستخدمها، نهض غنّام ناعسًا ليجيب المرأة

لم تتوقف عن النداء وطرق الباب، واستغرب أنّني ما زلت هناك، وقال:

- لماذا لم تجب المرأة ما دمتَ هنا؟!

قلت متظاهرًا بالنعاس:

- لقد غلبني النوم، سأجيبها في الحال.

أشاح بيده غاضبًا، وقال:

- لقد أيقظت السيد على أي حال.

ثم فتح الباب، كانت امرأة تحمل رضيعها بينما يمسك بطرف ثوبها طفل

آخر في عمر السابعة أو الثامنة. قالت في توسل:

- إنّ رضيعي يقيء بلا توقف منذ ساعات.

هزّ غنّام رأسه إيجابًا وأدخلها إلى العيادة، كنت أستطيع فحص الطفل

لكنّ سيدي كان قد أتى، فوقفت بجواره خائفًا أن ينتبه هو أو غنّام إلى الأدوات

الموضوعة على الطاولة أسفل القماشة، ثم انتهى من فحص الرضيع وطلب

أن أعطيها زجاجة من الأعشاب المهدئة لالتهابات المعدة، فتحركت لأحضرها

لكنّي توقفتُ مكاني مُجمدًا عندما رأيت الطفل الآخر يمسك جرابي القماشي

ويفتحه، ويسأل أمه مستغربًا وهو يخرج القلب منه:

- ما هذا يا أمي؟

❁❁❁

مطأطئًا رأسي كنت أقف أمام سيدي الذي كان يمسك القلب بيده وبجواره

غنّام الذي نظّف الطاولة من الأدوات المتسخة ووقف يحدق إليّ، سأل

سيدي بنبرته الهادئة:

- من أين حصلت على هذا القلب؟

أجبته في خزي:

- إنّه قلب الفتاة التي تهشّم صدرها في حريق «سنجيرة».

شهق غنّام منهولًا، بينما ضمّ سيدي شفتيه في صمت، فتابعت:

- لقد كانت ميتة بالفعل، ووجدتُ هذا القلب فرصة لتعلم ما درسته نظريًا في هذا الكتاب.

واصلَ سيدي صمته، فأردفت مستعطفًا:

- أعلم أنّني أخطأت بإخفائي هذا الأمر عنكَ سيدي، لكن أقسم لك كنت سأخبرك قريبًا.

ثم سكتُّ بعدما لم أكن أملك المزيد من الكلمات، فقال سيدي:

- إنّ للموت حُرمة وأنتَ انتهكتها، وبعد أكثر من عامين لكَ معي لم تستطع فهم أنّ أحد أعمدة الطب الرئيسية هي الأمانة. ولقد خُنتَ الأمانة مع أهل تلك الفتاة الذين سلّموكَ ابنتهم من أجل مداواتها لا لسرقة أحد أعضائها في أنانية مُفرطة.

قلتُ باكيًا:

- لم أكن أقصد كل هذا سيدي، قصدتُ فقط...

قاطعني في نبرة حادّة سمعتها منه للمرة الأولى:

- لم يعد لكَ مكان هنا، احزم متاعك وغادر في الحال.

21

قلتُ منتحبًا:

- أرجوك سيدي، كان قصدي التعلم فحسب.

قال بالنبرة الحازمة نفسها:

- لقد انتهى الأمر.

وتابع وهو يغادر الغرفة:

- سيبقى ما فعلته سرًا لن يخرج عني وعن غنَّام رأفةً بسمعتك.

هزَّ غنَّام رأسه مطيعًا كلام سيده، قبل أن يشير لي كي أخرج وهو يقول محذرًا:

- إن اكتشفتُ لاحقًا فقدان آلةٍ واحدة من الآلات الجراحية سأبحث عنك في كل مكان وسآتي إليكَ لأحطم رأسك.

خرجتُ بائسًا تائهًا تتعلَّق بتلابيبي كل هموم الدنيا، وكان الظلام حالكًا فجلستُ باكيًا بجوار بغلي، حتى طلع النهار فامتطيته إلى القرية الشمالية، واتجهتُ إلى حانة السيدة «سارة» حيث انتظرتها حتى تستيقظ، قالت عندما التقينا في الظهيرة وحكيتُ لها ما حدث:

- لن يعدل أبي عن قراره أبدًا، إنَّني أكثر من يعرفه، وربما يقاطعني أنا الأخرى لأنَّني من أحضرتكَ إليه.

قلت:

- لم أكن لأستطيع التعلم من الكتب فقط.

قالت:

- كان عليكَ المحاولة مع قلوب الحيوانات النافقة، لم يكن ليلومكَ أحد وقتها، لكنَّ ما حدث قد حدث، ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

أجبتها:

- لا أعرف، إنَّ رأسي منهكٌ للغاية لعدم نومي الليلة الماضية، وعليَّ إحضار الثلج إلى ناي هذه الليلة وغدًا.

قالت:

- حسنًا، فلتأخذ قسطًا من النوم الآن، ولنفكر بعدها في خطوتكَ القادمة، يمكنكَ النوم هنا إن أردت.

قلت:

- لا، سأذهب إلى الياخشال لأنام بجانبه، وسأعود إليكِ في صباح الغد.

قالت:

- كما تريد.

❀❀❀

أثناء رجوعي من قمة الجبل تلك الليلة خطر في بالي أن أعود لعملي القديم مُقطِّعًا لأشجار الغابة، لكنِّي أبعدت الفكرة سريعًا عن رأسي، أيْنعم لم أمتلك المدة الكافية لأكون في مهارة السيد رسلان، لكنِّي على الأقل صرت أستطيع تشخيص الأمراض الشائعة وتضميد الإصابات والحروق البسيطة، لذا عندما قابلت السيدة سارة في ذلك الصباح، وسألتني مجددًا عن خطوتي التالية، قلتُ لها:

- إنَّ مرضى القرية هنا يقطعون الطريق إلى عيادة السيد رسلان في القرية الجنوبية، أستطيع أن أنشئ عيادة هنا، إنَّني أمتلك من المهارة ما يؤهلني لمداواة أمراضهم البسيطة، وما أعجز عنه فسأرسله إلى السيد رسلان.

ابتسمت وهي تقول:

هنا ما كنت أفكر فيه تمامًا.

قلت متحمسًا من اتفاقها معي:

- إنني أدخر مائتي قطعة نحاسية، يمكنني استئجار بيت صغير وشراء بعض الأواني الزجاجية والمعدنية، وتوصية حداد القرية بأن يصنع لي أدوات بسيطة سهلة التنظيف تساعدني في بداية عملي.

فقالت:

- إنني أعرف أيضًا المُورِّد الذي يمد أبي بأعشابه الطبية.

قلت في حماس:

- السيد «نُمَير»، إنني أعرفه أيضًا، لقد أرسلني إليه السيد رسلان أكثر من مرة، يمكنني البدء بكميات قليلة من الأعشاب، أزيدها فيما بعد مع كثرة المرضى.

قالت:

- حسنًا، فلتبدأ خطوتك الأولى إذن، ومن جانبي فعندما تنتهي من تجهيز العيادة سأعلن في الحانة عن وجود طبيب جديد في قريتنا، وستجد المرضى ينتظرون أمام بابها بأعدادٍ غفيرة في الصباح التالي.

استأجرتُ بيتًا صغيرًا بالفعل، وبعد عشرة أيام كانت العيادة جاهزة لاستقبال المرضى، وفَت السيدة سارة بوعدها وأعلنت عنّي طبيبًا جديدًا في القرية، لكن عكس ما توقعنا كان عدد المرضى قليلًا للغاية، بالكاد أتى إلى العيادة ثلاثة مرضى في الشهر الأول، جنيتُ من ورائهم ثلاث عملات نحاسية، ولم يختلف الشهر الثاني كثيرًا، لم يشغلني العائد المادي بقدر ما شغلتني المهارات الجراحية التي بدأت أفقدها شيئًا فشيئًا مع نُدرة المرضى، خاصةً مع مرور الشهر الثالث دون حضور مريض واحد إلى العيادة، فكرت في أنّ غنّام وشى إلى الناس بما فعلته بفتاة الحريق، لكنّ السيدة سارة أكدت لي أكثر من مرة أنّه لا يستطيع مخالفة وعد قطعه أبوها، وأنّها ستكون أول من يعرف بأي إشاعة تُقال عني من خلال عملها في الحانة.

ثم حلَّ الشهر الرابع فشعرت أنَّ القدر يداعبني إذ حضر إلى العيادة ليلًا ثلاثة شبان يحملون صديقهم ميتًا إثر طعنة في صدره تلقاها قبل دقائق دار في عقلي وأنا أفحص جثته مشهد قتل ناي على أيدي الجنود كاملًا قبل أن أخبرهم آسفًا بموته، ارتسمت على وجوههم ملامح رأيتها قلقًا أكثر منها حزنًا، وما لبثوا أن خرجوا في صمت دون أن يقولوا كلمة واحدة، ثم سمعت همهماتهم في الخارج، فاقتربت من النافذة، فسمعت أحدهم يقول للآخرين بنبرة خائفة:

- إن عرف إخوته أنَّنا قتلناه لن يتركونا أحياء حتى الصباح.

سكتَ الآخران وكأنَّهما اتفقا مع القائل في حديثه، قبل أن يقول صوتٌ آخر بعد قليل:

- لندفنه في الغابة إذن دون أن يدري أحد.

ثم تحركوا بعيدًا عن العيادة، فوجدت نفسي أحمل مصباحي مُطفأً، وأخرج وراءهم أتتبع عربتهم من بعيد.

اتجهوا نحو الغابة بالفعل، وبعد قرابة فرسخين في داخلها توقفوا وهبطوا عن العربة، وبدأ اثنان منهم يحفران قبرًا بينما أمسك الثالث بمصباح مُنير أضاء الأرض من أمامهما، بقيتُ في موضعي بين الغصون أراقبهم عن بعد، حتى انتهوا فوضعوا جثة القتيل في القبر الذي حفروه، ثم ردموه وغادروا، فأنرتُ مصباحي واقتربت من القبر وأنا أفكر في ذلك الصدر المطعون، وسرعان ما عدت إلى عيادتي وأحضرت فأسًا ومنجلًا، وعدت مرة أخرى إلى موضع القبر، لأحفره وأشق ضلوع تلك الجثة بالمنجل، لأُفاجأ بأنَّ قلبه سليم وأنَّ رئته اليمنى هي ما أُصيبت، فنزعت القلب السليم دون تفكير، ثم ردمت القبر سريعًا، وعدت إلى العيادة.

لم أكن أمتلك كتابًا عن التشريح في ذلك الوقت، لكنِّي بدأت في استرجاع المعلومات في رأسي وأنا أقلِّب القلب في يدي وأنزع غشاءه، ثم غرزت سكيني في بُطَينه الأيمن، وسكبت الماء في الوريد العلوي وضغطته بيدي، فاندفع الماء من الشق الذي أحدثته، فأحضرت خيطًا من الحرير وبدأت أخيِّط طرفي

للتو، ثم وضعت الماء مجددًا في الوريد، فتسرَّب عبر الشق مرة أخرى، أزلت الخيط وبدأت أخيطه من جديد، لكنَّ إحدى حافتي الشق لم تتحمل قوة الخيط وتمزقت، ومعها صارَ التسرُّب أمرًا لا يُعالَج، أحدثت شقًا آخرًا في البُطين الأيسر فحدث الأمر نفسه، بعدها واصلتُ محاولاتي لتفادي تمزق الحواف، لكنِّي لم أنجح، وتلف القلب تمامًا، فقطَّعته إلى قطع صغيرة وألقيتها لكلبٍ ضال.

بعد أقل من أسبوعين خطر في بالي أنَّ استخدام إبرة رفيعة ذات خيط رفيع قد يكون مُجديًا مع تمزق حواف الجرح، فذهبت في الحال إلى جزارٍ واشتريت منه قلبَيْ خروفين كان قد ذبحهما في ذلك الصباح، استعملت الإبرة الرفيعة فكانت النتيجة أفضل كثيرًا من الأخرى السميكة وإن بقي هناك تسرب لا يمكن تجاهله، دوَّنت ملاحظاتي في دفتري، ووضعته جانبًا عندما حضرت إلى العيادة سيدة فاقدة الوعي، قال مرافقوها إنَّ أختها ماتت في الصباح، ودُفنت في مقابر القرية، وصفتُ لها أعشابًا مُهدئة، لكنِّي وجدت نفسي أذهب ليلًا إلى المقابر وكأنَّ شيطانًا يقودني، وأحفر قبر تلك الميتة، وأُخرج قلبها، وأعود به إلى عيادتي.

***

كانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مقابر القرية، لكنَّها لم تكن الأخيرة، إذ ذهبت إلى هناك بعد أقل من شهر واحد لأخرِج قلب امرأة عجوز ماتت وحيدة بلا أهل، وأذهب بعدها بأسابيع قليلة لأنزع قلب رجل مات بالحمى، وبعدها بأسبوع واحد لأنزع قلب طفلة سقطت من فوق حصان أبيها، ثم نقلتُ عيادتي إلى بيتٍ يطل على الطريق المؤدي إلى المقابر، وحينها صرت لا أفوِّت جثة طازجة دون أن آخذ قلبها إلى غرفةٍ جانبية في عيادتي من أجل التعلم على خياطة جروحه، حتى أتقنت تلك الخياطة تمامًا دون تسرب بعد سبعة شهورٍ نزعت خلالها ستة عشر قلبًا، لتحين خطوتي التالية: شق الضلوع بطريقة لا تؤذي الرئة أو الأوعية الكبرى أسفلها، وإغلاقها بإحكام من جديد، هذا الأمر الذي رأيته لا يقل أهمية عن إصلاح تمزق القلب، حينذاك ذهبت إلى حداد من قرية أخرى كنت قد داويته من قبل وأنا أعمل لدى السيد

رسلان، وطلبت منه أن يصنع منشارًا خفيفًا وحادًا للغاية يستطيع شطر ذبيحةٍ إلى نصفين في ثوانٍ، ووعدته بمكافأة مُجزية إن نجح في ذلك.

❊❊❊

عندما أحضر الحداد لي ذلك المنشار في عيادتي لمعت عيناي ببريقها وأنا أتحسس أسنانه الحادّة وصلابة فولاذه، وأعطيته عشر قطع نحاسية مقابلًا له، وفي الليلة نفسها ذهبت إلى المقابر وأخرجت جثة شاب طازجة وشققتها نصفين عند منطقة البطن، ثم فصلت الرأس عن النصف العلوي الذي وضعته في جِوالي وردمت القبر، وعدت إلى عيادتي حيث استخدمت سكيني لسلخ الجلد فوق الضلوع اليسرى، قبل أن أزيل عضلات الصدر في هدوء، وأشق الضلوع تباعًا بمنشارٍ صغير كان لديَّ، لأفتح الصدر أمامي، بالطبع كنت أعرف أنَّها لن تكون الطريقة التي أصل بها إلى قلب ناي، لكنَّها كانت الوسيلة المُثلى لدراسة جدار الصدر كي أجد طريقي الآمن إلى قلبها.

في خلال أربعة أشهر بعد ذلك اليوم أحضرت إلى العيادة ثلاثة عشر نصفًا علويًا من جثثٍ طازجة، استطعت من خلال تشريحها تدوين كل تفصيلةٍ عن جدار الصدر الأمامي، وإن لم أستطع إعادة تثبيت الضلوع التي قطّعتها بالمنشار في جميع المحاولات التي أجريتها باستخدام إبَري وخيوطي الطبية، لذا جربت خلال الثلاثة أشهر التالية طريقة شق عظمة منتصف الصدر باستخدام منشاري بعيدًا عن الضلوع لأجدها تستهلك وقتًا طويلًا وتستلزم دقةً شديدة إن فقدتها في أي لحظة لن أتفادى إصابة نسيج حيوي وراء تلك العظمة.

بعد قرابة خمسة شهور أخرى من المحاولات وصلتُ إلى الطريقة المُثلى التي لا أصيب بها أي نسيج هام عندما خطر في بالي عملي القديم وأنا أفصل لُحاء الأشجار السميك الملتصق بجذعها، لأكتشف أنَّني أخطأت باستخدام المنشار لشق عظمة الصدر وأنَّ استخدام السكين من خلال تجويف تلك العظمة العلوي هو الأفضل، وبعد أسابيع من استخدام تلك الطريقة وجدت أنَّ إضافة استخدام المطرقة فوق السكين يوفر وقتًا وجهدًا كبيرين، ثم رسمت هيكلًا لسكينٍ طرف نصله ذو بروزين جانبيين صغيرين بينهما فراغ يناهز سُمك عظمة الصدر مما

يُحكِم مسار السكين أثناء طرقي له بالمطرقة، وأعطيتها للحداد الذي صنعها لي بمهارة فائقة، ليصبح شق الصدر مع تلك الطريقة آمنًا وسهلًا وموفرًا للوقت في الآن ذاته، ولم تمر أيام بعدها حتى توصلت إلى طريقة إغلاق تلك العظمة عن طريق أسلاك نحاسية رفيعة تمر بين الضلوع لتحيطها بإحكام، لأتنهّد وأنا ألمس للمرة الأولى بعد مرور قرابة أربع سنوات ونصف على موت ناي أنني قادر أخيرًا على إصلاح قلبها، وإن لم أتوقف عن إجراء مزيد من التجارب في غرفتي الجانبية التي لا يدخلها أحد غيري.

حتى حدث ما لم أتوقعه بعد شهر فقط وقتما أخرجت جثة شيخ مات صبيحة ذلك اليوم، وبعدما عدت بنصفه العلوي إلى العيادة وبدأت أشق صدره سمعت نباح كلب مستمر في الخارج، لم أهتم بالأمر في البداية فعادةً ما تنبح الكلاب الضالّة في الليل خاصةً في الليالي المظلمة التي يغيب فيها القمر، لكن استمرار النباح حتى وقت الفجر جعلني أفتح النافذة متذمرًا وأقذف ذلك الكلب بحجر، فركض بعيدًا، فعدت إلى الداخل كي أكمل عملي، قبل أن يغلبني النعاس لأنهض في الصباح على صوت وقع أقدام تتحرك من حولي، وعندما نحت عيني وجدت سبعة رجال غاضبين يحيطون بفراشي وفي أياديهم سيوف وفؤوس، ويمسك أحدهم أيضًا بشيء ليس غريبًا عليَّ، رفعت يدي خائفًا ومتسائلًا عمَّا يحدث، فلكمني أحدهم لكمةً أفقدتني وعيي في الحال.

كان أولئك الرجال هم أبناء الشيخ الذي شققت جثته، والكلب النابح هو كلبه الذي لازمه أحد عشر عامًا، والذي شمَّ رائحة جسده في عيادتي قبل أن يجرَّ بأسنانه أحد أبناء الشيخ إلى المقابر، ويحفر بقدمه عاويًا ردم القبر في إصرار، ليلاحظ حينها ذلك الابن بقعة دم بجوار القبر، ويحفر القبر من جديد، ويكتشف اختفاء نصف جثة أبيه، بعدها قاده الكلب هو وإخوته إلى عيادتي، وقبل أن أنهض كانوا قد اكتشفوا الصندوق الذي أضع فيه نصف أبيهم، وأربعة قلوب أخرى، والقبو الذي دفنتُ فيه بقايا تسعة وعشرين نصفًا بشريًا، لأعلم وأنا أرى أحدهم يمسك قلبًا في يده أنَّ كل شيء قد انتهى.

***

جرُّوني مُكبلًا معصوبَ العينين بعد ساعات من الضرب المبرح إلى سجن القرية، فأدركت أنني سأخضع إلى قاضي القرى، وهو رجل ستيني كانت مهمته الحكم في القضايا الكبرى التي تحدث في قرى شمال غرب الغابة، وبعد ثلاثة أيام لم أذق خلالها إلا مزيدًا من الضرب على أيدي الجنود أخرجوني إلى المحاكمة التي أُقيمت في ساحةٍ كبرى تجاور حانة السيدة سارة، كان الناس يحتشدون فيها بأعدادٍ غفيرة ، عندما صعدتُ إلى منصة تلك الساحة هدر المحتشدون وصاحوا نحوي بكل أنواع السباب، وبدؤوا في إلقاء الحجارة تجاهي، لأصرخ متألمًا تسيل الدماء من كل أجزاء جسدي، ثم ساد الصمت المكان عندما صعد إلى المنصة ذلك القاضي، والذي سألني مباشرة:

- لماذا نبشتَ قبور موتانا؟

كنت أعرف أنني لا أملك مجالًا للإنكار، فقلت:

- كي أتعلم مُداواة مرضاكم، وقد تعلمتُ إصلاح القلوب المطعونة بالفعل.

ضجَّ الناس من جديد غير راضين بإجابتي، نظرتُ نحوهم في استعطاف خاصةً السيدة سارة التي وقفت بينهم تنظر نحوي في خيبة أمل. ألقى القاضي خطبةً طويلة عن حُرمة الموتى، وعن الشيطان الذي قادني لفعل تلك الجرائم، لم أكن في كامل تركيزي لخطبته مع الضعف الذي كنت أشعر به وشرودي في المصير الذي كنت أعلم تمامًا أنني على حافته، حتى انتهى فنطق حاكمًا بإعدامي شنقًا أسفل ضوء البدر متمسكًا بالعادة القديمة التي تميَّزت بها بلادنا، إذ اعتاد القضاة منذ قديم الأزل تحديد وقت شنق المذنبين في الليلة الثانية من التقاء شاهد الوادي مع البدر الآخر ظنًّا منهم أنَّ الأرواح الآثمة تهاجر عبر العابرات لتغتسل من ذنوبها، وبعد اختفاء الشاهد استمرت تلك العادة دون تغيير.

هلَّل الناس مع حكم القاضي، وبعدها أنزلني الجنود كي أركب عربة السجن، فانهال عليَّ بالضرب من استطاع منهم الوصول إليَّ، لتتحطم ثلاثة من أسناني العلوية، وعظمة وجهي اليسرى، وضلع أو أكثر من جانبي الأيمن، وأهوي صارخًا من شدة الألم بينما يواصل الجنود جرِّي بصعوبة إلى العربة،

حتى أركبوني فيها، وقادوها مرة أخرى إلى السجن، لأقبع هناك في انتظار حلول منتصف الشهر.

❁❁❁

غارقًا في بحر من المشاعر المتضاربة قضيتُ الأيام المتبقية على موعد إعدامي، كان أشدها قسوة هي خيبة الأمل التي شعرت بها بعدما ألقيت بنفسي إلى التهلكة قبل نهوض ناي، فكرتُ في الثلج الذي لا بد وأنَّه ذاب من حولها، كنت أعرف أنَّها بعد مرور كل تلك السنوات لم تدع لي مجالًا للشك في أنَّها امتلكت مزية الاحتفاظ بجسدها، لكنِّي دائمًا كنت أمتلك وسواسًا قويًّا بأنَّ نسيجها قد يصيبه التعفن إن تغافلت يومًا عن إبقائها في الثلج، صرخت كالمجنون رغم ألم صدري الشديد:

- نااي، أخرجوني، إنَّها تحتاج إلى الثلج.

ضحك الجنود في الخارج، ولم يعيروني اهتمامًا، فبكيت ثم صرخت مجددًا:

- أحضروا لي السيدة سارة، أحضروا لي السيد رسلان، أريد أن أقبِّل قدميهما كي يعتنيا بناي.

واصل الجنود تجاهلي، فطرقتُ بقبضتي على باب الزنزانة بقوة حتى أسبتها، ثم جلستُ باكيًا أندب حظي وأنا أضرب مؤخرة رأسي في الجدار بُنية تحطيمها، وبين هلاوسٍ لا تنقطع ليلًا ونهارًا وبكاءٍ وصراخٍ مرَّت أيامي المتبقية، حتى أتت الليلة الثانية من ظهور البدر في السماء، فأزال الحلاق شعري الطويل عن آخره، ثم وضع عصابة سوداء على عيني، وعقدها من الخلف ليعزلني عن العالم من حولي، بعدها جرَّني الجنود إلى العربة، وهناك تناهى إلى مسامعي صوت قعقعة الرعد الذي بدأ هادئًا بعض الشيء قبل أن يشتد فجأة، ويرافقه صوت سقوط الأمطار بغزارة، قال أحد الجنود الذين يرافقونني وهو يوقف العربة:

- لا بد أنَّ الإعدام سيُؤجل إلى حين توقف المطر، لم أرها غائمة هكذا منذ سنوات.

وهذا ما حدث بالفعل، إذ أبقوني في العربة لمدة طويلة جدًا استمرَّ هطول المطر خلالها، لدرجة أنَّني ظننت أنَّ إعدامي سيؤجل شهرًا آخر مع القرار بزوغ الفجر دون جديد، بيد أنَّ الطقس تبدَّل فجأة وتوقف المطر عن هطوله وسرعان ما سمعت المُنادي ينادي إلى أهل القرية بأن يخرجوا إلى الساحة كي يشهدوا إعدام نابش القبور، حينذاك تقدمت بنا العربة في الوحل، قبل أن تتوقف مرة أخرى لينزلني الجنود ويصعدوا بي سلم المنصة الخشبية، ويوقفوني بعصابة عيني في جانبٍ منها مدة أخرى من الوقت، بعدئذٍ سمعت صوت قائد الجنود يأمر جنده بجرِّي إلى المشنقة التي نُصِبَت في منتصف المنصة، حينها نزعوا عن عيني العصابة السوداء، فوجدت الحشود الهائلة تقف أمامي حاملين مصابيحهم ويحدقون إليَّ بأعين غاضبة، بحثت بينهم عن السيدة سارة، لكنِّي لم أبصرها، ثم نظرت بعيدًا نحو ظلال الجبال السوداء التي ظهرت أسفل ضوء القمر رغم الغيوم الكثيفة، وصرختُ بكل طاقتي:

- نااااي.

ضحك الجندي الذي كان يحرس زنزانتي واعتاد سماع ندائي باسمها، فواصلت صراخي:

- نااااي، نااااي.

ضحك الحاضرون، وبدؤوا يصيحون نحوي مستهزئين، فواصلتُ صرخاتي:

- نااااااي.

فأخذ بعضهم يلقي الحجارة نحوي وهم يضحكون، لكنَّ ضحكاتهم تحولت فجأة إلى ملامح قلق ودهشة وجمود، بعدما انقشعت الغيوم عن السماء فجأة، وظهر من أسفلها ما ظللت أنتظره كل تلك السنوات؛ شاهد الوادي.

22

سارة

خلف نافذة حانتي المُطلة على ساحة الإعدام كنتُ أجلس على الأرض لا أقوى على النهوض لرؤية مشهد شنق نوح، بل أخذت أبكي حزنًا عليه، فرغم بشاعة ما اقترفه بقي في داخلي جزءٌ يصدق نُبل هدفه، ويشفق عليه بعدما أضاع حياته وفاءً للملدية التي أحبها.

عندما تعالى الضجيج في الخارج عرفتُ أنَّ قائد الجنود أمر بجرِّه إلى المشنقة، ثم سمعت صراخه باسم ناي، فلم أستطع مسك نفسي عن مزيدٍ من البكاء بعدما وصلَت صرخاته إلى أذني وكأنَّها تقول: اعتني بناي من بعدي يا سارة، ثم حلَّ سكونٌ مفاجئ فأصابتني الحيرة بعض الشيء خاصةً أنَّني لم أعتد ذلك السكون عن حاضري الإعدامات قَطُّ، بالعكس كانت صيحاتهم في ذلك الوقت عادةً ما تتعالى لاعنةً المعدوم ومُحتفلةً بعقابه، ولمَّا طالَ ذلك السكون نهضتُ وفتحتُ نافذتي في فضول كي أتبيَّن ما حدث، فوجدتُ الجميع جامدين رافعين رؤوسهم نحو السماء محدقين إلى الشاهد الذي عاد إليها، ومنهم من ينظر إلى نوح مرتعبًا متخيلًا أنَّ صرخاته باسم ناي هي ما أعادت الشاهد إلى الظهور، حتى أنَّ قائد الجنود أوقف الإعدام في الحال، ثم تحوَّل السكون إلى حالة من الهرج والمرج عندما فوجئنا بمجموعة صغيرة من هياكل الذئاب العظمية تجري بين المحتشدين وتهاجمهم، لأدرك أنَّ أجدادنا فوَّتوا جثث بعض الذئاب ولم يدفنوها كلها في الوادي الأسود.

أثارت تلك الهياكل هلع الجميع، فركضوا متفرقين في جميع الاتجاهات مختفين ببيوتهم، بينما أحاطَ الجنود بقائدهم وبالقاضي، ونسوا أمر نوح

الذي ظلَّ واقفًا وحيدًا فوق المنصة ينظر إلى ما يحدث في جمود، وكأنَّه يظن أنَّها خيالات وأوهام يراها وحده فحسب، قبل أن يدرك أنَّها حقيقة ويحاول تخليص نفسه من الحبل المُقيِّد لمعصميه، حينذاك خرجتُ سريعًا وركبتُ حصاني، وركضت به نحو المنصة، لأصرخ إليه وهو يواصل محاولاته لتحرير قيده:

- هيا، لا يوجد لديكَ وقت.

قفزَ إلى صهوة الحصان خلفي، فركضتُ به نحو عيادته، بينما بدأ الجنود في ملاحقة هياكل الذئاب.

***

بعدما حررتُ معصميه بسكينٍ في عيادته، قال في حماسٍ شديد وهو يلملم أدواته الجراحية سريعًا:

- كنتُ أعرف أنَّه سيظهر يومًا ما، سأصلح قلبها سيدتي، سأصلح.

فتساءلتُ في قلق:

- ماذا إن كانت الفتاة قد نهضت بالفعل؟

قال:

- لا أظن، إنَّ الياخشال معزول عن السماء بصخور الجبل المائل فوقه. كانَ المكان مثاليًّا في تلك النقطة، عليَّ أن أصلح قلبها أولًا، ثم أخرجها إلى الفضاء المجاور ليصلها ضوء الشاهد.

ثم حملَ جرابًا قماشيًّا كبيرًا وضع فيه أدواته الجراحية ومصباحه وبعض الملاءات والضمادات وفستانًا نسائيًّا أبيض اللون، وانطلق بحصاني وأنا أركب وراءه نحو ياخشال ناي.

***

كان النهار قد طلع عندما وصلنا إلى هناك، فتح الصندوق فوجد الثلج قد صارَ ماءً باردًا، حملَ ناي منه، وانتظرني حتى أُغلِق الصندوق وأضع عليه

ملاءة نظيفة من الملاءات التي أحضرها معه، ثم أرقدها عليها برفق، بعدها أكمل مصباحه وأعطاه لي كي أمسك به، وفرش ملاءة نظيفة أخرى على الأرض بجواره، ووزَّع فوقها آلاته الجراحية التي بدا أنَّه جهزها جيدًا من أجل تلك اللحظة، شقَّ أولًا فستان ناي القديم مظهرًا نصفها العلوي بالكامل، ثم أمسكَ سكينًا صغيرًا وأحدثَ شقًّا رأسيًّا في منتصف صدرها تمامًا، تسارعت حينها دقات قلبي، فرغم أنَّني رأيت أبي كثيرًا وهو يعالج جروحًا وإصاباتٍ بالغة فإنَّني لم أحضر معه قَط وهو يشق صدر إنسان ويهم بفتحه، لم يعبأ نوح بأنفاسي اللاهثة، وأمسكَ بسكين آخر ذي بروزين صغيرين جانبيين عند طرف نصله، وغرزه في تجويف بأعلى عظمة منتصف الصدر التي ظهرت أمامنا، ثم أمسك بيده الأخرى مطرقة صغيرة، وبدأ يطرق بها على السكين، فبدأت العظمة تنشق رويدًا رويدًا في مسارٍ ثابت حتى شُقَّت عن آخرها، نظرتُ له في انبهار وأنا أفكر في أنَّه قد أجادَ تلك الطريقة من خلال تجاربه في الجثث التي أخرجها من القبور، ناجحًا فيما هدفَ إليه تمامًا، بعدها فُتح الصدر أمامنا باستخدام مُبعِدَين معدنيين، فظهر التجويف الصدري وما به من قلب ورئة وأوعية دموية أمام عيني، أبعدَ الرئة المُغطية لجزء من القلب، وسألني أن أقرِّب المصباح بعض الشيء، وأخذَ يفحص القلب مليًّا، حتى نظرَ لي باسمًا وهو يقول بارتياح واضح:

- إنَّ الرمح لم يخترق الجدار الخلفي للقلب، إنَّ الجدار الأمامي فقط هو ما أصيب، إنَّني محظوظ للغاية.

ثم قطعَ جزءًا صغيرًا من غشاء القلب وثبَّته فوق الجرح الظاهر أمامنا، قبل أن يبدأ في خياطته في هدوء وتركيز شديدين، تمنيتُ لو كان أبي موجودًا ليرى المهارة التي يخيط بها نوح الجرح، حتى انتهى فقال:

- أعتقد أنَّ الدماء ستتدفق إلى عروقها مع نهوضها، لقد أغلقتُ الجرح مثلما تعودتُ أن أفعلَ في تجاربي الناجحة.

قلتُ باسمة:

- ستصبح بخير.

هزَّ رأسه إيجابًا، ثم تأكَّدَ من عدم وجود إصابات أخرى في الرئة أو الأوعية الدموية، وأغلقَ القفص الصدري مجددًا، وباستخدام أسلاك نحاسية رفيعة مرَّرها من بين الضلوع بدأ يُحيط نصفي عظمة منتصف الصدر المشقوقة ويلفُّها بإحكام شديد، حتى أغلقت تمامًا، ثم خيَّطَ الجلد من فوقها، وترك إبرته جانبًا، وقالَ متنهدًا:

- لقد انتظرتُ أكثر من أربعة أعوامٍ ونصف حتى تأتي هذه اللحظة، ستتبيَّن النتيجة مع ظهور الشاهد ليلًا.

قلتُ وأنا أنظر إلى صدر الفتاة:

- أعتقد بعد كل ما حدث سينجح الأمر.

قال:

- أتمنى ذلك.

ثم سألني أن ألبسها الفستان الذي أحضره معه، وخرجَ لينتظرني في الخارج، ففعلتُ ما طلبه مني، ثم ناديته، فدلفَ إلى داخل الياخشال مجددًا، لنجلس بجوار ناي في انتظار حلول الليل.

❊❊❊

لم نتحدث كثيرًا خلال الساعات التي مكثناها ننتظر، إذ ظلَّ الفتى شاردًا طوال الوقت محدِّقًا نحو ناي، وكلما هُيِّئ له أنَّ الفتاة تتحرك انتفضَ من جلسته ليقترب منها، وعندما يتأكد من سكونها يعود مرة أخرى ليجلس بجواري، فأقول له باسمة:

- لم يأتِ الليل بعد.

فيهز رأسه في توتر ويواصل حملقته فيها.

عندما حلَّ الليل خرجنا من الياخشال، ونظرنا نحو الشاهد نظرةً طويلة، شعرتُ حينها بالاضطراب الذي يغمره كليًا قبل أن ينظر إليَّ وكأنَّه يريد مني كلمة تدفعه لفعلها، فقلتُ:

- لقد كانت اللحظة التي انتظرتها لسنوات وكدتَ تموتَ من أجلها.

قال:

- لم أظن أنّني سأكون مرتبكًا إلى هذا الحد.

قلتُ مشجعة:

- لقد فعلتَ ما عليك، إنّ انتظار النتائج دائمًا ما يرافقه قلقٌ، إنّه أمر طبيعي، هيا، لنرى كيف كانت مهارتكَ في إصلاح قلب الفتاة أيها الطبيب الماهر.

هزّ رأسه صامتًا بوجه يحتقن من الارتباك، ثم دلفَ إلى داخل الياخشال وحمل ناي، وخرجَ بها إلى رقعة أرض مكشوفة كنتُ قد فرشتُ بها ملاءة نظيفة وضعها عليها، لم نكن في حاجة إلى ضوء المصباح بعدما كان ضوء الشاهد والقمر الآخر كافيين لإظهار كل شيء، ورغم ذلك أحضر المصباح إلى جانبها، ووقفَ بجوارها ينظر إليها، فمددتُ يدي وأمسكت بيده التي كانت ترتجف، قال فجأة وكأنّه تذكر شيئًا:

- ستشعر بألم شديد عندما تنهض.

قلتُ باسمة:

- ما أكثرها الأعشاب المسكنة.

قبل أن أصرخ إليه عندما لاحظت بدء زوال شحوبها شيئًا فشيئًا، وكأنّ الدماء اندفعت في عروقها كماءٍ يتدفق إلى الأنهار الجافة، لتُعطي جلدها لونًا ورديًا فاتحًا، فزادَ ارتجاف يده قبل أن ينزل على ركبتيه بجوارها بأنفاس كنتُ أسمعها، ويفتح أزرار فستانها باضطرابٍ، ويُقرب المصباح من صدرها، ويمد طرف إصبعه إلى الجرح المُخيَّط في منتصف الصدر، ويقول غير مصدق:

- هناكَ قطرة من الدماء بين حافتَي الجرح كأنّكَ خيطت جرحًا حديثًا.

قلتُ:

- لقد بدأت المعجزة في الحدوث.

قال وهو يضع أذنه على صدرها الساكن:

- لم يدق قلبها بعد.

لكنَّه ما لبثَ أن فتح فاهه مذهولًا، وقال:

- لا، هناكَ دقات، ضعيفة نوعًا ما، لكنَّها دقات قلبية.

ثم رفعَ رأسه عن صدرها، وصرخَ:

- وهناكَ تنفس أيضًا.

قلتُ:

- لندعها تنال كفايتها من ضوء الشاهد، لدينا الليل بأكمله.

هزَّ رأسه موافقني بإيماءات مضطربة سريعة، وعادَ كالطفل ليجلس على بُعد خطوتين منها، لكنَّه سُرعان ما رجعَ إليها ووضعَ أذنه على صدرها، وقال:

- ما زالت ضعيفة.

ضحكتُ وأنا أقول:

- لم تمر دقيقة منذ آخر مرة سمعتَ فيها دقات قلبها.

فعادَ إلى مكانه وجلسَ وقتًا أطول تلك المرة.

***

شيئًا فشيئًا صارَت حركة صدرها ملحوظة، ولما عادَ نوح ووضعَ رأسه مجددًا صَاحَ في فرحة كبرى:

- صارت دقات القلب أقوى، يمكنكِ أن تضعي رأسكِ لتسمعيها.

قلتُ باسمة وأنا أستشعر دفء يدها:

- لا أحتاج لسماع قلبها، لقد نهضت أميرتكَ يا فتى، أعتقد أنَّها نائمة فحسب.

قالَ هامسًا وكأنَّه لا يريد إزعاج منامها:

- سأظل بجوارها حتى تنهض من تلقاء نفسها.

ضحكتُ وقلتُ:

- وأنا لن أغادر حتى أشهد لحظة لقائكما.

ضحك وربت على يدي شاكرًا، وأكملنا جلوسنا بجوارها، حتى طلعَ النهار ورحل الشاهد عن السماء، حينذاك جسَّ نبض شريان رقبتها في ترقب، وعندما تأكد أنَّه لا يزال محسوسًا مع اختفاء الشاهد استلقى بجوارها ناظرًا إلى السماء في ارتياح وكأنَّ حملًا ثقيلًا أزيل عن صدره.

بعدها بقليل أبصرتُ أصابع يد الفتاة اليسرى تتحرك، فصحتُ إليه، فوثبَ من رقدته، وحملقَ في يدها التي ارتفعت لتتحسس منتصف صدرها ووجهها الذي بدأ يعتصر تألما، قبل أن تفتح عينيها ببطء لتظهر مُقلتاها الصفراوان، وتلفت حولها مُحدقة إلينا، وقتها شعرتُ بتسارع دقات قلبي وهي تتفحص وجهي، قبل أن تحرك بصرها إلى نوح الذي بدأ يبكي، وتقول بصوتٍ واهن بعد لحظات من تأمل وجهه:

- ماذا حدثَ يا نوح؟ هل نجونا من الجنود؟ وأين أبي وأمي؟

أخذ ينشج بقوة، أما أنا فعدتُ إلى الخلف بضعة خطوات وعقلي يفكر أننا وإن حققنا المعجزة بعودة الفتاة مجددًا إلى الحياة، فما زلنا في حاجة إلى معجزة أخرى كي يتقبلها أهل القرى بعينيها الصفراوين بعد ما رأوه ليلة أمس من هياكل الذئاب الناهضة.

23

ذاهلةً ومصدومةً وغير مصدقة كانت ناي تستمع إلى نوح الذي أخذ يسرد ما حدث منذ طُعنَت بالرمح في قلبها حتى اللحظة التي نهضت فيها، بينما جلستُ بجوارهما أستمع إلى ما يقوله الفتى، وأؤمِّن على كلامه في كل مرة كان يومئ لي لأؤكد حدثًا ما.

في داخلي كنتُ أعذر الفتاة في ذلك الاضطراب الذي تشعر به، فمن ذا الذي يصدق ما حدث إن كان في موضعها، خاصةً مع إخفاء أمها عنها أمر احتمالية نهوضها إن قُتِلَت وظهر الشاهد من جديد، حتى انتهى نوح من سرد قصته من غير أن يذكر أمر إخراجه الجثث من القبور أو الحكم بإعدامه.

فقالت الفتاة:

- لا أصدق شيئًا من هذا، لكنّي أتعجب في الوقت نفسه من ملامح وجهك التي كبرت فجأة وكأنّك صرتَ رجلًا راشدًا بين يومٍ وليلة.

ابتسمَ وقال:

- سيظهر الشاهد في السماء مع حلول الليل، وعندما تبصريه ستصدقين كل كلمة قلتها.

تساءلت:

- وأين أمي وأبي الآن؟

قال:

- لا أعرف عنهما شيئًا منذ خطفتُ جسدك وجئت إلى هنا، لكنّي قد أرجعكِ إليهما حالًا إن أحببتِ.

قلتُ مقاطعة له:

- لا أظن أنّ تحرّكنا في الحال فكرة صائبة، لا بد أنّ الناس يعيشون الآن رعبًا حقيقيًا بعد ما حدث في الأمس، ومع انتشار الشائعات والخرافات بينهم لن تضمن رد فعلهم نحو ناي أبدًا إن رأوا عينيها.

زمّ نوح شفتيه وسألني:

- إذن ماذا نفعل؟

فكرتُ قليلًا ثم قلت:

- سأعود أولًا إلى الحانة لأحضر ثوبًا ذا قلنسوة لها، وعصابة قماشية سنغطي بها عينيها، ثم نبتعد بها إلى الغابة ليلًا عندما يأوي الناس إلى بيوتهم.

أومأ برأسه موافقني، فنهضت وركبت حصاني لأعود إلى الحانة، فوجدت الهرج والمرج لا يزالان يغمران القرية وكثيرًا من الجنود قد حضروا إليها من أماكن أخرى واصطفوا في صفوف منتظمة في الشوارع الرئيسية وساحة المحاكمات، سألت أحد المارّة عمّا يحدث، قال:

- إنّهم يستعدون للبحث في كل جانب عن أي عظام للذئاب قبل حلول الليل، وسمعت أخبارًا عن إجلاءٍ وشيك لأهالي القرْية، لكنّها لا تزال أخبارًا غير مؤكدة.

شكرته، ثم توجهت سريعًا إلى الحانة وأحضرت من غرفتها الخلفية فستانًا ذا قلنسوة كبيرة يناسب مقاس ناي، وقماشة سوداء نظيفة نسيجها رقيق بعض الشيء، وبعض الطعام، ومن إسطبلها حصانًا آخر، ثم توجهت إلى عيادة نوح وأحضرت بعض الأعشاب المسكنة التي كنت أعرفها منذ معيشتي مع أبي، وعدت مرة أخرى إلى نوح وناي، لأجده قد حطّم الباخشال بفأسه، فتساءلتُ مستغربة:

- لماذا فعلتَ ذلك؟

قال باسمًا:

كنتُ أنتظر اليوم الذي أحطمه فيه، وقد حان.

مسحتُ كتفي متعجبة وقلت:

- لقد أضعتَ أثرًا ربما يُحكى عنه مستقبلًا في القصص الرومانسية.

ضحكَ، ولم تضحك ناي التي كانت لا تزال في حالة الاضطراب التي أصابتها، فأعطيت لها الفستان الذي أحضرته، ثم لاحظتُ عدم قدرتها على رفع يديها مع شدة ألم صدرها عندما أرادت ارتداءه فوق ثوبها، فساعدتها وقلتُ وأنا أنظر إلى الشمس التي كانت في طريقها إلى الغروب:

- يبدو أنّ الفتاة في حاجة إلى الراحة لأكثر من يوم كي تستطيع التنقل، لكن للأسف علينا التحرك بها إلى الغابة هذه الليلة كما قررنا، قبل وصول الجنود الباحثين عن عظام الذئاب إلى هنا.

هزّ رأسه موافقًا وهو ينظر إلى الفتاة.

***

عندما ظهر الشاهد في السماء نهضت ناي من رقدتها بصعوبة وثبّتت عينيها عليه في ذهول وصمت تامَّيْن، كادَ نوح ينطق فقبضتُ على يده كي يتركها وشأنها في تلك اللحظة، ثم التفتت نحونا وكأنّها بدأت تصدق ما قاله نوح، فقال:

- لم أكذب عليكِ في كلمة واحدة.

تحركت إليه ببطء واحتضنته دون أن تقول شيئًا، فقط تساقطت دموعها على وجنتيها، قلتُ حينها:

- علينا أن نغادر الآن قبل أن يهاجمنا هيكل ذئب أو ملدي ناهض مثلك.

ومازحتها:

- مع كل الاحترام لكِ طبعًا.

ابتسمت، وهزّت رأسها إيجابًا، فركب نوح الحصان، وحملتها بمساعدته إلى ورائه، ثم ركبتُ الحصان الآخر، لنتحرك هابطين نحو الطريق الملتف

حول القرية الذي كان مهجورًا تمامًا في ذلك التوقيت، وعلى الرغم من ذلك حرصنا على إخفاء عينَيْ ناي بالعصابة القماشية، وإخفاء رأسها بالقلنسوة الفستان الكبيرة، حتى وصلنا إلى مشارف الغابة، وهناك أزلنا عنها القلنسوة وعصابة عينيها، وانطلقنا إلى أعماقها حتى قطعنا مسافة بعيدة من القرية. نعزمتُ على أن أتركهما وأعود أدراجي، لكنّ نوح رفض ذلك خوفًا من تعرضي لأي هجوم مفاجئ من الذئاب الناهضة، فوافقته بعد تفكير، وأكملت معهما الطريق إلى بيت والدَيْ ناي الذي وصلنا إليه مع طلوع النهار، وجدناه مهجورًا محطم الأبواب والنوافذ والأثاث، وشباك العناكب والأتربة تُعشش في كل أركانه، وفي فنائه الخلفي كانت توجد عربة متهالكة تحمل صهريج ماء قديم يغطيه التراب، قالت ناي في صدمة كبرى بعدما تفحصتها:

- أين ذهبا؟ ولماذا لا أشم رائحتهما في البيت أو في عربة أمي؟

تنهَّدَ نوح وقال في حزن:

- يبدو أنَّهما هجرا هذا البيت منذ سنوات، ربما غادراه بحثًا عنّي وعنكِ.

ارتسم الحزن على وجهها، فقلتُ:

- لا تقلقي سنبحث عنهما مستقبلًا، أمَّا الآن فأعتقد أنَّ هذا البيت مناسب لإخفائكِ هنا حتى تتضح معالم الأيام القادمة ويلتئم جرحكِ تمامًا.

اتفق نوح معي، ولم تعترض الفتاة، فبدأتُ أنا ونوح تنظف البيت وما يصلح من أثاثه، ولمَّا انتهينا مع حلول الليل اتخذت ناي غرفتها القديمة غرفة لها، فيما اتخذ نوح غرفة أبيها وأمها لمنامه، أمَّا أنا فبِتُّ ليلتي مع ناي قبل أن أغادرهما عائدة إلى قريتي في صباح اليوم التالي على وعد بعودتي إليهما في أقرب وقت.

❊❊❊

في خلال الأيام التالية استمرَّت حالة الهرج والمرج الممتزجة بالخوف والقلق في قُرانا، وتواصلت حملات الجنود الباحثة عن عظام الذئاب نهارًا، وعرفنا أنَّ الحاكم أعطى أوامره بمضاعفة سُمك طبقة القار المُغطية للأسوار

الموت وأحاطته بكتائب من الجنود، وانتشرت الأقاويل بين الناس أيضًا عن انتقال كل مَن يُشك في أمر حمله لصفاتٍ ملدية، فأخبرتُ نوح بذلك أثناء إحدى زياراتي له ولناي في بيتهما بالغابة، فأدركتُ أنَّ الفتى لم يكن ينوي مغادرة الغابة على أي حال وكأنَّه اكتفى من الدنيا بناي.

في تلك الآونة تعوَّدَ الجنود على إحراق أي عظام يجدونها نهارًا أمام العامّة من أجل طمأنتهم، والقِلّة القليلة من هياكل الذئاب التي كانت تنهض ليلًا وتهبط إلى قُرانا صيدت عبر فخاخٍ نُصِبَت وشباكٍ كانت تُقيد حركتها حتى طلوع النهار، لتتهاوى عظامها منفصلة، فيجمعها الجنود ويحرقونها هي الأخرى، أما ما أثار الرعب حقًّا هي الهياكل العظمية للملديين الذين هاجمونا فجأة بإحدى الليالي وهم يحملون سيوفًا لا أعرف من أين أتوا بها، في تلك الليلة قتلوا فقط من قريتنا ثمانين فردًا من بينهم ثلاثون جنديًا، وغادروا القرية قبل طلوع النهار، والغريب أنَّ الجنود لم يعثروا على أي أثرٍ لعظامهم خلال الحملات التي قاموا بها في الأنهر التالية بالجبال المجاورة، ليهاجمونا بعدها مرة أخرى ويقتلوا عددًا آخر من الرجال في قريتنا والقرى المجاورة، وللأسف كان من بينهم أبي ومساعده غنَّام. حينذاك أمر الحاكم بإخلاء قُرانا ونزوحنا جميعًا عنها، لتتحرك قوافل السكان نهارًا مُحاطةً بالجنود نحو الجانب الآخر من الغابة، أمَّا أنا فاتجهتُ إلى ناي ونوح لأعيش معهما على الرغم من شعوري بأنَّ محبتي للفتاة قلَّت كثيرًا بعد ما حدث لأبي، لكنِّي استمعتُ إلى جانبٍ ضئيل في داخلي كان يرى أنَّها لا تحمل أي ضغينة نحونا ولا تهتم بما يريده الشاهد أو هياكله الناهضة.

حزن نوح هو الآخر على مقتل أبي وواساني كثيرًا، فشكرته على ذلك، وشكرته على سماحي بالبقاء معهما حتى أستطيع العودة إلى قريتي بعد استقرار الأمور، لتمضي أيامي معهما متشابهة نُحضِر طعامنا من ثمار الغابة وماءنا بعربة أمِّ ناي من عينٍ كانت تنبع على مقربةٍ منَّا، ونتسامر مساءً لنتحدث في أي شيء إلى أن يغلبنا النعاس، وبين حينٍ وآخر كنت أذهب إلى قُرى شرق الغابة لاستقصاء ما وصلت إليه الأمور، حتى حدث ما لم نتوقعه

بعد شهرين من نهوض ناي إذ حدثتنا الفتاة فجأة بأنّها استقبلت أثناء نومها رؤيةً بثّها الشاهد، قالت إنّه يؤكد عجز ضوئه عن الوصول إلى الذئاب المدفونة ويوصي الملديين بالتوجه في جماعات إلى الوادي المُغطى بالقار كي يحرروا الذئاب، دقّ قلبي خائفًا مع معرفتي بأنّ هناك مئات الآلاف من الذئاب مدفونة هناك، وإن تحققت تلك الرؤية واستطاعت هياكل الملديين الناهضة إزالة طبقات القار فنحن هالكون لا محالة، وإن فكر جانبٌ في داخلي بأنّ بقاءهم خامدون نهارًا سيظل مزية كُبرَى تحقق النصر لجيشنا، بيد أنّ ناي استقبلت رؤية أخرى بعد ستة أسابيع تكشف ترتيب الشاهد للأحداث إذ وعد الملديين بعودة ذئب «صامون» من أجل فتح العابرات التي لا يستطيع فتحها دونه، ومن بينها عابرة بحيرة جِمارة التي ما إن ينبع ماؤها مجددًا حتى يذهب إليها كل ما هو ناهض ويغمر عظامه فيها، فيُكسَى لحمًا من جديد، ليبقى على قيد الحياة ليلًا ونهارًا، قال نوح حينذاك مرتعبًا:

- إذن لو عاد ذلك الذئب إلى بلدنا ستكون النهاية.

قالت:

- نعم، ينتظر الشاهد أن يعود ويزأر في أم العابرات التي لا أعرف عنها شيئًا سوى أنّها توجد في أنفاق عميقة بجبال الغرب.

فكرتُ وقتها في الذهاب إلى قادة الجنود لإخبارهم بأمر تلك الرؤى، لكنّ نوح أوقفني خشية أن يعلموا بوجود ناي بيننا، فانصعتُ له في النهاية خاصةً مع إعلان الحاكم القضاء على جميع الملديين الناهضين وإقامة الأفراح والاحتفالات بهذا النصر وإن أمرَ باستمرار خلو القُرَى الغربية من ساكنيها، لأكذّب نفسي بأنّ الأمور قد حُلَّت نوعًا ما ما دامت حُرِقَت هياكل الناهضين ولم يعد ذئب «صامون» إلى بلدنا، لتمر الأيام تباعًا دون جديد، حتى تلقّت ناي رؤيةً يبثُّ فيها الشاهد وعدًا جديدًا باقتراب عودة الذئب إلى وادينا، لتزداد حيرتي ما بين الحفاظ على ناي والحفاظ على بلدي، لكنّ القدر لم يُمهلني وقتًا من التفكير بعدما صادفَ بيتنا أحد الجنود المارين في الغابة، ورأى عينَيْ ناي التي لم تتخذ حرصها، وحينذاك حاول اعتقالها بينما كان

نوح يحضر الماء في ذلك التوقيت، حاولتُ منعه من اقتيادها، لكنّه لكمني وأسقطني أرضًا، قبل أن يصل نوح في اللحظة الأخيرة ويضرب رأسه مخلّصًا ناي منه، ثم نزع منه فأسه الحربية، وكاد يُجهز عليه إلا أنّه استطاع الفرار بحصاني الذي كان يرعى على مقربة منا، وقتها أدركنا أنّ بقاءنا في ذلك البيت أمسى مُحالًا بعد هروب الجندي واحتمال عودته ومعه كتيبة من الجنود، لذا غادرنا بعربة السيدة ريحانة والحصان الوحيد الذي بقي لدينا إلى مكان آخر في الغابة مبتعدين بقدر المستطاع عن بيتنا القديم، ليُشيّد نوح كوخًا آخر، وهناك أخبرته بأنّ رحلتي معهما قد انتهت وأنّني سأعود إلى قريتي حتى لو لم يعد السكان إليها، وعدتُ إلى حانتي المهجورة معي فأس الجندي الحربية، لأعيش بغرفتها الخلفية السفلية أتغذى على فواكه مجففة كانت مُخزّنة لديّ، ولا أتطلع لشيء سوى كذب رؤى ناي وعودة الأمور إلى طبيعتها، لأبقى قرابة شهر هناك بمفردي دون أن يمسّني ضرر أو ألحظ شيئًا جديدًا، قبل أن أسمع ذلك الضجيج المفاجئ في الحانة وأخرج إلى صالتها وأجد الغريبين خالد ومروة، ويخبراني قصتهما مع ذئب «صامون»، وأدرك أنّ النهاية التي كنّا نخشاها صارت على وشك الحدوث.

❀❀❀

قدتُ الغريبين إلى كوخ نوح وناي، كان خالد يصر على أنّ عظام الذئب تحولت إلى صخور في كل مرة كنت أحدثه فيها عن استحالة حدوث ذلك الأمر، أمّا مروة فظلّت صامتة تتطلّع إلى السماء المُضاءة بالشاهد الذي سطع نوره أكثر خلال اليومين الأخيرين، ثم تحول الحديث بيننا إلى قصة نوح وناي، فسردتها لهما كاملةً أثناء سيرنا، ليمر الوقت سريعًا حتى وصلنا إلى كوخهما، تعجب نوح من إحضاري شخصين غريبين، فرويتُ له ولناي قصتهما، لم يهتم خالد بالريبة التي بدت على وجه نوح وأخذ يسأل ناي عن الرؤى التي تلقتها من قبل، فأخبرته الفتاة بكل شيء تلقته في منامها منذ عودتها إلى الحياة، سألها إن كانت قد تلقت رؤية جديدة خلال الساعات الأخيرة، فأجابته نافية، فقالت مروة:

- إذن لم يصل الذئب إلى أم العابرات حتى الآن.

فقال خالد متعجبًا من سؤالها:

- تعلمين أنه استحالَ إلى صخور.

نظرت إليه بوجهٍ احمرَّ من الدماء التي اندفعت إليه، وقالت:

- لا، إنّني من وضعتُ الصخور في حقيبتك، لقد فرّت العظام منّي عندما أخرجتها أثناء نومك كي أفحصها.

استشاطت عينا خالد غضبًا، وصاحَ فيها:

- لقد أضعتِ علينا بأنانيتكِ سبيل خروجنا من هذه الأرض، ووضعتِ أهل هذا البلد أمام مصير مجهول لا أحد يعرف ماهيته.

صمتت الفتاة وكأنّها لا تجد كلمات تقولها، ثم بدأت دموعها تتساقط، فقالت ناي وهي تنظر إليها:

- لقد وعد الشاهد بعودة الذئب إلى أم العابرات، كان أمرًا مقدرًا سيحدث معها أو مع غيرها، لننتظر ونرى ماذا سيحدث أفضل من إلقاء اللوم على بعضنا بعضًا.

ألقى خالد بحقيبته بعيدًا، ثم لاذَ بصمته وهو يرمقْ مروة بنظراته الغاضبة، أمّا أنا فسألتُ ناي:

- كم من الوقت قد يلزم الذئب للوصول إلى هناك؟

أجابتني:

- لا أعرف، لكنّه سيحدث الليلة.

سألتها:

- وكيف سنعرف أنّ ذلك الأمر قد حدث؟

هزّت كتفيها، وقالت:

- لا أعرف أيضًا.

لكننا لم ننتظر طويلًا لنعرف إجابة سؤالي إذ سمعنا بعدها بقليل دويًا عنيفًا في السماء يشبه الرعد، تبعه صوت عواءٍ طويل كان يصدر أيضًا من السماء دون أن يستطيع أحد تحديد الاتجاه الذي يصدر منه، قبل أن تهتز الأرض من أسفلنا اهتزازًا قويًا أسقطنا جميعًا على الأرض، وأسقط كوخ نوح وبابا، وكثيرًا من الأشجار من حولنا، زحفنا جميعًا أسفل حطام الكوخ كي نحتمي من الأشجار الساقطة بينما وقفت ناي مكانها مُثبّتةً عينيها نحو شاهد السماء دون أن يرمش لها جفن، قبل أن تتوقف الأرض عن اهتزازها بشكل مفاجئ، فنهضنا من رقدتنا لنقترب منها، كانت لا تزال واقفة محملقة إلى الشاهد وكأنها لا تشعر بنا، هزّ نوح كتفها كي تفيق مما هي فيه، استمرت في تحديقها إلى الأعلى دون أن تلتفت إليه، بعد قليل نظرت إلينا وعيناها غارقتان بدموعهما، وقالت:

- كان العواء الطويل هو زئير الذئب داخل أم العابرات، لقد فُتحت العابرات من جوانبها الأخرى، إنَّ الشاهد يستدعي الآن غُزاةً من أزمنة قديمة عُراة الأبدان، كثيفي الشعر واللحى، أقوياء الجسد، يحملون أسلحة في أياديهم، ويركبون حيوانات ضخمة، ويقود بعضهم ذئابًا ونمورًا وحيوانات لا أعرفها، جحافل عظيمة لم تشهدها أي حرب من قبل ستأتي إلى أرضنا عبر عابرات الجبال مع التقاء الشاهد مع بدر الشهر القادم.

تساءلت مروة ذاهلةً:

- البشر الأوائل؟!

قالت ناي:

- لا أعرف لكنَّهم أشرار سيأكلون الأخضر واليابس حتى يصلوا إلى وجهتهم؛ وادي الذئاب المنسية، كي يحرروا كل ما هو مدفون هناك أسفل طبقة القار.

ونظرت إلى نوح، وقالت:

- ربما اختفيتُ خلال الستة شهور الماضية خوفًا على حياتي، لكن حانت اللحظة لتحذير قومنا أنّ وقوفهم في وجه الجحافل التي أراني الشامر صورها لن يكون إلا إبادةً لهم، علينا أن نسرع إلى شرق الغابة الآن ونخبر السادة والجنود والعامّة بما هو آتٍ إليهم مع التقاء البدريين بعد أقل من شهر.

24

خالد

ربما لو لم أذهب إلى أرض زيكولا من قبل لفكرت أنني عالق في أرض من الخيالات والمجانين واللامنطق، لكنّي وبعد كل ما رأيته في رحلتيّ السابقتين صارت جميع الغرائب أمرًا مُتقبلًا بالنسبة إليّ، لذا عندما أخبرتنا ناي عن رؤيتها الأخيرة لم أجد أنّ التوتر والخوف قد يُجديا نفعًا، وإنّما علينا أن نفكر بعقلانية في الخطوة التالية، والتي اتفقتُ فيها مع ما قالته الفتاة بأنّ حكام تلك البلاد وقاداته لا بد وأن يعرفوا بما هو قادم ليُطيح بأناسهم كي يُخلوا مزيدًا من القرى ويعزّزوا دفاعاتهم إن استطاعوا، بيد أن نوح أعلنها لنا صراحةً بأنّه لن يسمح أبدًا بذهاب ناي لإخبار أي فردٍ بالرؤى التي تلقتها، مؤكدًا أنهم لن يصدقوها، بل سيعتقلونها من أجل إعدامها أمام العامة، وبعد جدالٍ كبير بيننا وبينه انتهى الأمر بتشدقه بقراره، لتقول سارة في النهاية:

- حسنًا يا نوح فلتحتفظ ناي برؤياها، لكن علينا أن نتجه إلى شرق الغابة، بقاؤنا هنا لن يحمينا إن أتت تلك الجحافل وعثروا علينا في طريقهم.

بعد تردد طويل منه وتلقيه وعدًا من ثلاثتنا أنا ومروة وسارة بعدم إفشاء سر ناي مهما حدث وافق على تحركنا في الصباح إلى الشرق.

***

مع طلوع النهار غطينا عينَي ناي بعصابة قماشية خفيفة، وبصعوبة استطعنا استخراج فستانٍ قديم من الكوخ المهدوم، كانت ناي تحتفظ به من

ثياب أمها التي عثروا عليها في بيتها القديم، وارتدته مروة بدلًا من البنطال الجينز والسترة الصوفية التي كانت ترتديهما، خرجت ضحكةٌ رغمًا عني بعدما كان الفستان واسعًا جدًا عليها وممزقًا فوق فخذيها، لكنّه كان الحل المثالي لتدارك اختلاف ثيابها الواضح عن ثياب نساء هذا البلد، أما أنا فأعارني نوح معطفًا ثقيلًا ارتديته فوق قميصي دون أن أبدل بنطالي القماشي، ثم ركبنا جميعًا عربة السيدة «ريحانة» بعدما أزلنا صهريج المياه عنها، لينطلق بنا حصانها نحو الجانب الشرقي من الغابة.

عندما وصلنا إلى أولى القرى في طريقنا كانت الحياة عادية تمامًا، الشوارع مزدحمة بالأهالي، والأطفال يلعبون، والباعة يُنادون على بضائعهم، قالت سارة في ضيق وهي تنظر إليهم:

- لقد صدّقوا خطاب الحاكم بانتهاء الخطر، ولم يعد أحد يشغل باله بشاهد السماء.

نظرتُ إلى نوح الذي كان يقود العربة ويتلفت كثيرًا خوفًا من انتباه أي فرد إلى ناي التي تغطي رأسها بقلنسوة فستانها، وقلت:

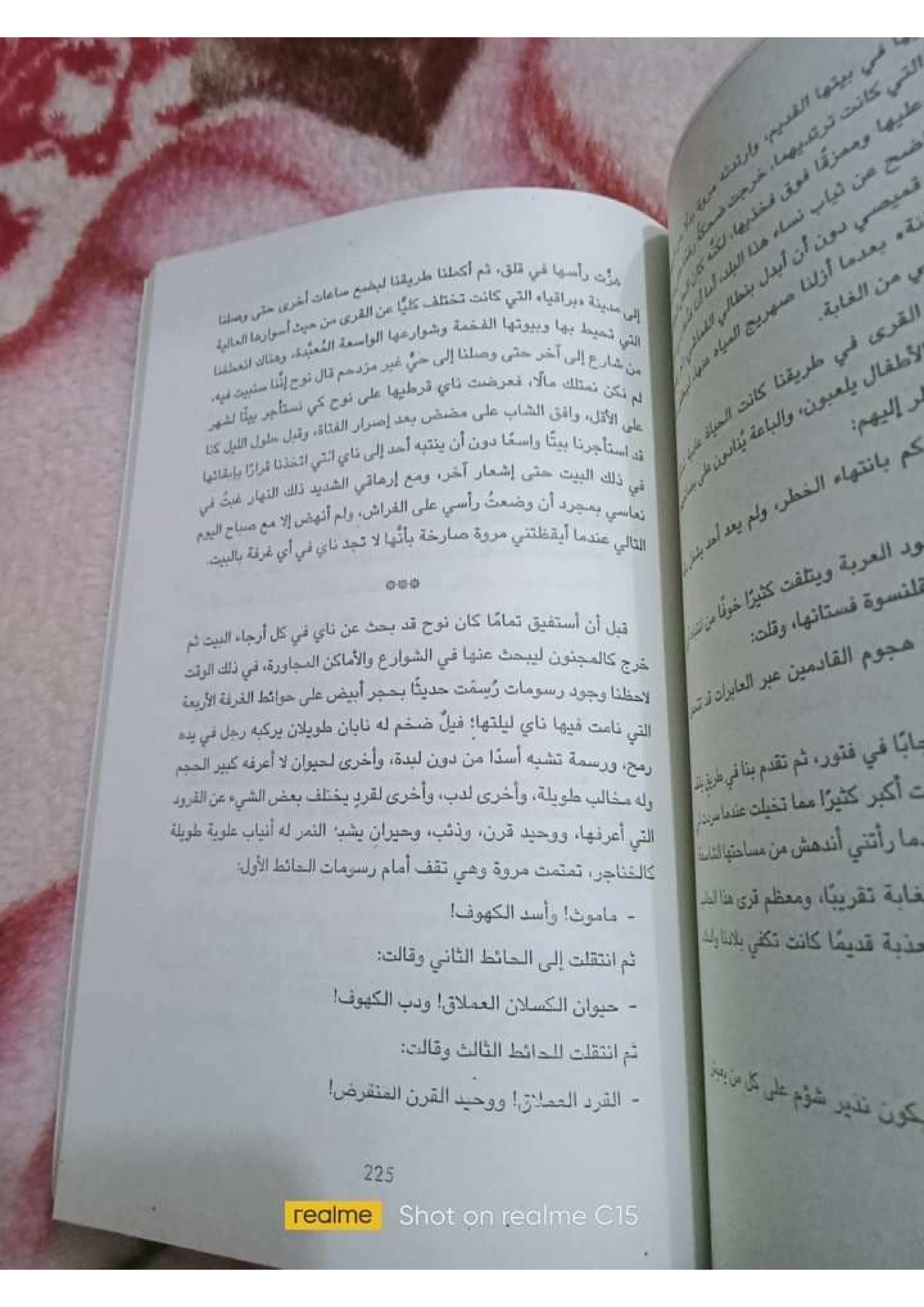
- إن ماتَ هؤلاء الناس نتيجة هجوم القادمين عبر العابرات قد نتحمل ذنبهم.

لم يكترث بما قلته، وهزَّ رأسه إيجابًا في فتور، ثم تقدم بنا في طريقٍ يلتف حول بحيرة «جمارة» الجافة التي كانت أكبر كثيرًا مما تخيلت عندما سردت لي سارة قصة ذلك الوادي، والتي قالت عندما رأتني أندهش من مساحتها الشاسعة:

- إنّها تحتل ثُلث مساحة شرق الغابة تقريبًا، ومعظم قرى هذا الجانب تطل عليها، ويُقال إنَّ مياهها العذبة قديمًا كانت تكفي بلادنا والبلاد الأخرى.

قلت:

- أعتقد أنَّ عودة مائها هذه المرة سيكون نذير شؤم على كل من يعيش في هذا البلد.



هزّت رأسها في قلق، ثم أكملنا طريقنا لبضع ساعات أخرى حتى وصلنا إلى مدينة «براقيا» التي كانت تختلف كليًا عن القرى من حيث أسوارها العالية التي تحيط بها وبيوتها الفخمة وشوارعها الواسعة المُعبَّدة، وهناك انطلقنا من شارع إلى آخر حتى وصلنا إلى حيٍّ غير مزدحم قال نوح إننا سنبيت فيه. لم نكن نمتلك مالًا، فعرضت ناي قرطيها على نوح كي نستأجر بيتًا لشهر على الأقل، وافق الشاب على مضض بعد إصرار الفتاة، وقبل حلول الليل كنا قد استأجرنا بيتًا واسعًا دون أن ينتبه أحد إلى ناي التي اتخذنا قرارًا بإبقائها في ذلك البيت حتى إشعار آخر، ومع إرهاقي الشديد ذلك النهار غبتُ في نعاسي بمجرد أن وضعتُ رأسي على الفراش، ولم أنهض إلا مع صباح اليوم التالي عندما أيقظتني مروة صارخة بأنها لا تجد ناي في أي غرفة بالبيت.

❁❁❁

قبل أن أستفيق تمامًا كان نوح قد بحث عن ناي في كل أرجاء البيت ثم خرج كالمجنون ليبحث عنها في الشوارع والأماكن المجاورة، في ذلك الوقت لاحظنا وجود رسومات رُسِمَت حديثًا بحجر أبيض على حوائط الغرفة الأربعة التي نامت فيها ناي ليلتها؛ فيلٌ ضخم له نابان طويلان يركبه رجل في يده رمح، ورسمة تشبه أسدًا من دون لبدة، وأخرى لحيوان لا أعرفه كبير الحجم له مخالب طويلة، وأخرى لدب، وأخرى لقردٍ يختلف بعض الشيء عن القرود التي أعرفها، ووحيد قرن، وذئب، وحيرانٍ يشب؛ النمر له أنياب علوية طويلة كالخناجر، تمتمت مروة وهي تقف أمام رسومات الحائط الأول:

- ماموث! وأسد الكهوف!

ثم انتقلت إلى الحائط الثاني وقالت:

- حيوان الكسلان العملاق! ودب الكهوف!

ثم انتقلت للحائط الثالث وقالت:

- القرد العملاق! ووحيد القرن المنقرض!

وأمام الحائط الرابع المرسوم عليه ذئب والحيوان الذي يشبه النمر قالت في نبرة خائفة:

- الذئب الرهيب، والسميلدون!

ونظرت نحوي وقالت:

- إنَّها حيوانات العصر الجليدي!

سألتها سارة في ترقب:

- ماذا يعني ذلك؟

أجابتها:

- لا بد أنَّها الحيوانات التي سترافق البشر الأوائل القادمين عبر العابرات. أعتقد أنَّ ناي تلقت صورًا واضحة لها في رؤيةٍ جديدة، ورسمتها على هذه الجدران كما رأتها تمامًا.

وأردفت بنبرة خوف واضحة:

- إنَّها وحوش ماضي أرضنا السحيق.

عاد نوح في تلك اللحظة من الخارج وقال مضطربًا:

- لم أعثر على ناي في أي مكان.

فقلت وأنا أنظر إلى الرسومات:

- لقد استشعرت الفتاة عِظم الخطر القادم إلى هذه الأرض، لذا غادرت بمحض إرادتها لتخبر سادة هذا البلد بما هو على وشك الحدوث غير آبهةٍ بما قد يحدث لها، وتركت لك هذه الرسومات كي تعذرها في قرارها.

التفتَ إلى الرسومات التي بدا أنَّه لم ينتبه إليها أثناء بحثه عن ناي في الغرفة بعد استيقاظه، وبعد استغراقه وقتًا طويلًا في تأملها خرج راكضًا من دون أن يقول شيئًا، فحاولت اللحاق به، لكنَّه ركب الحصان الوحيد الذي بحوزتنا وانطلقَ مبتعدًا.

❊❊❊

بعد خمسة أيام كاملة عاد نوح أخيرًا، كان واضحًا على ملامحه أنّه لم ينم ليلة واحدة خلال تلك الأيام، سألته سارة على الفور:

- هل وجدتها؟

أجابها في اقتضاب:

- كما توقعتم، لقد ذهبت إلى قصر الحاكم، لم أستطع معرفة شيءٍ عنها سوى أنّ أحد حراس القصر أخبرني أنّ ملدية مبصرة قدمت إلى هناك نجرًا، وأصرّت على مقابلة الحاكم بنفسه من أجل أمر مهم.

وفي حزن شديد تابع:

- قال أيضًا إنّها تقبع في سجن القصر منذ ذلك الحين، ولم يخبرني بأي معلومةٍ إضافية. بقيتُ هناك خمسة أيام محاولًا الوصول إليها، لكنّي لم أستطع، ومع قلة حيلتي عدتُ إليكم كي نفكر معًا، أخشى أن يعدموها يوم التقاء البدرين.

قلتُ مواسيًا له وأنا أربت على كتفه:

- سنجد حلًّا يا فتى، لطالما عُقِّدَت الأمور ووجدنا لها مخرجًا.

تركني وتقدم إلى غرفته في حزن شديد، فسألتني مروة:

- فيمَ تفكر؟

قلت:

- لا أعرف، لم يعد أمامنا سوى الانتظار لنرى ما سيفعله القدر بنا.

قالت سارة:

- سأذهب إلى ذلك القصر، سأخبرهم بصدق الفتاة، وسأفعل كل ما في وسعي ليستمعوا إليها، لن أجلس هنا كالحجارة، وهناك فتاة بريئة وآلاف غيرها على وشك الموت.

قالت مروة:

- أعتقد أنَّ عليَّ الذهاب أنا الأخرى أيضًا، إن كنّا سنموت في جميع الأحوال فلن أجلس مكتوفة الأيدي هنا، علينا أن نُجري محاولةً لإجبارهم على الإنصات إلينا قبل فوات الأوان.

نظرتُ نحوهما مفكرًا، ثم قلت:

- حسنًا، لنجري تلك المحاولة.

حينذاك خرج نوح من غرفته وقال:

- سآتي معكم أنا أيضًا.

❁❁❁

قبل أن نتحرك إلى قصر الحاكم ارتدت مروة ثيابها التي أتت بها معي من مصر مرة أخرى معتقدةً أنَّ شعور السادة بغرابة ثيابها ولهجتها قد يفتح في عقولهم بابًا للتفكر والنقاش، فاقتنعتُ بحجتها وخلعتُ معطفي الذي استعرته من نوح أنا أيضًا، ثم انطلقنا إلى هناك تقودنا سارة التي عرّفت نفسها إلى أحد جنود الحراسة الواقفين أمام بوابة القصر، نظر الجندي مستغربًا نحو مروة ونحوي قبل أن يغيب لدقائق ويعود ليقودنا إلى ممر داخل القصر الضخم المُحاط بحديقة واسعة من أشجار الفاكهة والورد، قالت سارة ونحن نتقدم من ورائها:

- لا أعرف هيئة الحاكم، إنَّها المرة الأولى التي أراه فيها.

وقال نوح الأمر نفسه، لكنَّنا لم نأخذ وقتًا طويلًا لنكتشف أنَّنا متجهون نحو أحد قادة الجيش وليس الحاكم نفسه، قال القائد الشاب الذي دلفنا إليه:

- أخبرني الجندي أنَّكم جئتم من أجل أمر عاجل يخص شاهد السماء والطلبة السجينة.

قالت سارة:

- نعم سيدي

وبدأت تقص عليه قصة ناي ونوح مستشهدة بالندبة التي تشق منتصف صدر الفتاة، وكيف نهضت بعد سكون قلبها لأكثر من أربع سنوات ونصف، ثم بدأت تروي قصتي أنا ومروة، فاستأذنت منها أن أحكي ذلك الشق، وبدأتُ أروي قصتي منذ إخراجي عظام الذئب إلى اللحظة التي وصلت فيها إلى ذلك الملك عبر سرداب فوديك، وعن الرؤية التي رأتها ناي يوم سُمع العواء في السماء واهتزّت الأرض بقوة، ظلّ يستمع إلينا دون أن يعقّب بكلمة، ولوهلة استشعرنا أنّه يصدق حديثنا، حتى انتهينا فتركنا وغادر لأكثر من ساعتين، كنا نعرف أنّه يناقش خلالهما أمرنا وأمر رؤى ناي مع حاكم البلاد، قبل أن يعود ومن دون أي مقدمات فوجئنا بالجنود يقتادوننا بغلظةٍ إلى خارج تلك القاعة، ويهبطون بنا إلى ممرات سفلية متشعبة شبه مظلمة، حتى انتهى بنا الحال إلى سجن القصر السفلي، أنا ونوح في زنزانة، وسارة ومروة في زنزانة أخرى سمعنا صوت إغلاق بابها على بعد أمتارٍ منا دون أن نعرف ما إن كانت تلك الزنزانة فيها ناي أم لا، قال نوح في يأس بعدما أغلق باب زنزانتنا:

- انتهى الأمر، لا يريدون أن تنتشر رؤى ناي بين الناس فيشيع الخوف والفزع بينهم فلا يستطيعون السيطرة عليهم، إنّ ذلك الحاكم ومعاونيه ليسوا من هذا البلد، ما إن يشعروا بالخطر سيغادرون البلاد في الحال ليتركوا أهلها يواجهون مصائرهم بأنفسهم.

قلت:

- أظن أنّنا فعلنا ما هو صائب في حدود إمكاناتنا، كان لا بد أن نأتي إلى هنا ونخبرهم بحقيقة ما نعرفه، من يدري لعلّ أحد أولئك القادة يفكر ويتخذ قرارًا يحمي به الكثيرين.

قال بنبرة اليأس نفسها:

- أخبرتكم أنّه لا جدوى من ذلك، سنبقى هنا في هذا السجن حتى تنطفئ جثثنا، كان علينا أن نبقى في الغابة، لقد أفقدتموني حبيبتي فحسب.

صحتُ فيه:

- لستَ الوحيد الذي فقدَ حبيبًا، جميعنا لدينا أحباء لا نعرف عنهم شيئًا، أنتَ فقط تنظر إلى الأمور من منظورٍ ضيق للغاية.

لاذَ بصمته قبل أن يغمغم:

- لم نأخذ من الغرباء إلا كل أذى، قديمًا اللصوص السمر الذين قدموا عبر العابرة وقتلوا الذئب، وأنتما الآن بعدما فقدتما الذئب.

سكتُّ أنا الآخر، لكنّي عدتُ بعد دقائق وسألته مستغربًا وأنا أتذكر مشهد الهجّانة الذي رأيته في الرؤى التي أبصرتها وأنا أمسُّ رأس ابني يامن أثناء مرضه، وأفكر أيضًا في أنَّ سارة أخبرتني أنَّ اللصوص لم يتمكنوا من الوصول إلى بلادهم مع مطاردة ذئب «صامون» وباقي ذئاب العابرات لهم:

- كيف عرفتَ أنَّ اللصوص كانوا سُمر البشرة؟!

قال بغير اكتراث:

- لقد أخبرني السيد «رسلان» والد السيدة «سارة» ذاتَ مرة عن أحد اللصوص الذين استطاعوا النجاة حينها، وعالجه معلم سيدي ودوّن قصته الكاملة في كتابٍ كنت على وشك قراءته لولا أن طردني سيدي من عيادته قبل أن أشرع في ذلك.

حينذاك تسارعت دقات قلبي، وسألته:

- أين ذلك الكتاب؟!

قال:

- إنَّه في عيادة سيدي، هناك في إحدى قرى الغرب، كتاب يحمل عنوان «قصة المصاب الأسمر».

فكرتُ في أنَّ ذلك الكتاب قد يكون أمل رجوعي إلى قريتي إن استطعت النجاة بعد تلك الحرب الوشيكة، ثم وجدت نفسي أضحك عندما تذكرت الكتاب الذي ظللت أبحث عنه في أرض زيكولا فاقدًا كل وحدات ذكائي، وكأنَّ التاريخ يُعيد نفسه، سألني نوح عمَّا يضحكني، فقلت:

- لا شيء.

وسألته عمّا إن كان يعرف أي معلومات أخرى عن الكتاب، فأجابني:

- لا، كل ما أعرفه أنّه يقبع هناك بين كتب سيدي في المكتبة السفلية، لا بد وأنّه غارق بين الأتربة الآن.

أومأت برأسي إيجابًا، ثم سادَ صمتٌ طويل بيننا.

❁❁❁

مرّت الساعات والأيام تباعًا دون أن يحدث أي جديد، فقط يُفتح باب الزنزانة بين حين وآخر كي يلقي لنا جندي الحراسة قطعتين من الخبز ويغلقه مجددًا، ومع مرور الأيام وشيوع الظلام ليلًا ونهارًا في الزنزانة بسبب انغلاق جدرانها من كل جانب فقدنا الإحساس بالوقت ولم نعد نعرف كم مرّ من الأيام، ليتسرَّب إليَّ الإحساس بأنّ نوح كان محقًّا عندما قال إنّنا سنبقى هناك حتى تتحلل جثثنا.

حاول نوح أكثر من مرة نداء السيدة سارة التي ظننا أنّها محبوسة هي ومروة في زنزانة قريبة، لكنَّ إجابتها لم تصلنا قَطُّ، تعرفتُ على الفتى أكثر في تلك الأيام بعدما أباحَ لي بما فعله من أجل ناي، أيْنعم شعرت بالتقزز نوعًا ما عند حديثه عن الجزء المتعلق بنبش القبور وشق صدور الموتى، لكنّي احترمت فيه ولاءه لحبيبته ووفاءه بوعده إليها، ذلك الوعد الذي كان من شأنه أن يغيِّر موازين حرب كبرى لو نحّى القادة غرورهم واستمعوا إلى ناي أو إلينا، حدثتُه أنا أيضًا عن رحلاتي إلى زيكولا وعن سرداب فوريك، ظل مستغربًا وجود عابرات بين العوالم غير العابرات الست، فاتفقتُ معه أنّ السرداب ربما يكون عابرة إضافية لا يعرف عنها أحد، ولا يتحكم في إغلاقه الشاهد، أو ربما يتصل بالعابرات بطريقةٍ ما لا نعرفها، لكنّه يبقى أمرًا حقيقيًا لولاه لما كنت سجينًا معه في زنزانة واحدة، حكيت له أيضًا عن مني وياس، تمنى لولدي الشفاء وحدثني عن أمه التي يفتقدها، وعن أبيه القط الذي قتله بعد وشايته عن ناي، لأدرك يومًا بعد يوم كم التضحيات التي قام بها ذلك الفتى من أجل حبيبته، ويقودنا الحديث إلى الملك تميم الذي حرك

جيش بلاده من أجل إنقاذ الطبيبة أسيل، شعرتُ بغيرته وكأنّه تصوُّر أنّه أكبر من ضحّى كي ينقذ حبيبته، فضحكتُ وقلت:

- كلٌّ يُضحي وفقَ إمكاناته.

لتمر الأيام تباعًا ونحن نروي في يأس القصص ذاتها كل يوم تقريبًا، ويزداد يقيننا مع مرور الأيام بأنّ الهلاك قادم لا محالة، ليس هلاكنا فحسب بل هلاك البشر جميعهم في هذا البلد، حتى حدث ما لم نتوقعه بعدما فُتح باب الزنزانة للمرة الثانية خلال وقت قصير، ونُفاجأ بجندي يأمرنا بأن ننهض ونرافقه، ويقتادنا عبر السلالم والممرات العلوية إلى قاعة كبرى كانت تحتشد بكثيرٍ من القادة الواقفين بدروعهم في إطار بيضاوي على الجانبين، بينما يقف في نهاية القاعة قائدان، أحدهما يناهز الستين من عمره وينظر إلينا، والآخر يعطينا ظهره، شعرتُ بأنّ الذي ينظر إلينا هو حاكم هذا البلد، ودقّ قلبي تفاؤلًا بأنّه أراد أن يسمعنا أخيرًا، قبل أن يلتفت إلينا الآخر، لأتوقف مكاني مُجمدًا حينَ قال باسمًا:

- عودًا حميدًا إلى عالمنا أيها الغريب.

همستُ غير مصدق وأنا أحدق إلى ملامحه التي لم تتبدل كثيرًا عن آخر مرة رأيته فيها:

- الملك تميم؟!

25

خالد

تقدّمَ نحوي ومَدَّ يده قائلًا:

- يبدو أنَّ القدر أرادَ لقاءنا مرة أخرى يا صديقي.

مددتُ يدي والذهول لا يزال على وجهي:

- ظننتُ أنني في عالمٍ آخر غير عالم زيكولا وأماريتا بعدما لم أجد أحدًا يعرف عنهما شيئًا.

قال باسمًا:

- إنَّها قصة طويلة سنرويها لاحقًا، لكن علينا التركيز الآن على ما هو أهم.

ينظرَ إلى حاكم وادي الذئاب بجواره، وقال:

- لم أخطئ في توقعي سيدي حين سألتكَ رؤية الشخص الذي يزعم قدومه من عالم آخر، إنَّه صديقي القديم «خالد حسني»، وهو صادق تمامًا بكل كلمة قالها عن نفسه، وأسألكَ أن يتمتع ببعض الصلاحيات هنا.

ثم نظرَ إليَّ وقال:

- لم يعد إلا ثلاثة أيام على التقاء البدرين، هيا يا صديقي علينا أن نتحدث عن كل شيء تعرفه.

تلفّتُّ حولي، كانَ نوح يقف ذاهلًا يحدق إلى الملك تميم، بينما ينظر إلينا بنظرة الثاقبة، فقلتُ للملك تميم:

- هناك ثلاث نساء أخريات ما زلنَ في السجن، نحن في حاجةٍ إليهن.

نظرَ إلى الحاكم من غير أن يقول شيئًا، فأومأ الحاكم برأسه وسرعان ما أشارَ بيده إلى أحد حُراسه، فغادرنا الحارس وعادَ بهن بعد دقائق إلى قاعةٍ كنا قد دخلنا فيها أنا ونوح والملك تميم وقائد جيوشه السيد «جرير» وحاكم وادي الذئاب والقائد الذي قابلناه في أول مرة دلفنا فيها إلى القصر، حيث جلسنا حول طاولة بيضاوية كبيرة تغطي سطحها خريطة مجسمة لتضاريس وادي الذئاب من شرقه إلى غربه، قالت مروة مذهولة وهي تدلف إلى القاعة وتراني أجلس أنا ونوح دون أغلالٍ حول الطاولة:

- ماذا حدث؟! هل صدقوا حديثنا؟!

أشرتُ لها كي تجلس على أحد المقاعد من غير أن أفسِّر لها شيئًا، بينما دلفت سارة في صمت، فقط نظرت إلى الملك تميم والحاكم في ترقبٍ وتعجبٍ وهي تتخذ مقعدها، وبعد دقائق أخرى أتى أحد الجنود بناي، فنهض نوح سريعًا واحتضنها، فطمأنته أنَّها بخير، ثم جلسا.

قال الملك تميم:

- لمن لا يعرفني منكم، إنَّني الملك تميم حاكم أماريتا.

نظرت إليه مروة بحدقتين متسعتَين فاتحةً فاها بينما كان يتابع:

- لقد وصلتُ على رأس جيشٍ مُجهز تعداده أربعمائة ألف مقاتل من أجل حماية هذه الأرض من الشر القادم، والآن أريد سماع كل شيءٍ تعرفونه دون إغفال أي تفصيلة قد تظنون أنَّها غير مهمة.

فبدأنا في سرد كل شيء حدث بإسهاب كبير؛ أنا وقصتي مع قبر الشيخ موسى وذئبه، وما حدث لابني يامن، وتحدث نوح عن الجزء المخفي من النبوءة وما حدث قُبَيل لحظة تنفيذ إعدامه، وتحدثت ناي عن كل شيءٍ رأته في رؤياها منذ عودتها إلى الحياة، وبعد قرابة ستة ساعات من سرد القصص جميعها تخيلتُ أنَّ نقاشًا ما سيدور بيننا عن كيفية صد الغزو القادم، لكنِّي فوجئت بطلب الملك تميم مغادرتنا جميعًا القاعة بعد انتهاء قصصنا بينما

... الحاكم والقائدين متعللًا بأننا نحتاج إلى الراحة بعد الأيام العصيبة التي قضيناها في السجن. وبالفعل قادنا حراس القصر إلى غرف كبيرة مجهزة بأفخم الأثاث والفراش وموائد الطعام في مبنى كبير مُلحق بالقصر. ... في غرفتي وعقلي ينشغل بتساؤلات كثيرة منها: كيف لا يعرف أحد ... هذا البلد عن زيكولا وأماريتا؟ وإن كانت تلك البلاد بعيدة عن هذا الوادي كيف وصل الملك تميم إلى هنا؟ وكيف استطاع إقناع حاكم الوادي بإدخال جيوشه إلى البلاد دون مقاومة؟ وماذا ينوي فعله أمام مئات الآلاف من الوحوش القاتلة رفق رُقى ناي؟ وذلك التساؤل الذي كنت أعرف أنه ليس في محله ... انشغل في ذهني أيضًا: أين أسيل؟

لكنني لم أستطع النوم، وحاولتُ الخروج للقاء نوح أو مروة أو سارة، لكنني وجدتُ باب الغرفة مُغلقًا من الخارج، فمكثتُ أنتظر على حافة سريري في غضب شديد بعد شعوري بأنني حبيس في تلك الغرفة قبل أن يُطرق الباب بعد ثلاث أو أربع ساعات، ويدلف أحد الحراس ويخبرني بأنّ الملك تميم في انتظاري بحديقة القصر.

❁❁❁

كان يقف محدقًا إلى شاهد السماء عندما تقدمتُ إليه وقلت بنبرة غاضبة:

- هل أخرجتنا من سجنٍ مظلم لتحبسنا في سجنٍ أكثر فخامة؟

نظرَ نحوي وكأنّه لا يفهم مقصدي، فتابعتُ:

- تلك الغرفة التي حبستنا فيها الساعات الماضية.

ابتسمَ وقال:

- أردتُ ألا يزعجكم أحد فحسب، ربما أساءَ الحراس فهمي، بالطبع لك ولأصدقائك حرية المغادرة في أي وقت، لكنّي أحب طريقة تفكيرك وأظن أنّني سأكون في حاجة إليك.

زالَ غضبي سريعًا بعد كلمات إطرائه، ثم سألته عندما بدأنا التمشية حول الحديقة:

- كيف لا يعرف الناس هنا عن زيكولا وأماريتا؟

أجابني:

- إنَّ هذه البلاد معزولة عن الجنوب ببحر عظيم من الرمال المتحركة جعلهم يظنون أنّه لا تُوجد بلاد جنوبه، وجعلنا نظن أنّه لا توجد بلاد شماله، حتى ظهرَ الشاهد في السماء قبل قُرابة سبعة أشهر ونهضت بعض هياكل الذئاب في بلدنا، وحدثنا أحد المُعلِّمين عن قصة هذا الوادي التي ذُكرت في كتابٍ ألفه أحد المهاجرين منه، والذي تتبع طريقًا سريًا بين الرمال المتحركة أظهره الشاهد وقت حرب الذئاب كي تفر الذئاب والمدينون عبره، ليصل إلى جنوب بحر الرمال حيث دوَّن كتابه.

في البداية عندما عرفتُ بقصة الوادي وقصة الشاهد ونهوض الذئاب قررتُ إدخال جيشي إلى أسوار أماريتا والاستعداد للدفاع من الداخل إن أتانا ذلك الغزو، لكنِّي سُرعان ما فكرتُ في مصير الناس هنا، وكيف سيواجهون الأمر إن صدقت النبوءة ونهضت كل ذئاب الوادي الأسود مثلما ذكر الكتاب، ففارقني النوم تفكيرًا في أولئك القوم، وغمرني شعور كبير بالذنب إثر قراري بالتخلي عنهم، ولم يسترح بالي حتى أرسلتُ أفضل مقتفي الطرق على أسرع الجياد كي يخبروني إن كان ذلك الطريق قد ظهر مجددًا وسط بحر الرمال مع عودة الشاهد إلى السماء أم كان شيئًا من خيال مؤلف الكتاب؟ وبالفعل عادت غربانهم بعد خمسين يومًا برسائلٍ تخبرني بعثورهم على طريق متعرج ضيق بين الرمال المتحركة بالكاد يسير به ثلاثة جياد متجاورة استطاعوا تجاوزه إلى وادي الذئاب الذي يعيش فيه عدد عظيم من الأهالي، فلم يأخذ الأمر ساعة نقاش بيني وبين الملكة أسيل كي أقرر المجيء بجيشي إلى هذا البلد من أجل حماية أهلها من ذلك الشر القادم.

احمرَّ وجهي عندما ذكرَ اسم أسيل ونعتها بالملكة، لكنِّي تداركتُ اضطرابي سريعًا، وقلت:

- مبارك لكما الزواج.

ابتسم وقال:

- لقد مرّت تسع سنوات على زواجنا ولذا لم نحظ بمعاني العهد بعد.

وتابع باسمًا:

- تعرفها جيدًا، لم تكن لتعارض قرارًا قد ينقذ آلافًا من الناس، لذا جهزتُ جيشي بأكمله في أيام، والمجانيق الضخمة التي أدركنا أنها لن تستطيع عبور ممرنا المُنتظر فككناها كي نُعيد تجميعها هنا، ثم تحركنا من مينائنا بسفننا إلى الشمال، ومنه إلى هنا عبر ممر بحر الرمال الذي أظهره الشاهد بوضوح ليلًا.

ثم نظرَ إلى تمثال حاكم وادي الذئاب الذي يتوسط الحديقة، وقال:

- كان ذلك الرجل ذكيًا عندما أرسلتُ إليه رسولًا أخبره من خلاله عن سبب قدومي بجيشي وأعطيه كلمة شرف بأنني لستُ غازيًا، فأدرك أنَّ بعدد قواته لن يستطيع إيقافي، وأعتقد أيضًا أنه على الرغم من إعلان انقضاء خطر الذئاب والملدبين الناقضين كان يعلم في داخله أنَّ الأمر لم ينتهِ بعد، وأنَّ هناك شيئًا غامضًا سيحدث، خاصةً مع إخباره بما رأته ناي، فآثر استقبالي، وعندما التقينا أكدتُ له هدفي من المجيء بجيشي كل هذه المسافة، وأنني صديق لا عدو، فحدثني عن غريب علم قدومه إلى بلاده عبر سرداب، فتوقعتُ أنه أنت، وأنت تعلم البقية، هذا ملخص سريع لما حدث في الشهور الماضية.

هززتُ رأسي معجبًا بمروءته، وتساءلتُ:

- هل الملكة أسيل بخير؟

قال:

- نعم، إنَّ الشعب يحبها إلى درجة العشق، وأنا كذلك، ربما نقابلها إن نجونا مما هو قادم.

ابتسمتُ وقلتُ:

- ننجو أولًا وحسب.

ثم سألته:

- ألم تندم على قدومك إلى هنا بجيشك بعد ما سمعته من ناي؟

هزّ رأسه نافيًا وقال:

- لقد تأكدتُ مع رؤى ناي أنّ عودة تلك الذئاب للحياة لن يكون منه الانتقام من بشر هذا الوادي فحسب، بل بشر كل البلدان المجاورة وبلدان جنوب بحر الرمال المتحركة وأي بلدان في هذا العالم لا نعرفها، إنها حربٌ مصيرية كنا سنخوضها لا محالة، سواء هنا أو عند أسوارنا.

وأردف:

- خلال السنوات الماضية خضتُ حروبًا كثيرة دفاعًا عن حقوق البشر وحمايتهم من اتفاقيات ظالمة، الآن سنخوض حربًا من أجل البقاء، فإما أن ننتصر وننقذ أنفسنا أو نموت.

وتابع:

- لقد منحني الحاكم هنا السُلطة لقيادة البلاد عسكريًا منذ وصولي، سنُخلي القُرى المحيطة بالبحيرة من سكانها ليأتوا إلى هذه المدينة حيث سنحصن بواباتها بالمتاريس، وسندعم سورها الغربي بثلاث فرق من أمهر الرُماة، كما سنعزز الدفاعات في الطرق المؤدية إلى الوادي الأسود الذي سيكون وجهة الغُزاة الأولى بأكثر من مائتي ألف مقاتل، أما مجانق كرات اللهب فستوزّع بجنودها على امتداد الجانب الشرقي من الغابة، وأيضًا تمركزتْ بعض الفرق على مقربة من محيط بحيرة جِمارة، وها نحن ننتظر ما ستخبرنا به رسائل طلائعنا بالغرب مع التقاء البدرين بعد أقل من ثلاثة أيام.

قلتُ باسمًا:

- ظننتُ أنّكَ أبعدتني عن لقائكَ مع القادة كي تُبقي أمر دفاعاتكَ سرًا.

قالَ وهو يضع ذراعه على كتفي، وكنا قد وصلنا إلى بوابة المبنى الذي توجد فيه غرفتي:

- تعلم أنني أثق فيك يا خالد.

وتابع:

- سنلتقي مرة أخرى في صباح الغد، خذ قسطًا جيدًا من الراحة، ستكون بجواري في مقدمة الصفوف في المعركة المُنتَظرَة.

هززتُ رأسي إيجابًا، وقلتُ:

- إنني جاهز من هذه اللحظة سيدي.

ودّعني باسمًا، فدلفتُ عبر بوابة المبنى الخلفي متجهًا إلى غرفتي، حيث جلستُ أفكر في كل كلمة قالها، ثم أغمضتُ عينيّ في خليطٍ من المشاعر المتضاربة كان القلق الغالب عليها، قبل أن أفتحها فجأة بعد دقائق قليلة، لأخرج مهرولًا من الغرفة، وأتجه إلى القصر الملكي عبر البوابة الخلفية سائلًا الحراس بأن يقودوني إلى الملك تميم الذي اندهش من طلبي مقابلته بعد دقائق من فراقنا، فقلت له دون مقدمات عندما دخلتُ إلى جناحه الملكي:

- هناك كتاب حدثني عنه نوح، يوجد في عيادة طبيبٍ بإحدى قُرَى الغرب، يتحدث عن قصة أحد اللصوص القُدامَى الذين أتوا من بلدي وهاجموا ذئب «صامون» لتندلع شرارة حرب الذئاب، ربما يساعدنا هذا الكتاب بطريقة ما، لن نخسر شيئًا إن اطلعنا عليه.

ابتسمَ وقال:

- كما أخبرتكَ، أحب طريقة تفكيرك، إن أردتَ الذهاب إلى هناك الليلة فسأرسل معكَ فرقة من الفرسان لحمايتك.

قلتُ سريعًا:

- نعم أريد الذهاب لإحضاره، وسآخذ معي نوح أو السيدة سارة كي يدلاني على عيادة ذلك الطبيب.

قال:

- حسنًا، ستكون فرقة الفرسان جاهزةً في غضون دقائق.

قلتُ متحمسًا:

- وأنا ومن سيرافقني كذلك.

●●●

عند منتصف الليل انطلقنا بجيادنا من «براقيا» نحو الغرب؛ أنا ونوح وستة من فرسان الحماية الشخصية للملك تميم، كانت الطرق المؤدية للغابة مزدحمة في ذلك التوقيت، حيث بدأ الجنود في إخلاء القُرى وتوجيه سكانها إلى داخل أسوار «براقيا»، فقلّل ذلك من سرعتنا بعض الشيء، ثم وصلنا إلى الغابة فقادنا نوح عبرَ طريق يعرفه بسرعةٍ كانت الأقصى لجيادنا، حتى بلغنا القرية المقصودة بعد شروق الشمس بساعتين تقريبًا، وهناك دلفَ نوح إلى داخل العيادة ودلفتُ من بعده أنا وفارسان بينما ظلّ البقية في الخارج كي يؤمّنوا محيط العيادة.

كانت الأتربة الكثيفة تغطي كل شيءٍ في الداخل؛ السرير الطبي والطاولات والأواني والآلات الجراحية والكتب المتراصّة على رفوف جانبية، تركَ نوح كل ذلك ومضى إلى سلم داخلي نزله ونحن من ورائه إلى قبوٍ شِبه مظلم جعلني أشعل مصباحًا زيتيًا كان معي، وعندما وصلنا إلى قاع السلم قال الفتى:

- أخبرني السيد «رسلان» قبل ثلاث سنوات أنّ الكتاب يوجد في مكتبة القبو هنا، أتمنى أن يكون في موضعه.

فهمستُ في داخلي:

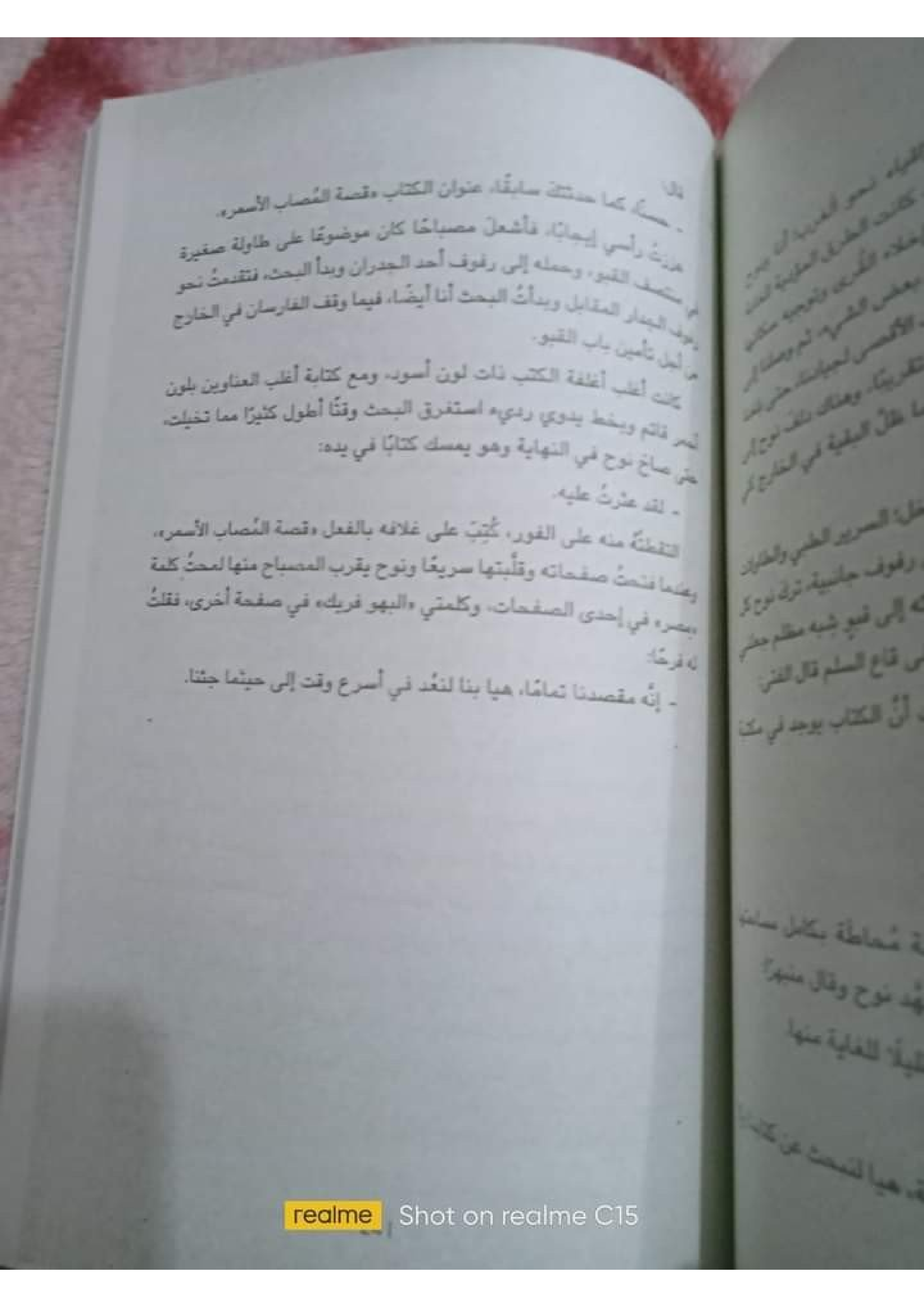
- سنجده إن شاء الله.

لنتقدم بعدها إلى القبو وأجد جدرانه الأربعة مُحاطَة بكامل مساحتها بمكتبة عظيمة تحمل مئات الكتب على رفوفها، تنهّد نوح وقال منبهرًا:

- بقيتُ هنا أكثر من عامين ولم أقرأ إلا عددًا قليلًا للغاية منها.

قلتُ باسمًا:

- لقد أضعتَ على نفسكَ فرصةً عظيمةً للمعرفة، هيا لنبحث عن كتابنا ولا نضيّع أي فرصة أخرى.



قال:

- حسنًا، كما حدثتك سابقًا، عنوان الكتاب «قصة العُصاب الأسمر».

هززتُ رأسي إيجابًا، فأشعل مصباحًا كان موضوعًا على طاولة صغيرة في منتصف القبو، وحمله إلى رفوف أحد الجدران وبدأ البحث، فتقدمتُ نحو رفوف الجدار المقابل وبدأتُ البحث أنا أيضًا، فيما وقف الفارسان في الخارج من أجل تأمين باب القبو.

كانت أغلب أغلفة الكتب ذات لون أسود، ومع كتابة أغلب العناوين بلون أحمر قاتم وبخط يدوي رديء استغرق البحث وقتًا أطول كثيرًا مما تخيلت، حتى صاح نوح في النهاية وهو يمسك كتابًا في يده:

- لقد عثرتُ عليه.

التقطتُهُ منه على الفور، كُتِبَ على غلافه بالفعل «قصة العُصاب الأسمر»، وعندما فتحتُ صفحاته وقلّبتها سريعًا ونوح يقرب المصباح منها لمحتُ كلمة «مصر» في إحدى الصفحات، وكلمتي «البهو فريك» في صفحة أخرى، فقلتُ له فرحًا:

- إنّه مقصدنا تمامًا، هيا بنا لنعُد في أسرع وقت إلى حيثما جئنا.

26

وصلنا إلى القصر الملكي بعد حلول الليل بقليل، وهناك تركني نوح بحثًا عن ناي، أما أنا فأكملت الطريق إلى جناح الملك تميم، فأخبرني أحد الحراس هناك بأنه خرج ليتفقد الاستعدادات العسكرية القريبة من الوادي الأسود منذ الصباح ولم يعد بعد، فاتجهت إلى غرفتي كي أتصفح الكتاب حتى يعود.

كما أخبرني نوح كان مؤلفه طبيبًا عاش فترة حرب الذئاب اسمه «سركان العماني»، كتبَ في مقدمته أنّه التقى «إسماعيل» قبل شهرٍ كامل من تحرير الذئاب حيث عالج وريدًا نازفًا في رقبته، وصارا صديقين بعدها، ثم أخذ يسرد قصته: اسمه «إسماعيل الفضيل»، جندي من أصول سودانية انضم لفيلق الهجّانة المصرية التي أُرسِلَت إلى الحرب العظمى[1]، حيث تعرّف على قائده الضابط المصري «مصطفى حلمي» الذي ضمّه إلى فصيلته هو ومائتي جندي آخرين، تبقى منهم على قيد الحياة تسعة وعشرون فقط، عادوا إلى مصر بعد عام من انتهاء الحرب، وحينها ترك إسماعيل الخدمة العسكرية، وعادَ إلى مدينته «وادي حلفا» بشمال السودان، قبل أن يستدعيه الضابط المصري مرة أخرى هو وزملاءه بصورة غير رسمية بعد أقل من عامين من أجل مهمة زَعَم فيها أنّها ستحقق لهم ثراءً فاحشًا يعوضهم عن سنوات الفقر التي عاشوها، وأخذ يشرح لهم عن بوابة زمنية توجد في صورة طاحونة قديمة بقرية مصرية اسمها «البهو فريك»، حدثه عنها خواجة من أصول بلجيكية عَرِف من أجداده سر تلك البوابة التي توجد في أرضه، والتي تقود عابرها إلى أرضٍ أخرى ثرية تفيض كهوف جبالها بذهبٍ لا حصر له،

(1) المُسمّى القديم للحربِ العالمية الأولى.

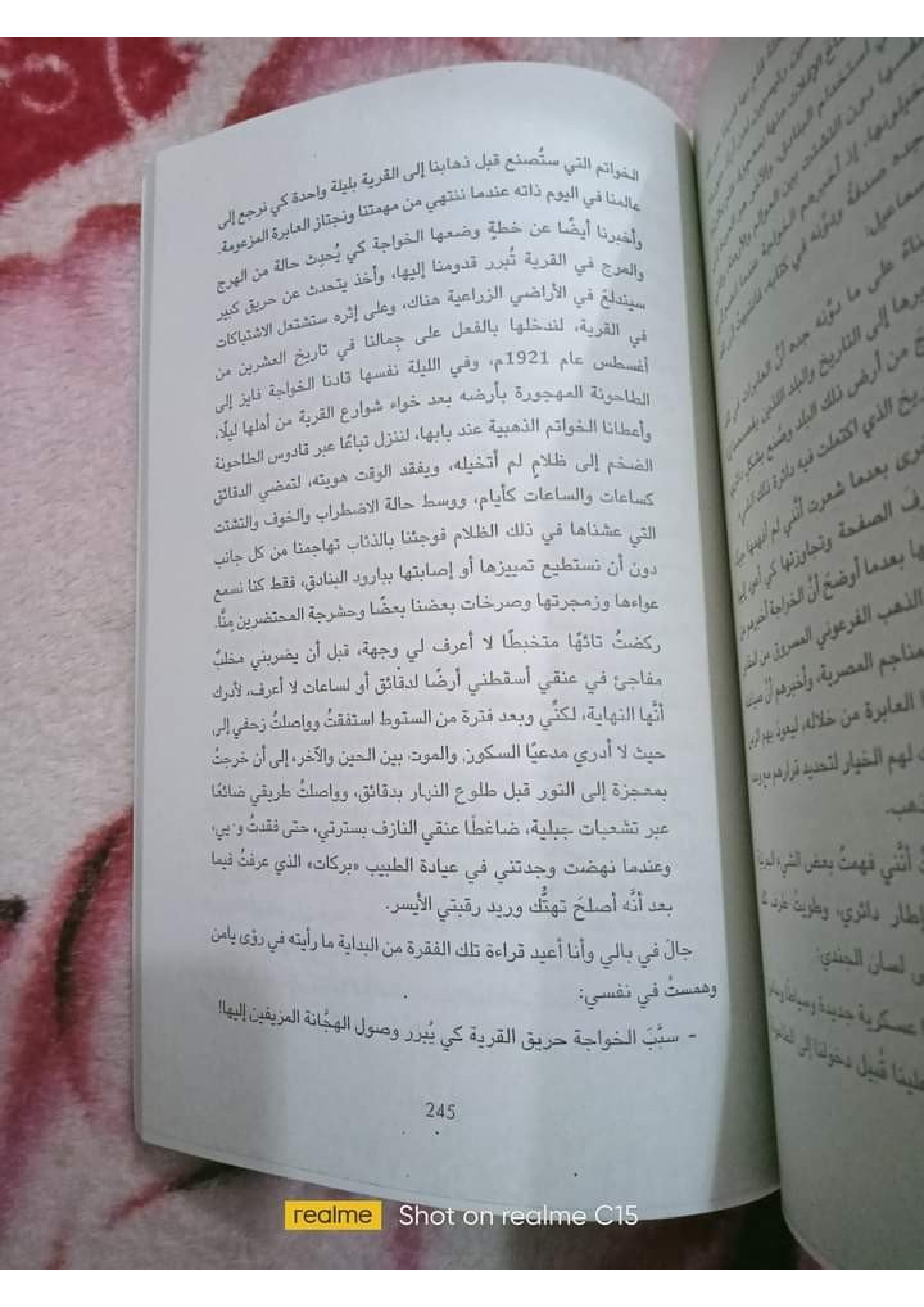
وأخرجَ لهم كتابًا كتبه جد الخواجة بخط يده عن رحلة قام بها قديمًا عبر تلك الطاحونة في إحدى ليالي البدر إلا أنَّ بها عائقين رئيسيين لمن أراد عبورها؛ الأول هو الذئاب التي تحميها والتي استطاعَ الإفلات منها بمعجزة، فلم يكترثوا بذلك الأمر مع مهارتهم الفائقة في استخدام البنادق، والآخر هو العودة إلى مصر مرة أخرى عبر البوابة نفسها دون التشتت بين العوالم والأزمنة، والتي لم تكن بتلك السهولة التي يتخيلونها، إذ أخبرهم الخواجة عندما انضم إلى اجتماعهم بشيءٍ مهم اكتشفه جده صدفةً ودوَّنه في كتابه، فانتبهتُ إلى تلك الجزئية حيث كُتِب على لسان إسماعيل:

- أخبرنا الخواجة «فايز» بناءً على ما دوَّنه جده أنَّ العابرات في تلك الأرض تستطيع توجيه عابرها إلى التاريخ والبلد اللذين يقصدهما إذا امتلك شيئًا طبيعيًا استُخرِجَ من أرض ذلك البلد وصُنع بشكلٍ دائري، حيث تُعيده العابرة إلى التاريخ الذي اكتملت فيه دائرة ذلك الشيء.

أعدت قراءة تلك الفقرة مرة أخرى بعدما شعرت أنَّني لم أفهمها جيدًا، وعندما لم أفهمها أيضًا طويتُ طرفَ الصفحة وتجاوزتها كي أعود إليها مجددًا فيما بعد، حتى استطعتُ فهمها بعدما أوضحَ أنَّ الخواجة أخبرهم عن نيته صنع خاتمٍ لكل واحدٍ منهم من الذهب الفرعوني المسروق من المقابر المصرية، والذي استُخرِجَ قديمًا من المناجم المصرية، وأخبرهم أنَّ صياغته كخاتمٍ يُكمل دائرة الطاقة التي تمررها العابرة من خلاله، ليعودَ بهم الزمن إلى وقت صناعة تلك الخواتم تمامًا، وترك لهم الخيار لتحديد قرارهم مع وعده بحصةٍ لكل فرد منهم ثلاثين رطلًا من الذهب.

أعدتُ قراءة الفقرة مرة أخرى وشعرتُ أنَّني فهمتُ بعض الشيء الجزئية الخاصة بالشيء الأصلي المصنوع في إطار دائري، وطويتُ طرف تلك الصفحة أيضًا، ثم أكملت قراءة المكتوب على لسان الجندي:

- عندما وافقنا جميعًا أعطانا القائد ثيابًا عسكرية جديدة وسياطًا وبنادق وجمالًا، وأخبرنا أن الخواجة سيوزِّع علينا قُبيل دخولنا إلى الطاحونة



الخواتم التي ستُصنع قبل ذهابنا إلى القرية بليلة واحدة كي نرجع إلى عالمنا في اليوم ذاته عندما ننتهي من مهمتنا ونجتاز العابرة المزعومة. وأخبرنا أيضًا عن خطة وضعها الخواجة كي يُحدِث حالة من الهرج والمرج في القرية تُبرر قدومنا إليها، وأخذ يتحدث عن حريق كبير سيندلع في الأراضي الزراعية هناك، وعلى إثره ستشتعل الاشتباكات في القرية، لندخلها بالفعل على جمالنا في تاريخ العشرين من أغسطس عام 1921م، وفي الليلة نفسها قادنا الخواجة فايز إلى الطاحونة المهجورة بأرضه بعد خواء شوارع القرية من أهلها ليلًا، وأعطانا الخواتم الذهبية عند بابها، لننزل تباعًا عبر قادوس الطاحونة الضخم إلى ظلامٍ لم أتخيله، ويفقد الوقت هويته، لتمضي الدقائق كساعات والساعات كأيام، ووسط حالة الاضطراب والخوف والتشتت التي عشناها في ذلك الظلام فوجئنا بالذئاب تهاجمنا من كل جانب دون أن نستطيع تمييزها أو إصابتها ببارود البنادق، فقط كنا نسمع عواءها وزمجرتها وصرخات بعضنا بعضًا وحشرجة المحتضرين منّا.

ركضتُ تائهًا متخبطًا لا أعرف لي وجهة، قبل أن يضربني مخلبٌ مفاجئ في عنقي أسقطني أرضًا لدقائق أو لساعات لا أعرف، لأدرك أنها النهاية، لكنّي وبعد فترة من السقوط استفقتُ وواصلتُ زحفي إلى حيث لا أدري مدعيًا السكون، والموت بين الحين والآخر، إلى أن خرجتُ بمعجزة إلى النور قبل طلوع النهار بدقائق، وواصلتُ طريقي ضائعًا عبر تشعبات جبلية، ضاغطًا عنقي النازف بسترتي، حتى فقدتُ وعيي، وعندما نهضت وجدتني في عيادة الطبيب «بركات» الذي عرفتُ فيما بعد أنَّه أصلحَ تهتُّك وريد رقبتي الأيسر.

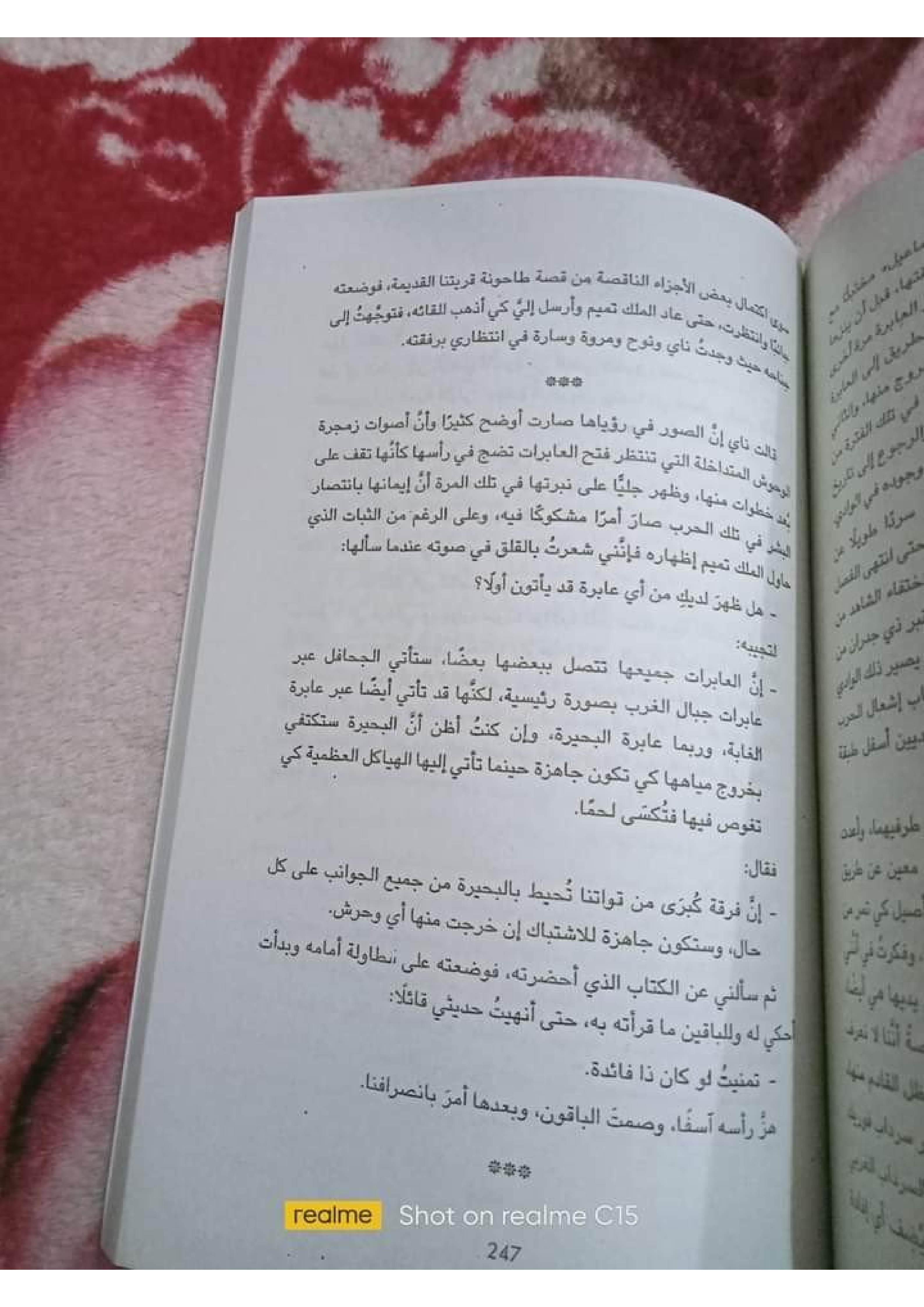
جالَ في بالي وأنا أعيد قراءة تلك الفقرة من البداية ما رأيته في رؤى يامن وهمستُ في نفسي:

- سبَّبَ الخواجة حريق القرية كي يُبرر وصول الهجّانة المزيفين إليها!

تحدث الكتاب فيما بعد عن الفترة التي قضاها «إسماعيل» مختبئًا مع السيد «بركات الصافي» من الذئاب التي هاجمت البشر وقتها، قبل أن ينزحا إلى أقصى الشرق، وتتضاءل فرصة الجندي في العودة عبر العابرة مرة أخرى لسببين: الأول: أنَّ الاثنين اللذين كانا يمتلكان خريطة الطريق إلى العابرة هما الخواجة فايز والضابط المصري واللذان ماتا قبل الخروج منها، والثاني هو عدم مقدرة أي شخص على الاقتراب من جبال الغرب في تلك الفترة من الحرب، وإن ظلَّ إسماعيل آملًا في الوصول إلى العابرة والرجوع إلى تاريخ صُنع خاتمه يومًا ما بالرغم من مرور أكثر من عامين على وجوده في الوادي.

أكملتُ بعد ذلك قراءة باقي الصفحات التي احتوت سردًا طويلًا عن ذكرياته في مدينته بالسودان ومقارنتها بحياته الجديدة، حتى انتهى الفصل الأخير بالحديث عن انتحاره بعد إصابته بالاكتئاب يوم اختفاء الشاهد من السماء وإغلاقه العابرات، ليدفنه الطبيب مع أغراضه في قبر ذي جدران من المرمر الأبيض في أحد الوديان الرملية القريبة منه، قبل أن يصير ذلك الوادي فيما بعد الوادي الأسود نفسه، وكأنَّه مثلما كان أحد أسباب إشعال الحرب الكبرى انتهى به المصير مدفونًا بين عظام الذئاب والملديين أسفل طبقة القار التي وُضعت كنهاية مؤكدة لتلك الحرب.

عندما انتهى الكتاب عدتُ إلى الصفحتين اللتين طويتُ طرفيهما، وأعدت قراءة الفقرة الخاصة بطريقة توجيه العابرة إلى بلد وزمن معين عن طريق الخواتم التي صنعها الخواجة فايز للهجانة من ذهب مصري أصيل كي تمر من خلاله طاقة العابرة لتُكمل دورة كاملة تعيدهم إلى يوم صنعها، وفكرتُ في أنَّني لا أمتلك خاتمًا وكذلك مروة التي لا أتذكر أنَّها تمتلك حُليًّا في يديها هي أيضًا، حتى وإن كنَّا نمتلك فلم يعد ذلك الأمر يُشكل شيئًا مهمًّا خاصة أنَّنا لا نعرف طريق العابرات، وإن عرفناه فلن نستطيع الاقتراب منها في ظل القادم منها، كما أنَّنا إن انتصرنا في الحرب فقد نستطيع العودة إلى بلدنا عبر سرداب فوريك من خلال الذهاب إلى زيكولا مع الملك تميم والعودة عبر مدخل السرداب الغربي الذي اتخذته مرتين في السابق، ولوهلة شعرتُ أنَّ الكتاب لم يُضف أي إفادة



سوى اكتمال بعض الأجزاء الناقصة من قصة طاحونة قريتنا القديمة، فوضعته جانبًا وانتظرت، حتى عاد الملك تميم وأرسل إليَّ كي أذهب للقائه، فتوجَّهتُ إلى جناحه حيث وجدتُ ناي ونوح ومروة وسارة في انتظاري برفقته.

***

قالت ناي إنَّ الصور في رؤياها صارت أوضح كثيرًا وأنَّ أصوات زمجرة الوحوش المتداخلة التي تنتظر فتح العابرات تضج في رأسها كأنَّها تقف على بُعد خطوات منها، وظهر جليًا على نبرتها في تلك المرة أنَّ إيمانها بانتصار البشر في تلك الحرب صارَ أمرًا مشكوكًا فيه، وعلى الرغم من الثبات الذي حاول الملك تميم إظهاره فإنَّني شعرتُ بالقلق في صوته عندما سألها:

- هل ظهرَ لديكِ من أي عابرة قد يأتون أولًا؟

لتجيبه:

- إنَّ العابرات جميعها تتصل ببعضها بعضًا، ستأتي الجحافل عبر عابرات جبال الغرب بصورة رئيسية، لكنَّها قد تأتي أيضًا عبر عابرة الغابة، وربما عابرة البحيرة، وإن كنتُ أظن أنَّ البحيرة ستكتفي بخروج مياهها كي تكون جاهزة حينما تأتي إليها الهياكل العظمية كي تغوص فيها فتُكسَى لحمًا.

فقال:

- إنَّ فرقة كُبرَى من قواتنا تُحيط بالبحيرة من جميع الجوانب على كل حال، وستكون جاهزة للاشتباك إن خرجت منها أي وحش.

ثم سألني عن الكتاب الذي أحضرته، فوضعته على الطاولة أمامه وبدأت أحكي له وللباقين ما قرأته به، حتى أنهيتُ حديثي قائلًا:

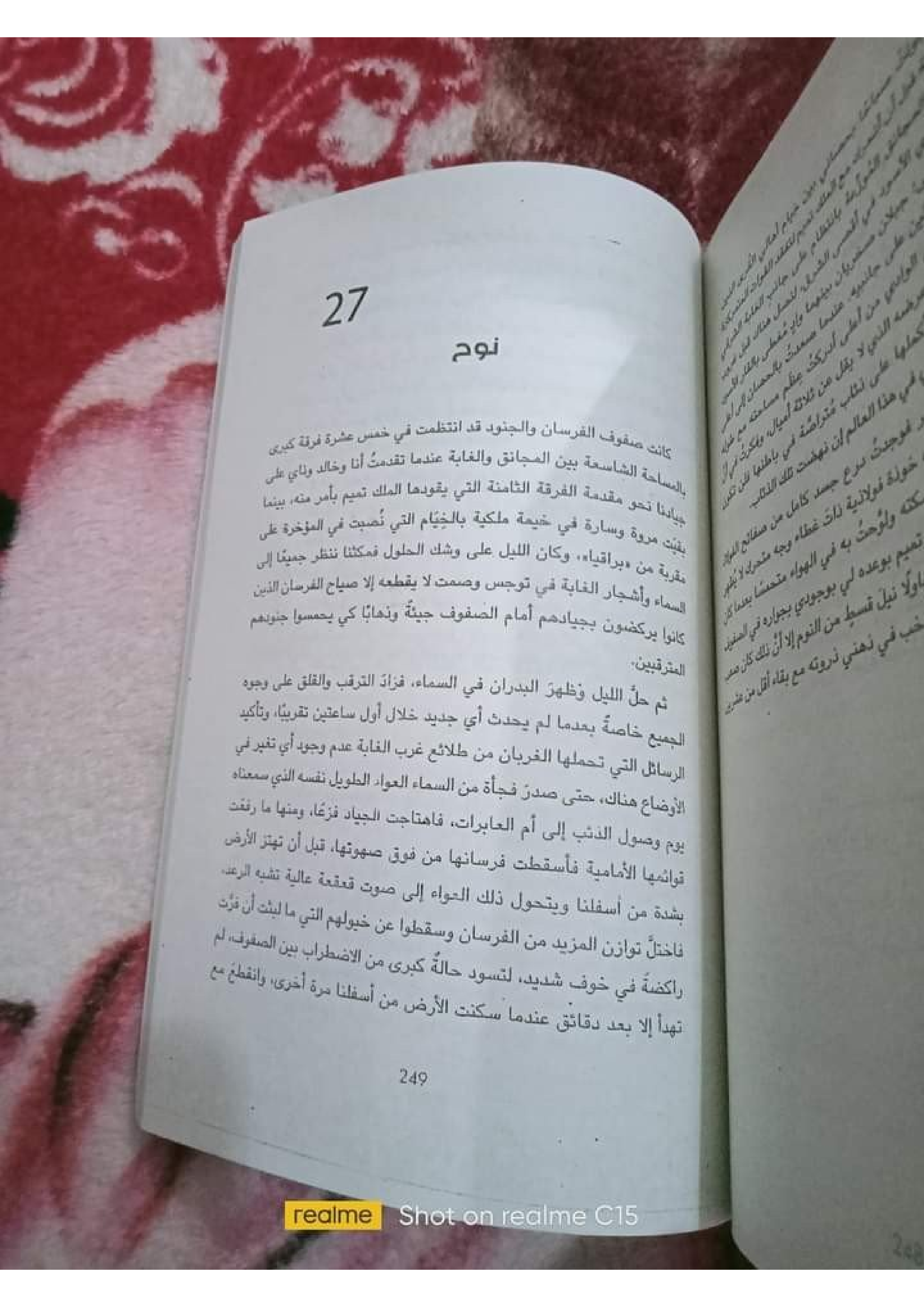
- تمنيتُ لو كان ذا فائدة.

هزَّ رأسه آسفًا، وصمتَ الباقون، وبعدها أمرَ بانصرافنا.

***

في اليوم التالي تجولتُ صباحًا بحصاني بين خِيام أهالي القُرى الذين نزحوا إلى وسط المدينة قبل أن أتحرك مع الملك تميم لتفقد القوات المتمركزة حول البحيرة الجافة والمجانق المُوزَّعة بانتظام على جانبِ الغابة الشرقي قبل أن ننطلق إلى الوادي الأسود في أقصى الشرق، لنصل هناك قبل غروب الشمس وأراه للمرة الأولى؛ جبلان صخريان بينهما وادٍ مُغطى بالقار الأسود بالكامل هو وسفحا الجبلين على جانبيه. عندما صعدتُ بالحصان إلى أعلى أحد الجبلين، ونظرتُ إلى الوادي من أعلى أدركتُ عِظم مساحته مع طوله الذي يتجاوز ستة أميال وعرضه الذي لا يقل عن ثلاثة أميال، وفكرتُ في أنّ تلك المساحة لو احتوَت بأكملها على ذئاب مُتراصَّة في باطنها فلن تكون هناك فرصة لنجاة أي بشري في هذا العالم إن نهضت تلك الذئاب.

عدتُ بعد ذلك إلى القصر فوجدتُ درع جسد كامل من صفائح الفولاذ موضوعًا في غرفتي، وبجواره خوذة فولاذية ذاتَ غطاء وجه متحرك لا يُظهر إلا العينين، وسيف طويل أمسكته ولوَّحتُ به في الهواء متحمسًا بعدما كان ذلك إعلانًا واضحًا لوفاء الملك تميم بوعده لي بوجودي بجواره في الصفوف الأولى، ثم أويتُ إلى فراشي محاولًا نيلَ قسطٍ من النوم إلا أنَّ ذلك كان صعب المنال بعدما بلغَ الضجيج الصاخب في ذهني ذروته مع بقاء أقل من عشرين ساعة على معركتنا الحاسمة.



27

نوح

كانت صفوف الفرسان والجنود قد انتظمت في خمس عشرة فرقة كبرى بالساحة الشاسعة بين المجانق والغابة عندما تقدمتُ أنا وخالد وناي على جيادنا نحو مقدمة الفرقة الثامنة التي يقودها الملك تميم بأمر منه، بينما بقيَت مروة وسارة في خيمة ملكية بالخِيَام التي نُصبت في المؤخرة على مقربة من «براقيا»، وكان الليل على وشك الحلول فمكثنا ننظر جميعًا إلى السماء وأشجار الغابة في توجس وصمت لا يقطعه إلا صياح الفرسان الذين كانوا يركضون بجيادهم أمام الصفوف جيئةً وذهابًا كي يحمسوا جنودهم المترقبين.

ثم حلَّ الليل وظهرَ البدران في السماء، فزادَ الترقب والقلق على وجوه الجميع خاصةً بعدما لم يحدث أي جديد خلال أول ساعتين تقريبًا، وتأكيد الرسائل التي تحملها الغربان من طلائع غرب الغابة عدم وجود أي تغير في الأوضاع هناك، حتى صدرَ فجأة من السماء العواء الطويل نفسه الذي سمعناه يوم وصول الذئب إلى أم العابرات، فاهتاجت الجياد فزعًا، ومنها ما رفعت قوائمها الأمامية فأسقطت فرسانها من فوق صهوتها، قبل أن تهتز الأرض بشدة من أسفلنا ويتحول ذلك العواء إلى صوت قعقعة عالية تشبه الرعد، فاختلَّ توازن المزيد من الفرسان وسقطوا عن خيولهم التي ما لبثت أن فرّت راكضةً في خوف شديد، لتسود حالةٌ كبرى من الاضطراب بين الصفوف، لم تهدأ إلا بعد دقائق عندما سكنت الأرض من أسفلنا مرة أخرى، وانقطع مع

سكونها ضجيج السماء، حينذاك التفتُّ إلى ناي، كانت تغمض عينيها في تركيزٍ شديد، قبل أن تفتحهما وتقول وهي تحدق إلى الغابة:

- لقد فُتحت العابرات، إنّني أسمع أصوات وحوشها بوضوح شديد.

وسرعان ما أكّدَ قولها ذلك الفارس الذي أتى إلى الملك تميم برسالةٍ وصلته عبر غراب تؤكد نبوغَ ماء بحيرة «جمارة» بالقرب من طرفها الشرقي، فصاح الملك تميم في مساعديه بأن يعيدوا تنظيم الصفوف سريعًا، فانطلقَ الفرسان براياتهم كلٌّ نحو فرقة من الفرق المجاورة تنفيذًا لأوامره، سألني خالد حينها إن كنتُ أعرف مكان عابرة الغابة، فأجبته:

- لا أحد يعرف مكانها، لقد دُوِّن عنها في كتب التراث أنَّ مكانها كان يتبدل كل ستة أشهر، وكان يُحرِّم على الناس الدخول إلى الغابة في ليلتَي فتح تلك العابرة.

فقال في قلق واضح:

- هكذا لن نستطيع معرفة الوقت الذي قد تستغرقه الوحوش الآتية عبرها لتصل إلينا، على عكس وحوش عابرات الغرب التي نعرف أنّها ستحتاج إلى نصف يوم على أقل تقدير لتعبر الغابة إذا بلغت سرعتها سرعة الجيادْ القصوى.

فاتفقتُ معه في ذلك.

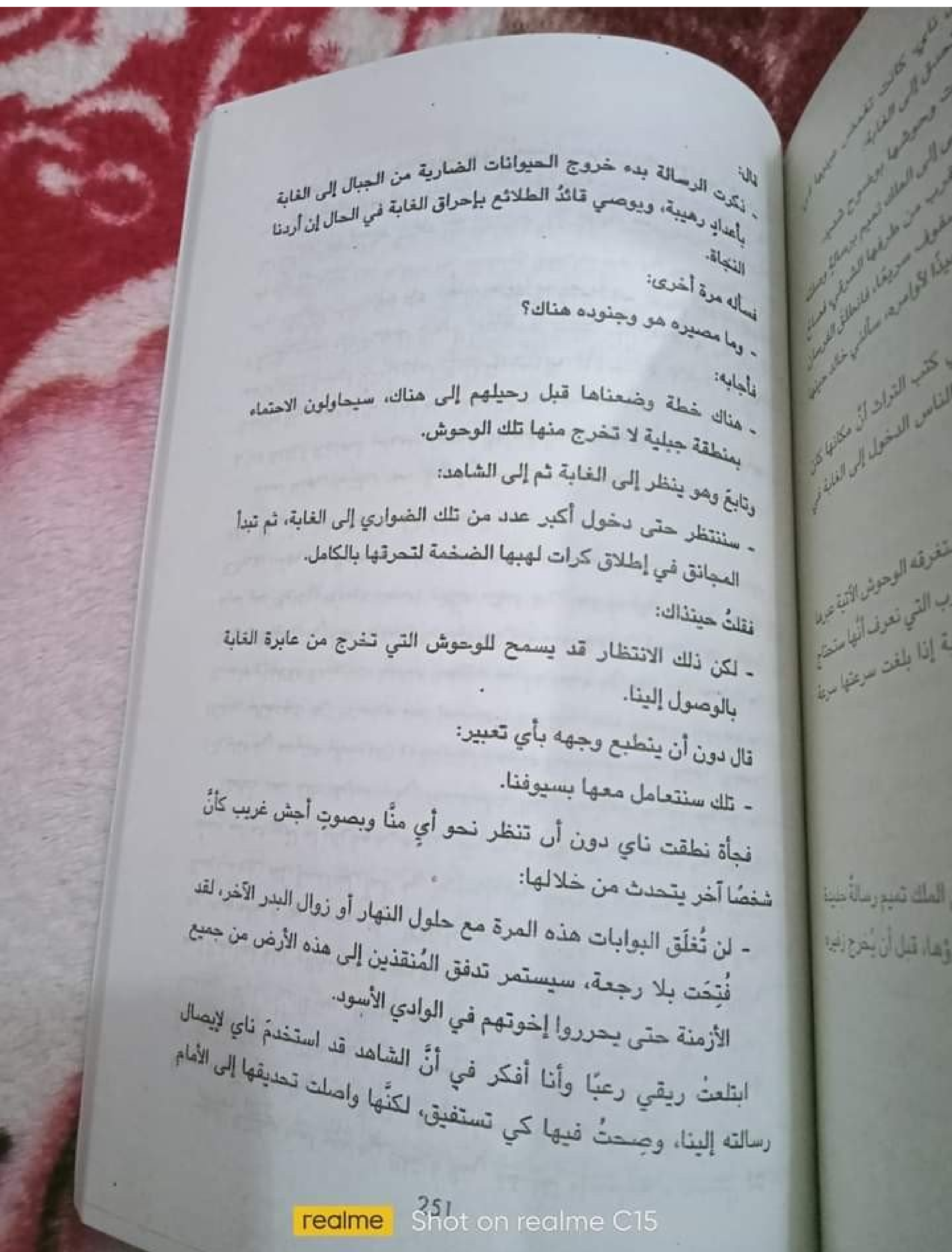
***

بعد قرابة ساعتين أخريين من الترقب وصلت إلى الملك تميم رسالةٌ جديدة من طلائع الغرب تبدّلَ معها وجهه بوضوح وهو يقرؤها، قبل أن يُخرج زفيره ويقول لمساعده السيد «جرير» بنبرة قلقة:

- جهِّز المجانق في الحال.

سأله خالد بنبرة القلق ذاتها:

- ماذا هناك؟!



قال:

- ذكرت الرسالة بدء خروج الحيوانات الضارية من الجبال إلى الغابة بأعدادٍ رهيبة، ويوصي قائدُ الطلائع بإحراق الغابة في الحال إن أردنا النجاة.

فسأله مرة أخرى:

- وما مصيره هو وجنوده هناك؟

فأجابه:

- هناك خطة وضعناها قبل رحيلهم إلى هناك، سيحاولون الاحتماء بمنطقة جبلية لا تخرج منها تلك الوحوش.

وتابعَ وهو ينظر إلى الغابة ثم إلى الشاهد:

- سننتظر حتى دخول أكبر عدد من تلك الضواري إلى الغابة، ثم تبدأ المجانق في إطلاق كرات لهبها الضخمة لتحرقها بالكامل.

فقلتُ حينذاك:

- لكن ذلك الانتظار قد يسمح للوحوش التي تخرج من عابرة الغابة بالوصول إلينا.

قال دون أن ينطبع وجهه بأي تعبير:

- تلك سنتعامل معها بسيوفنا.

فجأة نطقت ناي دون أن تنظر نحو أيٍ منّا وبصوتٍ أجش غريب كأنَّ شخصًا آخر يتحدث من خلالها:

- لن تُغلَق البوابات هذه المرة مع حلول النهار أو زوال البدر الآخر، لقد فُتِحَت بلا رجعة، سيستمر تدفق المُنقذين إلى هذه الأرض من جميع الأزمنة حتى يحرروا إخوتهم في الوادي الأسود.

ابتلعتُ ريقي رعبًا وأنا أفكر في أنَّ الشاهد قد استخدمَ نايَ لإيصال رسالته إلينا، وصِحتُ فيها كي تستفيق، لكنَّها واصلت تحديقها إلى الأمام

دون أن تنتبه لي، فاقتربتُ منها وأمسكتُ بذراعها وهززتها كي تستفيق، بينما نظر الملك تميم إليها واجمًا، وكأنّه أيقنَ بقلة حيلته وعدم جدوى خطة إحراق الغابة إن استمر تدفق تلك الوحوش بلا نهاية، حتى وإن نجح في إحراق الآلاف منها.

عندما استفاقت ناي تلفّتت حولها مستغربةً من غيابها المؤقت عن الوعي، وتساءلت عمّا حدث خلال الدقائق الماضية، فأخبرتها بما قالته، فلاذت بصمتها وعيناها تلمعان بالدموع، سألني خالد بعدئذٍ وهو ينظر إلى الغابة نظرةً طويلة شاردة:

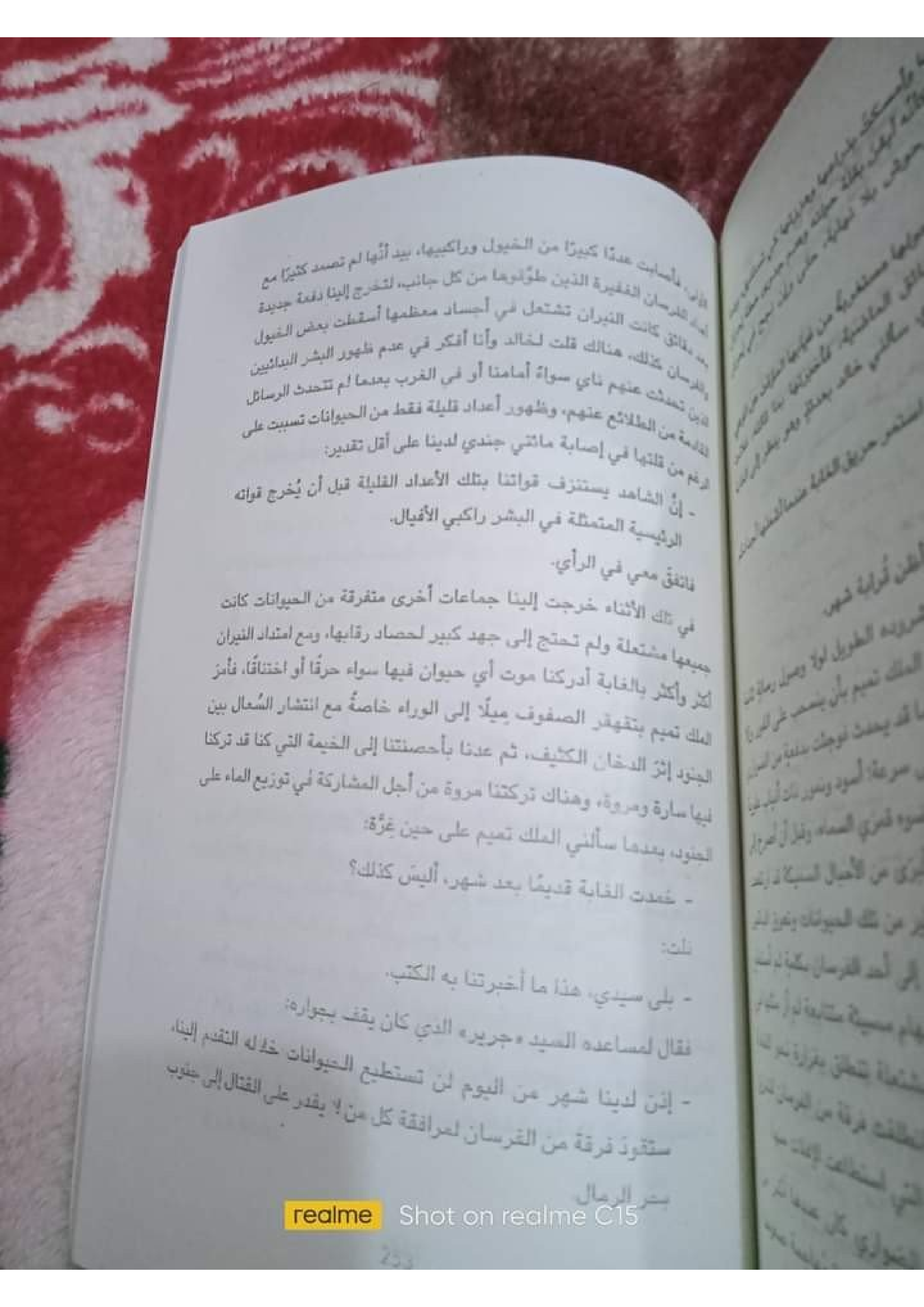
- هل ذكرت الكتب القديمة كم استمر حريق الغابة عندما أشعلها أجدادكم كي يتخلصوا من الذئاب؟

قلت:

- لا أتذكر تحديدًا، لكن على ما أظن قُرابة شهر.

وكدت أسأله عن سبب سؤاله وشروده الطويل لولا وصول رسالةٍ ثانية من طلائع الغرب يتوسلون فيها إلى الملك تميم بأن ينسحب على الفور وإلا هلكَ الجيش بأكمله، وقبل أن أفكر فيما قد يحدث فوجئت بدفعةٍ من الضواري تخرج من الغابة راكضةً نحونا بأقصى سرعة: أسود ونمور ذات أنياب علوية سيفية، وذئاب تلمع عيونها بشدة مع ضوء قمرَي السماء، وقبل أن أصرخ إلى من حوليَ بأن يستعدوا، كانت شِباك كُبرَى من الأحبال السميكة قد ارتفعت عن الأرض فجأة لتصيد في داخلها الكثير من تلك الحيوانات وتعوق الباقين عن التقدم إلينا، حينها صاحَ الملك تميم إلى أحد الفرسان بكلمةٍ لم أستطع تبيُّنها، فانطلقت إلى السماء على الفور سهام مضيئة متتابعة لم أرَ مثلها في حياتي، وبعدها بدأت قذائف المجانق المشتعلة تنطلق بغزارة نحو الغابة لتُشعل النيران في أرجائها، وما لبثت أن انطلقت فرقة من الفرسان لتمزق أجساد الحيوانات العالقة في الشِباك والقِلَّة التي استطاعت الإفلات منها.

بعد قليل خرجت إلينا دفعة أخرى من الضواري كان عددها أكبر من الدفعة الأولى، استطاع أغلبها تجاوز الشِباك لتتقدم إلينا مُهاجمة صفوفنا



الأول، فأصابت عددًا كبيرًا من الخيول وراكبيها، بيد أنها لم تصمد كثيرًا مع

أولئك الفرسان الفقيرة الذين طوّقوها من كل جانب، لتخرج إلينا دفعة جديدة

بعد دقائق كانت النيران تشتعل في أجساد معظمها أسقطت بعض الخيول

والفرسان كذلك، هنالك قلت لخالد وأنا أفكر في عدم ظهور البشر البدائيين

الذين تحدثت عنهم ناي سواء أمامنا أو في الغرب بعدما لم تتحدث الرسائل

القادمة من الطلائع عنهم، وظهور أعداد قليلة فقط من الحيوانات تسببت على

الرغم من قلتها في إصابة مائتي جندي لدينا على أقل تقدير:

- إنّ الشاهد يستنزف قواتنا بتلك الأعداد القليلة قبل أن يُخرج قواته

الرئيسية المتمثلة في البشر راكبي الأفيال.

فاتفق معي في الرأي.

في تلك الأثناء خرجت إلينا جماعات أخرى متفرقة من الحيوانات كانت

جميعها مشتعلة ولم تحتج إلى جهد كبير لحصاد رقابها، ومع امتداد النيران

أكثر وأكثر بالغابة أدركنا موت أي حيوان فيها سواء حرقًا أو اختناقًا، فأمر

الملك تميم بتقهقر الصفوف ميلًا إلى الوراء خاصةً مع انتشار السُعال بين

الجنود إثر الدخان الكثيف، ثم عدنا بأحصنتنا إلى الخيمة التي كنا قد تركنا

فيها سارة ومروة، وهناك تركتنا مروة من أجل المشاركة في توزيع الماء على

الجنود، بعدما سألني الملك تميم على حين غِرّة:

- خمدت الغابة قديمًا بعد شهر، أليسَ كذلك؟

قلت:

- بلى سيدي، هذا ما أخبرتنا به الكتب.

فقال لمساعده السيد «جرير» الذي كان يقف بجواره:

- إذن لدينا شهر من اليوم لن تستطيع الحيوانات خلاله التقدم إلينا،

ستقود فرقة من الفرسان لمرافقة كل من لا يقدر على القتال إلى جنوب

بحر الرمال

بدا على وجه مساعده أنّه يريد البقاء لمواصلة القتال معه، لكنّ صرامة وجه الملك تميم في إعطائه الأمر جعلته ينحني برأسه مُطيعًا، فقالت سارة بعدما خرج السيد «جرير»:

- لماذا لا تنسحب بقواتك هم أيضًا سيدي؟

هزّ رأسه رافضًا وقال:

- إن وصلت تلك الوحوش إلى الوادي الأسود سيطاردوننا لا محالة في أي مكانٍ نذهب إليه، سندافع عن الوادي الأسود حتى آخر قطرة دماء لدينا.

فنطقَ خالد الذي عادَ إلى شروده الطويل منذ دخولنا إلى الخيمة:

- ماذا لو أعدنا ذئب «صامون» إلى الحياة؟

لم أستطع فهم ما يقصده، وقلتُ:

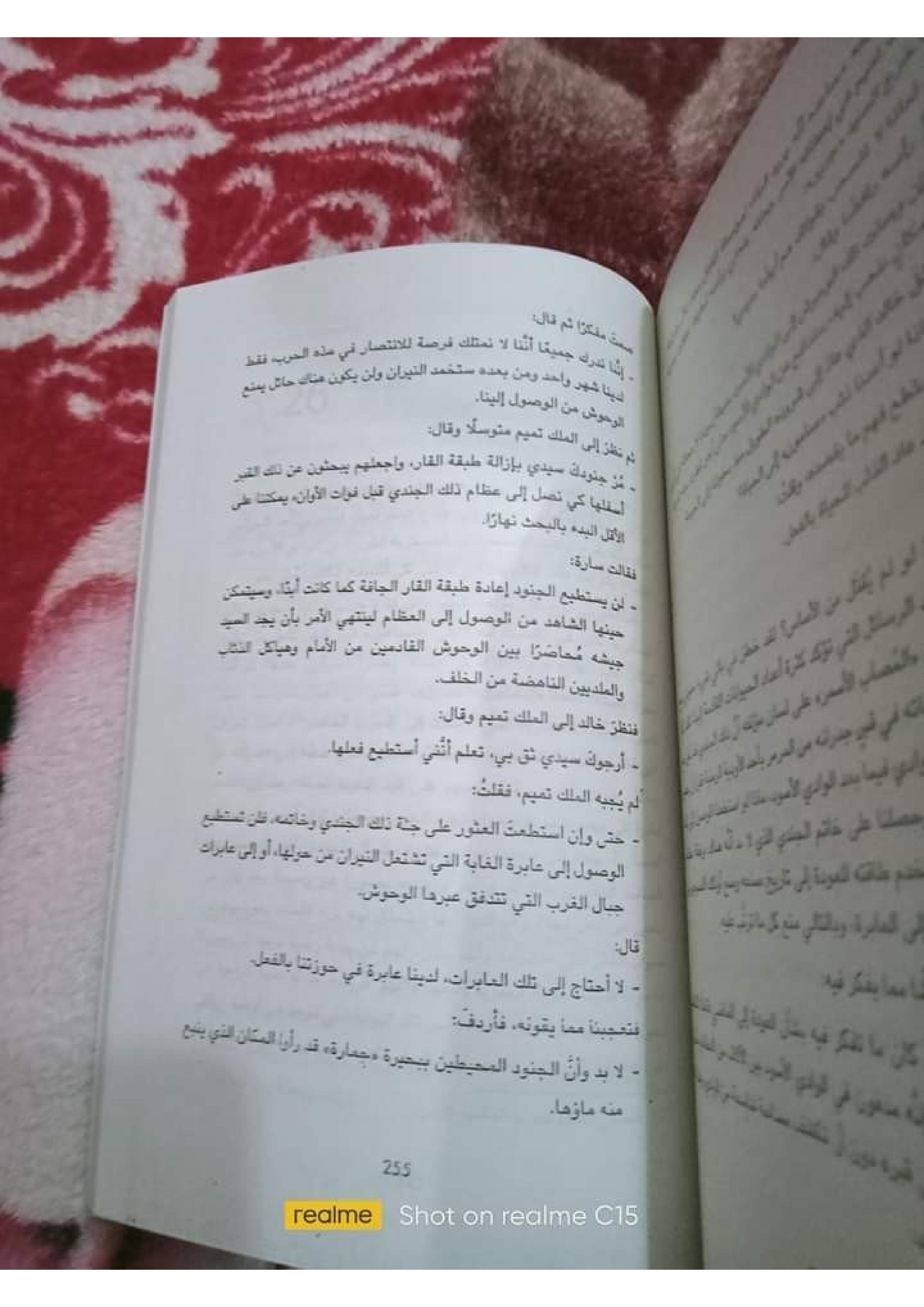
- لقد عاد الذئب للحياة بالفعل.

فقال:

- ماذا لو لم يُقتَل من الأساس؟ لقد خطرَ في بالي شيء جنوني مع ورود الرسائل التي تؤكد كثرة أعداد الحيوانات القادمة إلينا، لقد ذكرَ كتاب «المُصاب الأسمر» على لسان مؤلفه أنّ ذلك الجندي قد دُفِنَ مع متعلقاته في قبرٍ جدرانه من المرمر بأحد الأودية الرملية قبل أن يصير ذلك الوادي فيما بعد الوادي الأسود، ماذا لو استطعنا الوصول إلى ذلك القبر وحصلنا على خاتم الجندي الذي لا بد أنّه هناك برفقة عظامه كي أستخدم طاقته للعودة إلى تاريخ صنعه ومنع أولئك اللصوص من الدخول إلى العابرة؛ وبالتالي منع كل ما ترتّب عليه.

فقلتُ مندهشًا مما يفكر فيه:

- حتى وإن كان ما تفكر فيه بشأن العودة إلى الماضي قابلًا للتنفيذ فكما قلتَ إنّه مدفون في الوادي الأسود بين الآلاف من العظام، مُحال أن تصل إلى قبره دون أن تكشف مساحة شاسعة من الوادي، وهذا ما يريده الشاهد.



صمت مفكرًا ثم قال:

- إننا ندرك جميعًا أننا لا نمتلك فرصة للانتصار في هذه الحرب، فقط لدينا شهر واحد ومن بعده ستخمد النيران ولن يكون هناك حائل يمنع الوحوش من الوصول إلينا.

ثم نظر إلى الملك تميم متوسلًا وقال:

- مُرْ جنودك سيدي بإزالة طبقة القار، واجعلهم يبحثون عن ذلك القبر أسفلها كي نصل إلى عظام ذلك الجندي قبل فوات الأوان، يمكننا على الأقل البدء بالبحث نهارًا.

فقالت سارة:

- لن يستطيع الجنود إعادة طبقة القار الجافة كما كانت أبدًا، وسيتمكن حينها الشاهد من الوصول إلى العظام لينتهي الأمر بأن يجد السيد جيشه مُحاصرًا بين الوحوش القادمين من الأمام وهياكل النتاب والملدبين الناهضة من الخلف.

فنظر خالد إلى الملك تميم وقال:

- أرجوك سيدي ثق بي، تعلم أنني أستطيع فعلها.

لم يُجبه الملك تميم، فقلتُ:

- حتى وإن استطعتَ العثور على جثة ذلك الجندي وخاتمه، فلن تستطيع الوصول إلى عابرة الغابة التي تشتعل النيرانُ من حولها، أو إلى عابرات جبال الغرب التي تتدفق عبرها الوحوش.

قال:

- لا أحتاج إلى تلك العابرات، لدينا عابرة في حوزتنا بالفعل.

فتعجبنا مما يقوله، فأردفَ:

- لا بد وأنّ الجنود المحيطين ببحيرة «جمارة» قد رأوا المكان الذي ينبع منه ماؤها.

ونظرَ إلى ناي وتابع:

- إنَّها عابرة البحيرة، أليس كذلكَ يا ناي؟

هزّت رأسها متفقة معه، فقال:

- وما دامت العابرات تتصل جميعها بالأزمنة وببعضها بعضًا يمكنني أن أجتاز تلك العابرة إلى الماضي بخاتم الجندي إن عثرنا عليه من أجل منع مقتل الذئب وكل ما ترتب عليه.

هززتُ رأسي رافضًا في غير اقتناع أي كلمة قالها، بينما واصلَ الملك تميم صمته، فتابعَ خالد إليه مُصِرًّا:

- سأطلب من مروة أن ترحل مع النازحين إلى جنوب بحر الرمال، أسألكَ فقط سيدي أن ترسل معها فارسًا إلى زيكولا أو إلى الملكة أسيل ليدلها إلى مدخل السرداب الغربي كي تستطيع العودة إلى بلدها.

هنالك نظرتُ له مستفهمًا ومتعجبًا بعدما انتبهتُ إلى شيء لم يذكره، وقلتُ وأنا أفكر في أنَّه لا يمتلك حُليًا من بلده في يده، حتى وإن صُنِعَ له حُلي هنا وأرادَ العودة إلى أرضنا وزماننا فلن يستطيع تجاوز ذئاب العابرات:

- هذا يعني أنَّكَ إن ذهبتَ إلى ذلك التاريخ فستعلق هناك، ولن تستطيع العودة إلى هذا الزمن بأي عالم!

لاذَ بصمته وكأنَّه فكرَ مليًا فيما اقترحه قبل النطق به، ونظرَ مجددًا إلى الملك تميم الذي ظلَّ صامتًا هو أيضًا ثم قال:

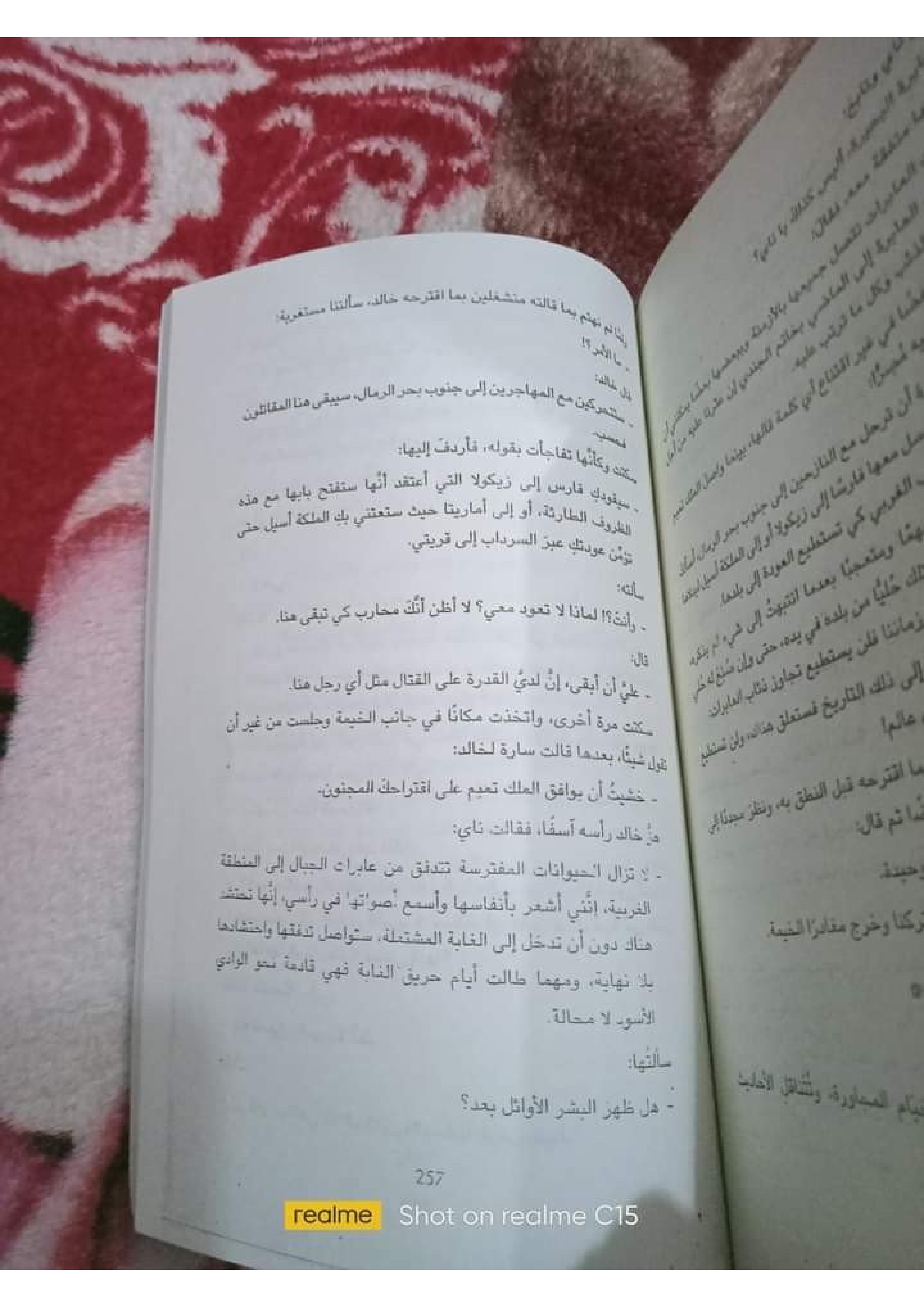
- أرجوكَ سيدي هذه فرصتنا الوحيدة.

فهزَّ الملك تميم رأسه رافضًا، ثم تركنا وخرج مغادرًا الخيمة.

***

دلفت مروة بعد ذلك إلينا، قالت:

- هناك الكثير من الجرحى في الخيَام المجاورة، وتُتناقل الأحاديث اليائسة بين الجنود بكثرة.



ولكننا لم نهتم بما قالته منشغلين بما اقترحه خالد، سألتنا مستغربة:

- ما الأمر؟!

قال خالد:

- ستتحركين مع المهاجرين إلى جنوب بحر الرمال، سيبقى هنا المقاتلون فحسب.

سكتت وكأنها تفاجأت بقوله، فأردفَ إليها:

- سيقودكِ فارس إلى زيكولا التي أعتقد أنها ستفتح بابها مع هذه الظروف الطارئة، أو إلى أماريتا حيث ستعتني بكِ الملكة أسيل حتى تؤمّن عودتكِ عبرَ السرداب إلى قريتي.

سألته:

- وأنت؟! لماذا لا تعود معي؟ لا أظن أنّكَ محارب كي تبقى هنا.

قال:

- عليّ أن أبقى، إنّ لديَّ القدرة على القتال مثل أي رجل هنا.

سكتت مرة أخرى، واتخذت مكانًا في جانب الخيمة وجلست من غير أن تقول شيئًا، بعدها قالت سارة لخالد:

- خشيتُ أن يوافق الملك تعيم على اقتراحكَ المجنون.

هزّ خالد رأسه آسفًا، فقالت ناي:

- لا تزال الحيوانات المفترسة تتدفق من عابرات الجبال إلى المنطقة الغربية، إنّني أشعر بأنفاسها وأسمع أصواتها في رأسي، إنّها تحتشد هناك دون أن تدخل إلى الغابة المشتعلة، ستواصل تدفقها واحتشادها بلا نهاية، ومهما طالت أيام حريق الغابة فهي قادمة نحو الوادي الأسود لا محالة.

سألتُها:

- هل ظهر البشر الأوائل بعد؟

قالت:

- لا، جميعها حيوانات مفترسة حتى الآن.

قالت مروة:

- لا بد وأنَّ الشاهد يريد تأمين طريق أولئك البشر أولًا من خلال افتراس تلك الحيوانات للجنود هنا ومن بعدها يُطلقهم كي يزيلوا طبقة القار.

ثم نظرَت إلى خالد وسألَته:

- أي اقتراح اقترحتَه؟

قال:

- لا شيء.

فقلتُ:

- يقترح صديقكِ أن نزيل بأيدينا طبقة القار كي نبحث عن الجندي القديم الذي أتى من بلدكم، ثم يستخدم خاتمه للعودة إلى تاريخ صنعه من خلال عابرة البحيرة كي يمنع مقتل الذئب.

رمقته بعينيها، وبدا أنَّها فكرت في حماقة مقترحه، ولاذت بصمتها، بعدها سادَ صمتٌ طويلٌ بيننا حتى قالت ناي:

- أعتقد أنَّ علينا المحاولة.

تعجبتُ مما تقوله، فأردفَت قائلة:

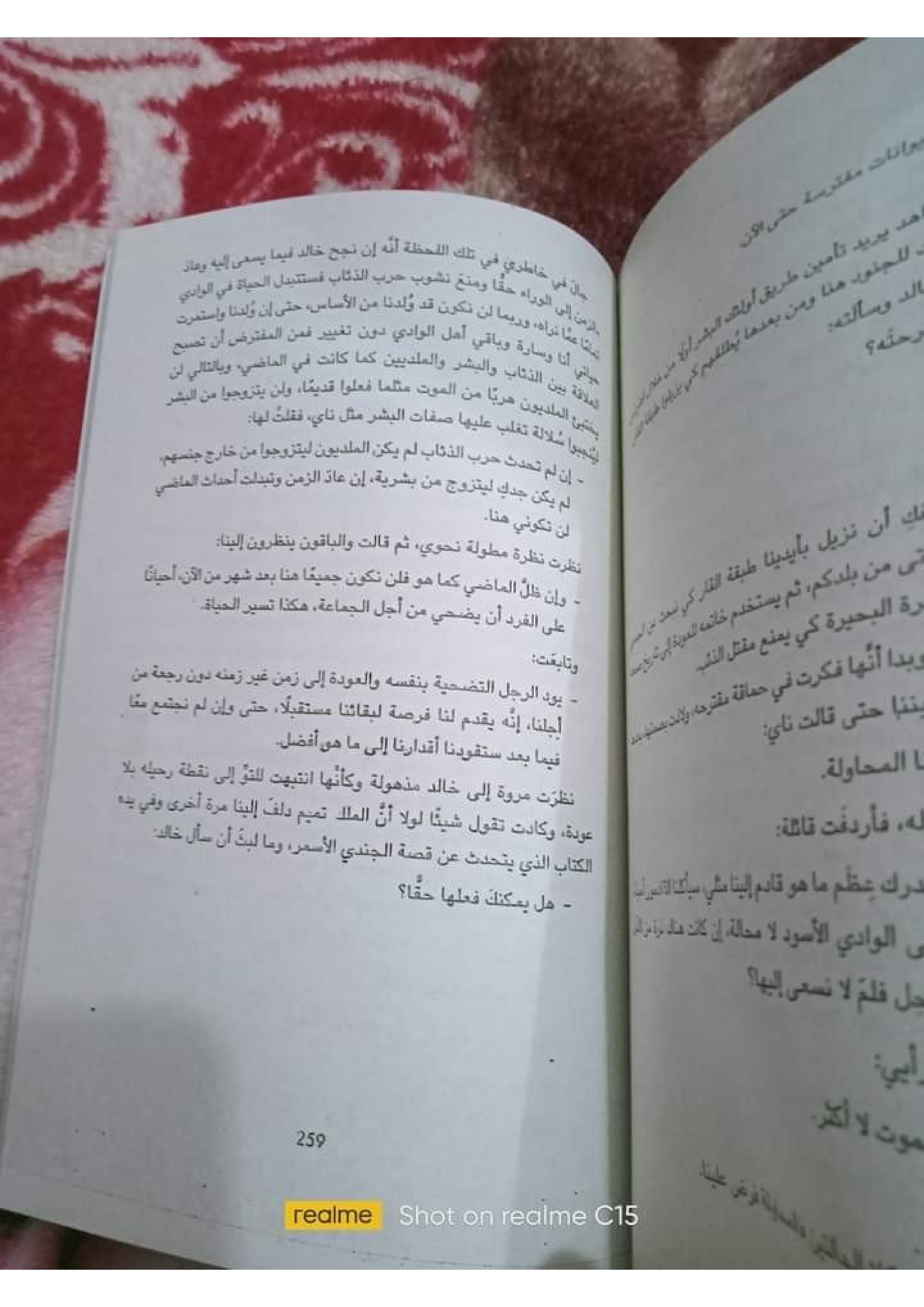
- لا أحد منكم يدرك عِظَم ما هو قادم إلينا مثلي، سيأكلنا القادمون أحياءً، وسيصلون إلى الوادي الأسود لا محالة، إن كانت هناك ذرة من الأمل يراها هذا الرجل فلمَ لا نسعى إليها؟

فقلتُ متمسكًا برأيي:

- إنَّه تعجيل بالموت لا أكثر.

فقالت:

- إن كان موتًا في كلا الحالتين فالمحاولة فرض علينا.



جال في خاطري في تلك اللحظة أنه إن نجح خالد فيما يسعى إليه وعاد الزمن إلى الوراء حقًا ومنع نشوب حرب الذئاب فستتبدل الحياة في الوادي تمامًا عما نراه، وربما لن نكون قد وُلدنا من الأساس، حتى إن وُلدنا واستمرت حياتي أنا وسارة وباقي أهل الوادي دون تغيير فمن المفترض أن تصبح العلاقة بين الذئاب والبشر والملدبيين كما كانت في الماضي، وبالتالي لن يختبئ الملدبيون هربًا من الموت مثلما فعلوا قديمًا، ولن يتزوجوا من البشر لينجبوا سُلالة تغلب عليها صفات البشر مثل ناي، فقلتُ لها:

- إن لم تحدث حرب الذئاب لم يكن الملدبيون ليتزوجوا من خارج جنسهم، لم يكن جدكِ ليتزوج من بشرية، إن عادَ الزمن وتبدلت أحداث الماضي لن تكوني هنا.

نظرت نظرة مطولة نحوي، ثم قالت والباقون ينظرون إلينا:

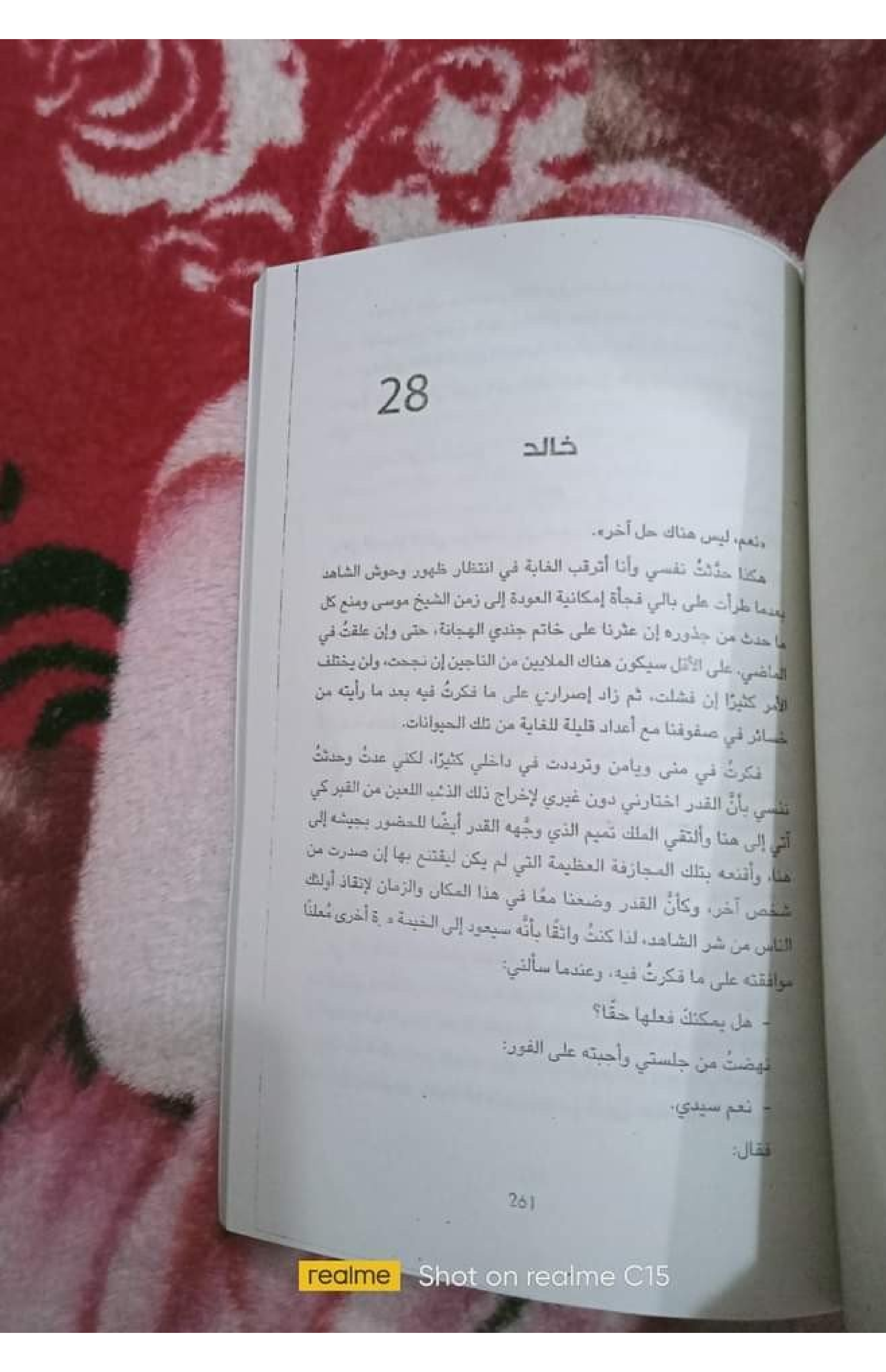
- وإن ظلَّ الماضي كما هو فلن نكون جميعًا هنا بعد شهر من الآن، أحيانًا على الفرد أن يضحي من أجل الجماعة، هكذا تسير الحياة.

وتابعَت:

- يود الرجل التضحية بنفسه والعودة إلى زمن غير زمنه دون رجعة من أجلنا، إنَّه يقدم لنا فرصة لبقائنا مستقبلًا، حتى وإن لم نجتمع معًا فيما بعد ستقودنا أقدارنا إلى ما هو أفضل.

نظرَت مروة إلى خالد مذهولة وكأنَّها انتبهت للتوّ إلى نقطة رحيله بلا عودة، وكادت تقول شيئًا لولا أنَّ الملا تميم دلفَ إلينا مرة أخرى وفي يده الكتاب الذي يتحدث عن قصة الجندي الأسمر، وما لبثَ أن سأل خالد:

- هل يمكنكَ فعلها حقًّا؟



28

خالد

«نعم، ليس هناك حل آخر».

هكذا حدثتُ نفسي وأنا أترقب الغابة في انتظار ظهور وحوش الشاهد بعدما طرأت على بالي فجأة إمكانية العودة إلى زمن الشيخ موسى ومنع كل ما حدث من جذوره إن عثرنا على خاتم جندي الهجانة، حتى وإن علقتُ في الماضي، على الأقل سيكون هناك الملايين من الناجين إن نجحت، ولن يختلف الأمر كثيرًا إن فشلت، ثم زاد إصراري على ما فكرتُ فيه بعد ما رأيته من خسائر في صفوفنا مع أعداد قليلة للغاية من تلك الحيوانات.

فكرتُ في مني ويامن وترددت في داخلي كثيرًا، لكني عدتُ وحدثتُ نفسي بأنّ القدر اختارني دون غيري لإخراج ذلك الذئب اللعين من القبر كي آتي إلى هنا وألتقي الملك تميم الذي وجّهه القدر أيضًا للحضور بجيشه إلى هنا، وأقنعه بتلك المجازفة العظيمة التي لم يكن ليقتنع بها إن صدرت من شخص آخر، وكأنّ القدر وضعنا معًا في هذا المكان والزمان لإنقاذ أولئك الناس من شر الشاهد، لذا كنتُ واثقًا بأنّه سيعود إلى الخيبة مرة أخرى مُعلنًا موافقته على ما فكرتُ فيه، وعندما سألني:

- هل يمكنك فعلها حقًا؟

نهضتُ من جلستي وأجبته على الفور:

- نعم سيدي.

فقال:

- حسنًا يا خالد، ستنسحب ثلاث فرق عسكرية من القتال هنا إلى الوادي الأسود مع طلوع النهار، اثنتان منها ستبحثان عن خاتمك نهارًا، وتطوّق الثالثة الوادي للسيطرة على أي ناهضٍ من العظام.

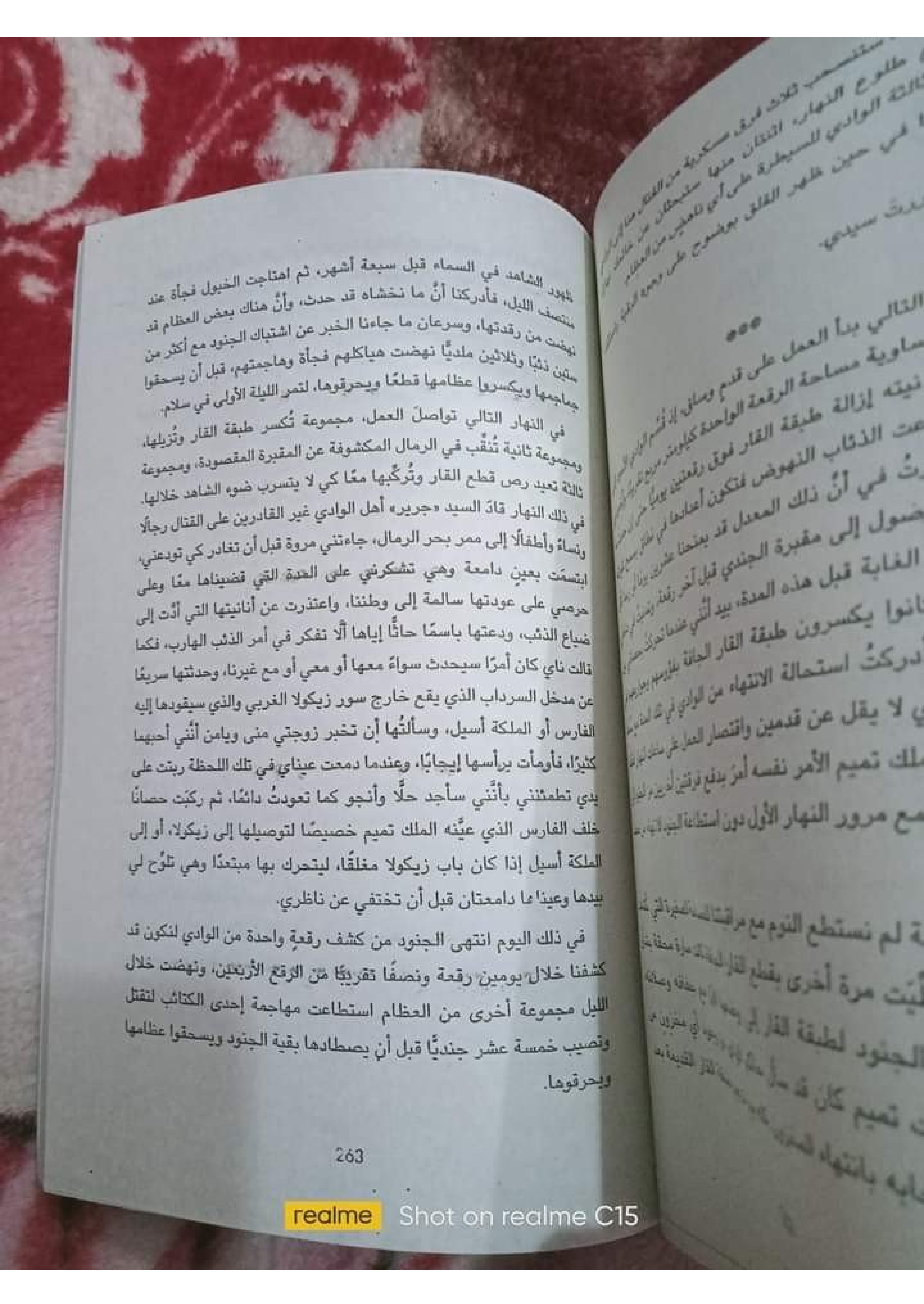
قلتُ متحمسًا في حين ظهر القلق بوضوح على وجوه البقية باستثناء ناي:

- خيرًا ما قررتَ سيدي.

❁❁❁

في الصباح التالي بدأ العمل على قدمٍ وساق، إذ قُسِّم الوادي الأسود إلى أربعين رقعة متساوية مساحة الرقعة الواحدة كيلومتر مربع تقريبًا، وأخبرني الملك تميم عن نيته إزالة طبقة القار فوق رقعتين يوميًا حتى إن حدثَ ما نخشاه واستطاعت الذئاب النهوض فتكون أعدادها في نطاق يسمح لقواته بمواجهتها، فكرتُ في أنَّ ذلك المعدل قد يمنحنا عشرين يومًا أو ربما أقل إن استطعنا الوصول إلى مقبرة الجندي قبل آخر رقعة، وتمنيتُ في داخلي ألا يخمد حريق الغابة قبل هذه المدة، بيد أنّني عندما تحركتُ بحصاني بين الجنود الذين كانوا يكسرون طبقة القار الجافة بفؤوسهم وجواريفهم في صعوبة بالغة أدركتُ استحالة الانتهاء من الوادي في تلك المدة مع سُمك طبقة القار الذي لا يقل عن قدمين واقتصار العمل على ساعات النهار فقط، وعندما أدركَ الملك تميم الأمر نفسه أمرَ بدفع فرقتين أخريين من الجنود إلى الوادي خاصةً مع مرور النهار الأول دون استطاعة الجنود الانتهاء من نصف رقعة واحدة.

في تلك الليلة لم نستطع النوم مع مراقبتنا للمساحة الصغيرة التي كُشفَت من الوادي وغُطِّيَت مرة أخرى بقطع القار الجافة، كانت سارة محقة بشأن صعوبة إعادة الجنود لطبقة القار إلى وضعها الأول مع جفافه وصلابته، وعرفتُ أنَّ الملك تميم كان قد سأل حاكم الوادي عن وجود أي مخزونٍ من القار اللّيِّن، فأجابه بانتهاء المخزون كله مع تدعيم طبقة القار القديمة بعد



بصعود الشاهد في السماء قبل سبعة أشهر، ثم اهتاجت الخيول فجأة عند منتصف الليل، فأدركنا أنَّ ما نخشاه قد حدث، وأنَّ هناك بعض العظام قد نهضت من رقدتها، وسرعان ما جاءنا الخبر عن اشتباك الجنود مع أكثر من ستين ذئبًا وثلاثين ملديًّا نهضت هياكلهم فجأة وهاجمتهم، قبل أن يسحقوا جماجمها ويكسروا عظامها قطعًا ويحرقوها، لتمر الليلة الأولى في سلام.

في النهار التالي تواصلَ العمل، مجموعة تُكسر طبقة القار وتُزيلها، ومجموعة ثانية تُنقِّب في الرمال المكشوفة عن المقبرة المقصودة، ومجموعة ثالثة تعيد رص قطع القار وتُركّبها معًا كي لا يتسرب ضوء الشاهد خلالها.

في ذلك النهار قادَ السيد «جرير» أهل الوادي غير القادرين على القتال رجالًا ونساءً وأطفالًا إلى ممر بحر الرمال، جاءتني مروة قبل أن تغادر كي تودعني، ابتسمَت بعينٍ دامعة وهي تشكرني على المدة التي قضيناها معًا وعلى حرصي على عودتها سالمة إلى وطننا، واعتذرت عن أنانيتها التي أدت إلى ضياع الذئب، ودعتها باسمًا حاثًّا إياها ألَّا تفكر في أمر الذئب الهارب، فكما قالت ناي كان أمرًا سيحدث سواءً معها أو معي أو مع غيرنا، وحدثتها سريعًا عن مدخل السرداب الذي يقع خارج سور زيكولا الغربي والذي سيقودها إليه الفارس أو الملكة أسيل، وسألتُها أن تخبر زوجتي منى ويامن أنَّني أحبهما كثيرًا، فأومأت برأسها إيجابًا، وعندما دمعت عيناي في تلك اللحظة ربتت على يدي تطمئنني بأنَّني سأجد حلًّا وأنجو كما تعودتُ دائمًا، ثم ركبَت حصانًا خلف الفارس الذي عيَّنه الملك تميم خصيصًا لتوصيلها إلى زيكولا، أو إلى الملكة أسيل إذا كان باب زيكولا مغلقًا، ليتحرك بها مبتعدًا وهي تلوِّح لي بيدها وعيناها دامعتان قبل أن تختفي عن ناظري.

في ذلك اليوم انتهى الجنود من كشف رقعةٍ واحدة من الوادي لنكون قد كشفنا خلال يومينِ رقعة ونصفًا تقريبًا من الرقع الأربعين، ونهضت خلال الليل مجموعة أخرى من العظام استطاعت مهاجمة إحدى الكتائب لتقتل وتصيب خمسة عشر جنديًّا قبل أن يصطادها بقية الجنود ويسحقوا عظامها ويحرقوها.

كنتُ أعلم أنَّ أعداد الهياكل الناهضة ليلًا قليلة جدًا بالنسبة لآلاف العظام والعُظيمات التي كنت أراها نهارًا مُكدَّسة أسفل القار المُزال، وأدركتُ في تلك الليلة حكمة الملك تميم بتقسيم الوادي، وكذلك تحسن كفاءة الجنود الذين كانوا يُركِّبون قطع القار الجافة مع بعضها البعض، لتترك بينها خطوطًا رفيعة لا تُمرر إلا قدرًا ضئيلًا من ضوء الشاهد لا يُنهِض إلا عظامًا قليلة توجد أسفل تلك الخطوط مباشرة، فيما تظل باقي العظام المُكدَّسة بالطبقات السفلى في أمان تام.

في الأيام الثلاثة التالية لم يحدث أي جديد سوى أنَّنا لاحظنا تزايد منسوب بحيرة «جمارة» بمُعدلٍ أكبر كل ساعة، وفي اليوم الرابع خرجت جماعة من الضواري تحترق أجزاء كبرى من أجسادها إلى الفرق العسكرية المواجهة للغابة، فاستطاعوا حصاد رقابها وإن بدأ القلق ينتابنا بعدما أدركنا أنَّ هناك مساحات من الغابة قد خمدَ حريقها وتسللت من خلالها تلك الحيوانات، وخشينا أن تستطيع باقي الحيوانات معرفة تلك المساحات وسلوك طريقٍ عبرها إلينا، لذا دفع الملك تميم بفرقةٍ خامسة إلى الوادي الأسود للإسراع بكشف مزيد من مساحته، إلا أنَّنا وعلى الرغم من الفرق الخمسة التي كانت تعمل على مدار ساعات النهار لم نتمكن إلا من إزالة ثمانية رُقَع فقط من رُقَع الوادي خلال العشرة أيام التالية مع تزايد سُمك طبقة القار كلما اقتربت من منتصف الوادي، كان ذلك المُعدل يعني أنَّنا قد لا نستطيع كشف نصف مساحة الوادي خلال الأيام المتبقية على انطفاء الحريق، ومع قدوم الضواري بصورة ليلية عبر الغابة المحترقة بأعداد كانت تتزايد كل يوم عن اليوم الذي يسبقه وتواصل رؤى ناي بامتلاء المنطقة الغربية عن آخرها بالحيوانات المفترسة عدا منطقة واحدة ظلَّت خالية دون أن تعرف السبب لم يكن التفكير في الدفع بمزيدٍ من الفرق إلى الوادي الأسود إلا حماقة كبرى، لذا أمر الملك تميم باستمرار الأعداد هناك كما هي من دون تغيير، ليتواصل العمل خلال الأيام التالية دون توقف.

***

في النهار العشرين من بدء التنقيب في الوادي فوجئنا بنوح يأتي بحصانه ركضًا إلينا وعلى وجهه فزع كبير، سألته قلقًا وأنا أقف بجوار الملك تميم عمّا إذا كان هناك شيء خطير، فقال لاهثًا:

- لقد رأت ناي البشر الأوائل في رؤياها للمرة الأولى، يخرجون بأفيالهم من العابرات.

ركبنا جيادنا وانطلقنا برفقته ومعنا اثنان من مساعدي الملك إلى الخيمة التي توجد فيها ناي وسارة، قالت الفتاة عندما سألناها عمّا رأته:

- قُطعان كبرى من الأفيال الضخمة ذات الأنياب الطويلة يركبها رجال عُراة كثيفو الشعر طويلو اللّحى، تحيط معاصمهم أساور فولاذية، ويمسكون في أياديهم حِرابًا طويلة، يخرجون تباعًا من العابرات ويصطفون في صفوف منتظمة بالمنطقة الخالية التي لا تشغلها الضواري وكأنّهم يستعدون لاقتحام الغابة.

دقّ قلبي مسرعًا، لم نكن قد انتهينا إلا من ثُلث مساحة الوادي تقريبًا، ومع تلك الرؤية صارَ الوقت عدوَّنا الأول، صمت الملك تميم قليلًا، ثم أمرَ أحد مساعديه بإطلاق كرات اللهب دون توقف نحو الجانب الغربي من الغابة، ثم صمتَ مفكرًا مرّة أخرى، نظرتُ إلى وجهه، فأدركت أنّ هناك الكثير من المشاعر المتضاربة تعصف في داخله في تلك اللحظة، قبل أن يفاجئني ويأمر مساعده الآخر بتحريك ست فرق أخرى من الفرق المُرابطة أمام الغابة إلى الوادي الأسود في الحال للعمل مع مُزيلي القار هناك.

حينذاك قالت سارة مرتعبة:

- ذلك يعني كثرة الأعداد الناهضة من الذئاب والملدبين كل ليلة ومع إنهاك جنودك طيلة النهار سيكون هناك المزيد من الضحايا.

وقال نوح قلقًا من بقاء أربع فرق فقط في مواجهة الغابة:

- كيف تتخلى عن أكثر من ثُلثَي دفاعاتك أمام الغابة سيدي؟!

نأجابهما:

- ليس هناك حل آخر.

وخرجَ مغادرًا. نظرَ لي الاثنان نظرة مؤنبة وكأنّني السبب في كل ما يحدث بعد التراخي بالتنقيب في الوادي بحثًا عن خاتم الجندي، فقلتُ هاتفًا:

- ما زال لدينا أمل، يمكنكما المغادرة إلى جنوب البحر الرملي الليلة إن أردتما.

أومأ برأسيهما رافضين، فخرجتُ لأتبع الملك تميم إلى الوادي الأسود.

●●●

بعد ثلاثة أيام اجتزنا أخيرًا نصف الوادي، وللأسف لم نعثر على مقبرة الجندي، فكرتُ في ذلك المساء وأنا أقف أمام البحيرة وأبصر مستوى مائها الذي صارَ قريبًا للغاية من حافة جرفها أنّني كنتُ مخطئًا في تفكيري منذ البداية، وبدأت تدور في رأسي أفكار متخبطة يائسة تُرجّح احتمالية إزالة قدماء هذا البلد لأي مقابر بشرية بالوادي الأسود قُبَيل دفنهم عظام الذئاب والملديين فيه، وتسرّبَ إلى داخلي للمرة الأولى شعور بالذنب تجاه الجنود العاملين هناك، وفكرتُ جديًا في سؤال الملك تميم بأن نكتفي بما تمَّ كشفه وأن نريح الجنود خلال الأيام الستة المتبقية كي يستعدوا للقتال القادم، ثم جلستُ على ضفة البحيرة مواصلًا تفكيري في حيرة كُبرى، حتى وضعتُ رأسي بين راحتي يدي وأغمضتُ عيني من شدة إرهاقي الذهني، قبل أن أستشعر حركة مفاجئة في ماء البحيرة أمامي، ففتحتُ عينَيَّ مرتابًا، لكنّي لم ألحظ شيئًا في الماء، فنهضتُ من جلستي كي أعود للقاء الملك تميم، لكنّي ما إن استدرتُ حتى أمسكَ بقدمي فجأة شابٌ عارٍ مُبلل، جسده يرتعش بقوة، سقطتُ مجفلًا من المفاجأة، وأخرجتُ خنجري الذي كان معي منذ عثرتُ عليه بأحد بيوت المنطقة الغربية، وكدتُ أشقُّ عنقه لولا أنّني لاحظتُ أنَّ عينيه صفراء لا ترى، تلمع بشدة مع ضوء الشاهد، فتوقفتُ ذاهلًا مُحملقًا في جسده النحيف بعدما أدركتُ أنّه ملدي فرّت عظامه من الوادي الأسود إلى بحيرة جِمارة حيث كُسيَت لحمًا وجلدًا.

❋❋❋

ذاهلين وغير مصدقين كانت سارة ونوح والملك تميم وثلاثة من مساعديه ينظرون إلى الشاب الذي كوَّمَ جسده في وسط الخيمة بعد إلباسه سترة وبنطالًا من الكتان بينما لاذَت ناي بصمتها. حاولَ أحد القادة استجوابه أمامنا، لكنَّه أجابَ عن الأسئلة جميعها بعدم تذكره أي شيء، فنطقت ناي حينها:

- إنَّه صادق، لم يمر على اكتمال خلاياه إلا وقت قصير للغاية، ولم يبث الشاهد في عقله أوامره إلى الآن.

وقتئذٍ أعطى الملك تميم أوامره لأحد مساعديه بتشديد الحراسة بمحيط البحيرة والتأكد من إحراق أي عظام ناهضة كي لا يتكرر ما حدث مع ذلك الملدي، ثم أمرَ مساعدًا آخر بإطعامه والتحفظ عليه بخيمة مجاورة وإخباره إن جدَّ أي جديد بشأنه، فاقتاده ذلك القائد إلى الخارج وتبعه القائدان الآخران، طلبتُ حينها من ناي وسارة ونوح مغادرة الخيمة، ولما غادروا قلتُ للملك تميم:

- أعتقد أنَّني كنتُ مخطئًا في تفكيري بشأن البحث عن تلك المقبرة، ربما علينا أن نتوقف عن التنقيب في الوادي، وأن نعيد الجنود إلى أماكنهم في مواجهة الغابة.

هزَّ رأسه رافضًا وقال حاسمًا:

- لم تعد هناك رجعة، علينا أن نكمل ما بدأناه، سنجده يا صديقي.

حاولتُ أن أستطرد، فرفعَ يده مصممًا على قوله، فأومأتُ برأسي إيجابًا وإن لم يزل القلق عن داخلي.

❊❊❊

في النهار التالي لم يحدث أي جديد، وكذلك النهار الذي تلاه باستثناء تأكيد ناي تواصل تدفق البشر الأوائل عبر عابرات الجبال، واستمرار المعارك الليلية الصُغرى بين الجنود والهياكل الناهضة، ووصول دفعات أكبر كانت أقل حروقًا من سابقيها واستطاعَ عددٌ كبير منها تجاوز الفرق الأربعة المواجهة

للغابة، إلّا أنّ الفرق المحيطة بالبحيرة وبالوادي الأسود استطاعت القضاء عليها، ثم حدثت المعجزة أخيرًا في منتصف اليوم الثامن والعشرين من بدء التنقيب في الوادي عندما ارتطم سن جاروف أحد الجنود فجأة بشيء صلب لا يتحرك أسفل طبقة قار الرقعة الواحدة والثلاثين، وعندما أزالَ مزيدًا من القار المحيط والرمال التي توجد أسفله فوجئ بكونه قطعة مسطحة كبرى من المرمر الأبيض، فأزالَ عنها مزيدًا من الرمال والقار بمساعدة رفقائه الذين أدركوا مع وضوح معالمها شيئًا فشيئًا أنّها ليست إلّا غطاء قبر دُفِنَت جدرانه بين الرمال، ليواصلوا إزالة الرمال والقار عنها حتى صارَ القبر مكشوفًا تمامًا، كنتُ وقتها أقف برفقة الملك تميم على بُعد نصف ميل منهم تقريبًا عندما جاءنا فارس يخبرنا بحدوث المعجزة، فانطلقنا بجيادنا خلفه على الفور.

سأل الملك تميم قائد تلك الفصيلة إن كانوا قد فتحوا القبر بعدُ، فأجابه نافيًا مؤكدًا انتظاره، نزلتُ على ركبتَيّ متحسسًا بيدي سطح القبر الأملس، ونظرتُ إلى الملك تميم، فأمرَ قائد الجنود برفع الغطاء الذي كان يبلغ سُمكه عشرة سنتيمترات تقريبًا، فدَسَّ جنديان جاروفيهما أسفله وبدآ يرفعانه حتى أزالاه، فظهر باطن القبر يقبع في وسطه هيكلٌ عظمي بجواره حذاء طويل العنق وبذلة عسكرية خضراء مهترئة ما إن أبصرتها حتى أدركتُ أنّها نفس البذلة العسكرية التي رأيتُ الهجّانة يرتدونها في رؤى يامن، فقلتُ للملك تميم بعينين لامعتين فرحًا:

- إنّه هو سيدي.

وإن أصابني التوتر سريعًا عندما نظرتُ بعيني نحو عُظَيمات يديه ولم أبصر خاتمًا، فنزلت إلى القبر مُبعدًا قدمي عن العظام، وحملتُ عُظَيمات اليد متفحصها ومتفحصًا طبقة الرمال الرقيقة أسفلها، لتتسارع أنفاسي عندما لم أعثر على شيء، وكان القلق نفسه قد انطبع على وجه الملك تميم عندما استرقتُ النظر نحوه وأنا أبحث بجيوب البذلة العسكرية دون جدوى، حتى صرختُ إليه عندما تدحرجَ الخاتم ساقطًا من فردة الحذاء العسكري وأنا

...ك بها بحثًا عنه، لأحمله إلى الملك تميم وأقول له بفرحة لم أشعر بمثلها

... وطأت قدمي تلك الوادي:

- ها هو هدفنا سيدي.

ليمسك به ويحدق إليه بشرودٍ كبير، قبل أن يأمر مساعديه بإعادة طبقات

القار المُزالة إلى موضعها، وتحريك كافَّة الفرق المقاتلة إلى أماكنها بالجانب

الشرقي للغابة مرة أخرى.

❁❁❁

عندما عدنا إلى الخيمة لم يصدق نوح وسارة أنَّنا عثرنا على الخاتم إلَّا

عندما أمسكَ كُلٌّ منهما به في انبهارٍ شديد، ثم نظرت لي سارة وقالت:

- صارت حياتنا كلنا متوقفة عليكَ الآن يا خالد.

بينما نظرَ نوح إلى ناي نظرة شاردة حائرة، فنطقتُ إليه وأنا أربت على

كتفه:

- ستعثر عليها مستقبلًا يا فتى.

سألني الملك تميم عمَّا إن كنتُ مستعدًا، فهززتُ رأسي إيجابًا، فقال:

- هناكَ زورق يتم تجهيزه الآن، سيقودكَ مُجَدِّفوه إلى عابرة البحيرة.

ثم تابع:

- وفق ما ذُكر في الكتاب وما نعرفه من حكايات الوادي القديمة، سيعيدك

الخاتم إلى وقتٍ يسبق مقتل الذئب بشهرٍ كامل، خلال هذا الشهر

سنقاوم الوحوش الهاربة من الغابة المحترقة على قدر المستطاع،

وبعد خمود نيران الغابة تمامًا سننسحب إلى داخل أسوار «براقيا»

لنتحصن بها حتى تمنع مقتل الذئب، افعلها من أجلنا يا خالد.

فقلت باسمًا:

- سأفعلها يا صديقي.

بعدها فوجئنا بمروة تدخل إلينا لاهثة متعرقة وكأنّها كانت تركض، وتقول لي:

- ظننتُ أنني لن ألحقَ بك، هل عثرتَ عليه حقًّا؟!

تعجبتُ من عودتها، فأردفَت سريعًا:

- كنت قد اجتزتُ ممر بحر الرمال بالفعل، وقطعتُ أكثر من عشرة أيام أخرى بالطريق الممتد نحو بلاد الجنوب، حتى سألتُ الفارس أن يعيدني إلى هنا بعدما انتبهتُ إلى شيءٍ أغفلتَه، أعتقد أنّه قد يستطيع إعادتكَ إلى سرداب فوريك قبل ثمانية أشهر من الآن إذا عبرتَ به الطاحونة القديمة بعد الانتهاء من مهمتكَ.

سألتها على الفور:

- أي شيء؟

أخرجَت من جيبها عُقدًا من الصدف الموصول ببعضه بحلقات صغيرة نحاسية، وقالت:

- إنَّ الصَدَف شيء طبيعي استُخرِجَ من بحر بلادنا، وكذلكَ النحاس، وكما ترى صيغ في شكلٍ دائري، لقد أهدتني أمي إياه في عيد ميلادي قبل ثمانية شهور، بعدما أوصَت أحد صُنّاعه بصناعته خصيصًا من أجلي قُبَيل ذلك اليوم بأسبوع.

حدَّقتُ إليها غير مصدق، فقالت باسمة وهي تمد يدها لي به:

- لن نخسرَ شيئًا من المحاولة، سأعبر الطريق الجنوبي إلى زيكولا مرة أخرى، وأتمنى أن ألقاكَ في قريتكَ في المستقبل القريب.

أمسكتُ بالعقد مدهوشًا، قبل أن أبتسم وأنظر إليها ممتنًا، بعدها دلفَ إلينا أحد الفرسان وقال للملك تميم:

- إنَّ زورق البحيرة على أتم الاستعداد سيدي.

الفصل الأخير

مع جنديين يجدِّف كل منهما بمجداف طويل ركبتُ الزورق الصغير المجهز من أجل نقلي إلى عابرة البحيرة، نظرت إلى الملك تميم الذي كان يقف مع البقية على ضفة البحيرة ناظرين نحوي، وأومأتُ له برأسي إيجابًا بأنني سوف أفعلها، فأجابني بإيماءة باسمة مشجعة، قبل أن ألوِّح بيدي مودعًا له ولمروة ولأصدقاء الوادي سارة ونوح وناي الذين رفعوا أياديهم ملوحين لي بحرارةٍ هم أيضًا، ألقيتُ بعدها نظرة مطوَّلة نحو سماء الوادي وجنبات البحيرة، قبل أن أخرج عقد مروة من جرابي القماشي وأتأكد من عدم اتصال طرفيه في ذلك الأوان خشية أن تمر عبرَ دائرته طاقة العابرة فتنقلني مباشرة إلى سرداب فوريك، وإن كانت مروة قد فتحت مِشبكه وفصلت طرفيه أمامي بالفعل، ثم تفحصتُ خنجري المُغمد وبذلة الجندي العسكرية وحذائه وجمجمته التي أخذتها في جرابي أيضًا، وأغلقتُ عنق الجِراب بإحكام.

بعد دقائق توقف الجنديان عن التجديف، وقال أحدهما وهو يشير بيده نحو فقاقيعٍ تظهر في مركز دوائر مائية متتالية تُولد صغيرة ثم تتسع لتتلاشى في النهاية:

- إنَّه المكان الذي ينبع منه ماء البحيرة سيدي.

قلتُ وأنا ألفُّ طرفي حبل الجِوال حول خصري، وأعقدهما معًا جيدًا:

- حسنًا، إنَّني جاهز.

ثم أخرجت خاتم الجندي من جيبي ووضعته في سبابتي اليمنى، وبعدما ألقيتُ نظرة خاطفة إلى أصدقائي قفزتُ إلى المياه بجِوالي، وسبحتُ نحو تلك الدوائر التي سرعان ما جذبتني نحو مركزها ما إن عبرتُ أول دائرة منها، فملأت صدري بالهواء قبل أن أغوص إلى أعماق البحيرة متتبعًا بكل طاقتي المسار العمودي الذي تصعد منه الفقاقيع كي أصل إلى منبع الماء قبلما ينفد هواء صدري.

عندما وصلتُ إلى قاع البحيرة أكملتُ غوصي نحو دائرة شفافة يُناهز قطرها مترًا ونصفًا، تظهر وسط رمال القاع الداكنة وتخرج منها فقاعة كبرى كل حين، جذبتني تلك الدائرة إلى داخلها ما إن مددتُ ذراعي إليها حيث اشتدت الظلمة لثوانٍ قبل أن يتحول ذلك الظلام إلى ضوء أبيض شديد ذكرني وأنا أغمض عيني من شدته بدائرة الضوء التي دخلنا إليها أنا ومروة يوم عبرنا السرداب إلى ذلك الوادي، ثم شعرتُ بسخونة الخاتم بعض الشيء حول إصبعي، وسرعان ما اعتصر وجهي الألم مع اشتداد سخونته واحتراق جلد إصبعي أسفله، بعدها خفتَ الضوء فجأة وما إن فتحتُ عيني حتى وجدتني ألفَظ في الهواء، وأسقط أرضًا في مكانٍ شبه مظلم، لم يكن إلّا تلك الطاحونة التي رأيتها في رؤى يامن.

***

متألمًا نزعتُ الخاتم عن إصبعي، ثم فككت طرفي حبل الجِوال عن خصري، ووضعته بجواري يقطر الماء منه، وخلعت قميصي وبنطالي وعصرتُ ماءهما وارتديتهما مجددًا، ثم زادت الإضاءة داخل غرفة الطاحونة فأدركتُ أنَّ البدر قد سطع بالسماء دون غيومٍ تواريه، حينذاك أزلتُ بخنجري بعض الطوب المحيط بفتحة صُغرَى كانت توجد في أحد الجدران حتى صارت مناسبة للخروج منها، فخرجتُ بجِوالي إلى الأرض الزراعية المجاورة التي أظهرها البدر الساطع بوضوح، جالت في بالي وأنا أتفحص الأرجاء من حولي كلمات «إسماعيل» المُدوَّنة في الكتاب عن صنع الخاتم في الليلة التي سبقت دخولهم القرية، وأدركت وصولهم إلى القرية بعد ساعات. فكرتُ

الذهاب إلى منطقة البيوت التي ظهرت ظلالها بعيدًا أسفل ضوء البدر؛ ثم تراجعتُ وجلستُ على ضفَّة الترعة الشرقية التي لم تتغير معالمها في قريتنا على الرغم من مرور مائة عام منتظرًا حلول الصباح، ومفكرًا فيما سيحدث بعد ساعات، ثم شعرتُ بالجوع فنهضت وتجولتُ بين الحقول أملًا في العثور على أي ثمرة تؤكل، كانت جميع الأراضي القريبة من الطاحونة محترقة لا يوجد بها شيء يؤكل، فعدتُ إلى الطاحونة مرة أخرى ودخلتُ إلى غرفتها عبر فتحتها الجانبية، وجلستُ مسندًا ظهري إلى جدارها أنظر إلى أجزائها؛ قادوسها الضخم وذراعها الخشبية الطويلة، قبل أن تنسدل جفوني ويغلبني النعاس لأنهض مع تسرب ضوء النهار عبر الفتحة الجانبية وأجد شباك العناكب والأتربة قد ملأت الغرفة ووارَت أجزاء الطاحونة، وقبل أن أفكر في كيفية حدوث ذلك تناهَى إلى مسامعي صوت إطلاق النار المتتابع وصداه، فعرفت أنَّ جنود الهجَّانة قد وصلوا إلى القرية، ونهضتُ على الفور وخرجتُ متجهًا نحو منطقة بيوتها.

❋❋❋

كان الهرج والمرج يسودان شوارع القرية في ذلك الحين، ومن فوق جمالهم أخذ الجنود يوَجِّهون الناس بسياطهم نحو ساحةٍ بمنتصف القرية صارت في وقتنا الحالي أرض مدرسة ابتدائية، اندفعتُ مع الجميع دون أن ينشغل أحد بي ولا بثيابي الغريبة، ووقفتُ بين الحاضرين أستمع إلى خطاب قائد الجنود الذي كان يؤكد فيه فرض حظر التجوال في القرية وإطلاق النار على من يخرج من بيته بعد غروب الشمس، فكرت حينها في الذهاب إليه وإخباره بما ينتظرهم داخل الطاحونة وأريه بذلة إسماعيل وحذاءه وخاتمه وجمجمته، لكني توقفت عن التقدم إليه عندما رأيته يضرب مزارعًا بسوطه دون رحمة لمجرد أنه وقف في طريق جمله، وفكرت في احتمالية عدم تصديقه لي مع ما رأيته في عينيه من غرور حتى وإن كنت أمتلك كل تلك الأدلة، ومَن يدري لربَما يأمر جنوده بتكبيلي أو يصوِّب بارودهُ نحوي كي لا

أزعزع هممهم، وحينها لن أجني شيئًا سوى فقدان فرصة وجودي في هذا البلد ليلة مقتل الذئب بعد شهر، لذا تراجعت وآثرت الانتظار.

بعدئذٍ بحثت بعيني بين الحاضرين عن موسى فأدركتُ صعوبة اكتشافي له مع حتمية اختلاف هيئته المهملة في الصورة التي احتفظ بها جدي عن هيئته في ذلك التوقيت، بالإضافة إلى أنَّ توقيت تلك الصورة كان بعد عشر سنوات على الأقل من تاريخ ذلك اليوم. ثم صرفنا الجنود بغلظةٍ، فسألني شاب مستغربًا عمَّن أكون، فأخبرته أنَّني من مدينة «الإسكندرية» جئتُ باحثًا عن خواجة اسمه «فايز»، فقال:

- لم يأتِ إلى القرية منذ أكثر من عامين.

ثم استطردَ بالحديث عن سوء حظي بالإتيان في ذلك اليوم، وتمنى لي الخروج سالمًا من بطش أولئك الجنود. شكرته، وكادَ يغادر، فتذكرت شيئًا رأيته في رؤى يامن، حينما قال أحد الشبان لموسى:

- إنَّها سيارة صديقك.

فسألتُ الشاب:

- هناك شاب اسمه «موسى» يعرف الخواجة؟

أجابني ضاحكًا:

- الولد موسى! يتحدث دائمًا عن الخواجة كأنَّه أحد أفراد عائلته على الرغم من أنَّ الخواجة لا يعرف شيئًا عن وجوده أصلًا.

قلتُ:

- هل يمكنك أن تدلَّني عليه؟

أشارَ بيده نحو أحد الشوارع في غير اكتراث:

- إنَّ بيته هناك، يطل على الشارع العمومي، بيت منخفض من طابق واحد، يفصله عن مسجد القرية شجرة توت كبيرة.

شكرته مجددًا ثم تجولتُ في القرية بعض الوقت، وقُبَيل غروب الشمس توجهتُ إلى بيت موسى مهتديًا بوصف الشاب [illegible] قتُ بابه الخشبي،

أقل من دقيقة فتح الباب شابٌ ابتسمتُ وأنا أحدق إلى ملامح وجهه التي كانت تختلف ببعض الشيء فعلًا عن ملامحه في صورة جَدّي القديمة، سألني مستغربًا وهو ينظر إلى جوالي:

- من أنت؟!

قلت:

- إنني من طرف الخواجة فايز.

انفرجت أساريره فجأة، وسألني:

- هل أرسلك لتشتري أرضي؟!

لم يكن في بالي شيء عند قدومي إليه، لكنّي أجبته في الحال:

- نعم، بالضبط، هل يمكنني الدخول؟

قال محرجًا:

- نعم، تفضل.

وأدخلني إلى ردهة صغيرة توجد بها أريكتان خشبيتان صغيرتان أجلسني على واحدة وجلسَ هو على الأخرى، نظرتُ إلى أركان البيت، لم يختلف كثيرًا عن البيوت القديمة التي لطالما رأيتها في طفولتي في الحارة القديمة بقريتنا؛ جدران من الطوب اللبن المُلطّخ بالطين، أرض طينية تتناثر بها بقع المياه، وسقف من الغاب والقش مدعوم بقوائم خشبية. قال:

- لم يأتِ الخواجة منذ زمن إلى القرية.

قلتُ:

- نعم، لذا أرسلني من أجل تقديم عرض لأرضكَ.

وأردفتُ:

- كم تريد ثمنًا لها؟

قال باسمًا:

- ما يراه الخواجة، لقد ثمّنها أحد الأهالي هنا بستة جنيهات، وأنا لن أختلف مع الخواجة على السعر.

قلتُ:

- حسنًا سأبلغه بالأمر.

ثم أبديتُ قلقي وأنا أتابع:

- لكن هل لي أن أبقى هنا حتى صباح الغد؟ لقد غربت الشمس وأخشى أن يؤذيني جنود الهجانة إن خرجتُ في هذا الوقت.

فكّرَ قليلًا ثم قال:

- على الرحب والسعة بالطبع، أمتلك سريرًا واحدًا، يمكنك النوم عليه، وسأنام أنا على هذه الأريكة.

قلتُ شاكرًا:

- لا لستُ طماعًا إلى هذه الدرجة، سأنام أنا على هذه الأريكة.

أقسمَ مُصرًا على ترك سريره لي، فانصعتُ له في النهاية، بعدئذٍ تحدثنا عن حال القرية وعن الحريق الذي حدث قبل سبعة أيام وقُتِلَ في إثره تسعة عشر رجلًا، كان الشاب يتمتع بذهنٍ متقد وعقل سليم تمامًا ورغبة واضحة بالانتقال إلى المدينة للتحرر من قيود القرية، سألني عن معرفتي بالخواجة، فتحدثتُ كاذبًا عن عملي معه بمدينة الإسكندرية، ثم حوّلتُ مجرى الحديث إلى الهجّانة الذين أتوا إلى القرية وأنا أفكر في أنّ إخباري له بكونهم لصوصًا جاؤوا من أجل الدخول إلى الطاحونة سيكون مجازفة كُبرَى قد تنتهي بطردي من بيته مع عدم تصديقه لي حتى وإن أريته ثياب الجندي وجمجمته، فلم أخبره، ثم بدأ الهجّانة يتجولون بجمالهم في الشوارع المجاورة للبيوت، وبين حينٍ وآخر كنّا نسمع أصوات طلقات بنادقهم النارية، فبدأ الفتى يتمتم ببعض آيات القرآن متمنيًا ألّا يُصاب أحد بأذى، وبصوت عالٍ أخذ يحمد الله لوجودي معه في تلك الليلة التي لم يكن ليعرف كيف كانت ستمر إن بقى بمفرده

خانقًا، قبل أن يجرّ أريكته الخشبية إلى الغرفة التي يوجد بها سريره الوحيد الذي أعاره لي ويستلقي عليها.

***

ظلّت الحيرة في داخلي متواصلة؛ جانب مني يرى أن أعود إلى قائد الهجانة وأنصحه بأن يرحل هو وجنوده قبل فوات الأوان مثلما فكرت صباحًا، تعارضه بشدة أفكارٌ في رأسي تصر على وجود احتمالٍ ولو ضئيل بعدم تصديقه لي، واحتمالية تعرضه لي بالأذى، وبالتالي ضياع فرصتي الوحيدة لإنقاذ ذئب «صامون» بعد شهر، وجانب يرى بأن أخبر موسى بما ينوي الهجّانة فعله، لعلّه يجمّع أهل القرية ويمنع دخولهم إلى الطاحونة، تعارضه أفكارٌ تذكرني بالخوف البادي على وجوه أهالي القرية في الساحة، مؤكدةً استحالة قيامهم بمقاومة جنود الهجّانة حتى وإن علموا بكونهم لصوصًا، وجانب أكبر يؤيد انتظاري دخول الهجانة إلى الطاحونة ومنع ذهاب موسى إليها بعد شهر، وبعد تفكيرٍ طويل رأيت أنَّ الحل الثالث الذي يؤيد الانتظار هو الأضمن خاصةً مع وجود مبررٍ أستطيع القدوم به إلى موسى لاحقًا، كما أنّني رأيتُ فيما سيحدث للصوص نوعًا من العدالة بعد تسببهم في مقتل تسعة عشر رجلًا إثر الحريق الذي سببوه، ثم انتصفَ الليل فسمعنا صوت محرك سيارة تدخل إلى القرية عبر الشارع العمومي، فقال موسى متعجبًا:

- إنّها سيارة الخواجة فايز!

هززتُ رأسي إيجابًا زاعمًا قلقي ومفاجأتي فقال مضطربًا:

- سيقتله الهجانة ما لم يلتزم بالحظر الذي فرضوه.

ولم يكد يُكمل جملته حتى سمعنا صوت إطلاق البارود يصدع متتاليًا في الخارج، فأمسكَ الفتى برأسه متحسرًا، فقلتُ:

- لعلّه بخير، سأنتظر حتى هدوء حركة الجمال في الخارج وسأخرج لأتبيَّن الوضع.

قال:

- هل أنتَ مجنون؟ إن خرجتَ سيقتلونك.

قلتُ:

- لا تقلق، عليَّ أن أطمئن على الخواجة.

في خلال الساعتين التاليتين تواصلَت أصوات البارود على فترات، ثم هدأت الأصوات في الخارج تمامًا، ففتحتُ النافذة المُطلَّة على الشارع، فوجدته ساكنًا لا يوجد فيه أحد سواءً من الهجَّانة أو أهل القرية، حينذاك نظرتُ إلى موسى، كان قد غاب في سُباته، فوجدتني أفكر وأنا أنظر إليه أنَّه إن مات فلن يُقتَل ذئب «صامون» بعد شهر، ولن يموت كل أولئك البشر الذين ماتوا نتيجة لقتله، وستنتهي الحرب الدائرة بوادي الذئاب أثناء وجودي في القرية، وهمستُ إلى نفسي وأنا أحدق إلى وجهه:

- إنَّ موته سيكون أفضل له من عيشته التي عاشها بعد رؤيته للذئب.

ووجدتني أتحسس خنجري، فتقلَّبَ على الأريكة معطيًا ظهره لي، فأبعدتُ يدي عن مقبض خنجري، وتنهدتُ محدثًا نفسي:

- لا، لستُ قاتلًا، سأنتظر ليلة بدر الشهر القادم.

ثم وثبتُ من النافذة إلى الخارج، كانت الشوارع تختلف كليًا عن شوارع قريتنا في وقتنا الحالي، لكنِّي على الرغم من ذلك استطعتُ معرفة الطريق نحو المنطقة الزراعية التي توجد بها الطاحونة، وبحذرٍ شديد اقتربتُ منها وسط سكون الأجواء القاتل، لأجد الجنود هناك يدلفون تباعًا إلى داخلها دون اكتراث بشيء من حولهم، رقدتُ بالأرض الزراعية المجاورة أراقبهم من بعيد، وأراقب الخواجة فايز الذي كان يقف على باب الطاحونة يُسلِّمهم الخواتم الذهبية، قبل أن يدخل خلفهم ويترك جنديًا وحيدًا أغلقَ باب الطاحونة بقفله من ورائهم، وركبَ جمله وانطلقَ بعيدًا، فنهضتُ وتسللتُ على أطراف أصابع قدمي إلى جانب الطاحونة وألقيتُ نظرةً عبر فتحتها الجانبية، فلم أجد أحدًا في داخلها، حينذاك أعدتُ رص الطوب الذي أزلته من الجدار قبل ليلة واحدة

بارزًا فتحته صغيرة كما كانت، ثم دُرتُ حول الطاحونة، فوجدتُ جملًا باركًا على بعد أمتار منها على عكس الجمال التي فرَّت بعيدًا نحو القرية، اقتربتُ منه في هدوء، ثم امتطيته، فوقفَ على قوائمه في الحال وكادَ يُسقطني لولا أنني تشبثتُ برحلِه جيدًا، بعدها انطلقتُ به إلى الطريق الترابي المؤدي إلى مدينة المنصورة حيث عزمتُ على قضاء الشهر المتبقي في نُزُل هناك مقابل خاتم الجندي الذي أمتلكه وذلك الجمل الذي صارَ ملكًا لي.

***

متطلعًا إلى السماء كل ليلة، ومفكرًا في مصير أصدقائي بوادي الذئاب، وآملًا بأن يكون الجيش الأماريتي قد استطاع الصمود خلف أسوار «براقيا»، ومتجولًا في شوارع مدينة المنصورة القديمة، ومُدوِّنًا في أوراقٍ اشتريتها ما حدث معي منذ أرسلت لي مروة رسالتها الإلكترونية قضيتُ أيامي المتبقية على حلول بدر الشهر الجديد، وكلما لامتني نفسي بعدم تدخلي لمنع الهجَّانة من دخول العابرة تحدثتُ إليها مبررًا بما فكرت فيه سابقًا، لتسكن قليلًا عن لومي، قبل أن تعاوده مرة أخرى، لتمر الأيام تباعًا حتى انتصفَ الشهر القمري، فأقلَّني شخص بحنطوره إلى القرية مع غروب الشمس حيث اتجهتُ مباشرةً إلى الطاحونة ومعي الأوراق التي دوَّنتُ فيها قصتي بالكامل وأغراض جندي الهجَّانة، ودُرتُ حولها وأنا أنظر إلى البدر المكتمل في السماء، قبل أن أجلس منتظرًا على بعد خطوات منها، ثم اشتدَّت الريح فجأة وبدأت الغيوم الكثيفة تغطي البدر بين حينٍ وآخر، فتذكرتُ أنَّ ذلك ما كان يحدث تمامًا وموسى يتحرك نحو الطاحونة وفقَ ما رأيته في رؤى يامن، وواصلتُ انتظاري لساعاتٍ أخرى مُحدقًا إلى كافة الأرجاء من حولي، حتى أبصرتُ أخيرًا ضوءًا بعيدًا خافتًا يتقدم نحو الطاحونة، فنهضتُ من جلستي واقتربتُ من الطاحونة دون أن أُظهِر نفسي، كان هو موسى مرتديًا جلبابه الفلاحي، يقترب بلمبته الجاز متمتمًا بآيات القرآن بصوت عالٍ، قبل أن ينزل على ركبتيه

وينظر عبرَ فتحة جدار الطاحونة، فكَّرتُ في التدخل حينذاك، لكنّي انتظرتُ، ثم بدأ الاضطراب يظهر على وجهه مع مواصلته النظر عبرَ تلك الفتحة، وكلما غطت الغيوم البدر أو انقشعت عنه نظرَ إلى داخل الطاحونة من جديد، وتمتمَ بمزيد من آيات القرآن، حتى سقطَ على ظهره فجأةً في فزع شديد، هنالك أدركتُ أنَّ أشلاء الجنود قد بدأت تُلفَظ من الطاحونة، وأنَّ الذئب يوشك على الخروج، لم أكن أعرف كيف سيخرج من غرفة الطاحونة مع إغلاق بابها بالقفل، لكنّي كنتُ متيقنًا أنّه سيفعلها كما رأيته في رؤى يامن، لذا نهضت متحركًا نحو موسى وقلتُ:

- عليكَ أن تعود إلى بيتكَ الآن يا موسى.

هوَى على الأرض مرتعبًا وكأنّه ظنَّني عفريتًا، فقلتُ مهدئًا له:

- إنَّني هو، صديق الخواجة فاين، قضيتُ ليلة في بيتكَ منذ شهر، ألا تتذكرني؟

قرَّبَ لمبته نحوي بيده اليُمنى وهو يمسك عصا فأسه الصغيرة بيده اليسرى، ثم سألني متعجبًا بعدما تعرف على وجهي:

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟!

قلتُ:

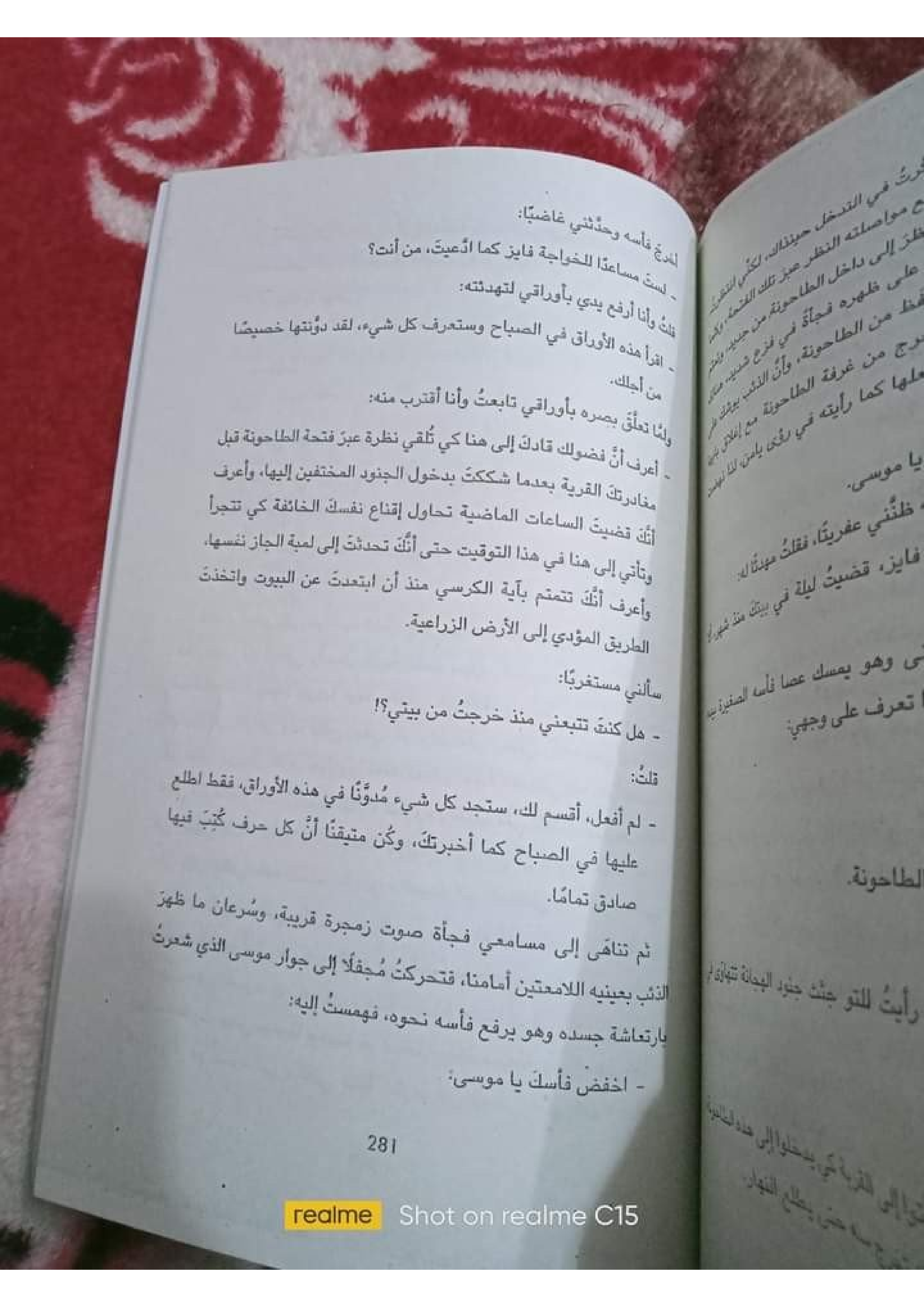
- جئتُ أحميكَ من شر هذه الطاحونة.

قال خائفًا:

- إنَّها مسكونة بالجن، لقد رأيتُ للتو جثث جنود الهجانة تتهاوَى في داخلها.

قلتُ:

- إنَّهم ليسوا سوى لصوص أتوا إلى القرية كي يدخلوا إلى هذه الطاحونة، أرجوكَ عُد الآن إلى بيتك، ولا تخرج منه حتى يطلع النهار.



لدرج فأسه وحدّثني غاضبًا:

- لستَ مساعدًا للخواجة فايز كما ادّعيت، من أنت؟

قلتُ وأنا أرفع يدي بأوراقي لتهدئته:

- اقرأ هذه الأوراق في الصباح وستعرف كل شيء، لقد دوّنتها خصيصًا من أجلك.

ولمّا تعلّق بصره بأوراقي تابعتُ وأنا أقترب منه:

- أعرف أنّ فضولك قادكَ إلى هنا كي تُلقي نظرة عبرَ فتحة الطاحونة قبل مغادرتكَ القرية بعدما شككتَ بدخول الجنود المختفين إليها، وأعرف أنّكَ قضيتَ الساعات الماضية تحاول إقناع نفسكَ الخائفة كي تتجرأ وتأتي إلى هنا في هذا التوقيت حتى أنّكَ تحدثتَ إلى لمبة الجاز نفسها، وأعرف أنّكَ تتمتم بآية الكرسي منذ أن ابتعدتَ عن البيوت واتخذتَ الطريق المؤدي إلى الأرض الزراعية.

سألني مستغربًا:

- هل كنتَ تتبعني منذ خرجتُ من بيتي؟!

قلتُ:

- لم أفعل، أقسم لك، ستجد كل شيء مُدوَّنًا في هذه الأوراق، فقط اطلع عليها في الصباح كما أخبرتكَ، وكُن متيقنًا أنّ كل حرف كُتِبَ فيها صادق تمامًا.

ثم تناهَى إلى مسامعي فجأة صوت زمجرة قريبة، وسُرعانَ ما ظهرَ الذئب بعينيه اللامعتين أمامنا، فتحركتُ مُجفلًا إلى جوار موسى الذي شعرتُ بارتعاشة جسده وهو يرفع فأسه نحوه، فهمستُ إليه:

- اخفض فأسكَ يا موسى.

لم يستمع إلى حديثي، ولوّحَ بفأسه خائفًا نحو الذئب الذي فتحَ فكّيه عن آخرهما مُظهرًا أنيابه الطويلة، فأعدتُ رجائي إليه:

- أرجوكَ يا موسى.

قالَ مرتعبًا:

- سيقتلنا.

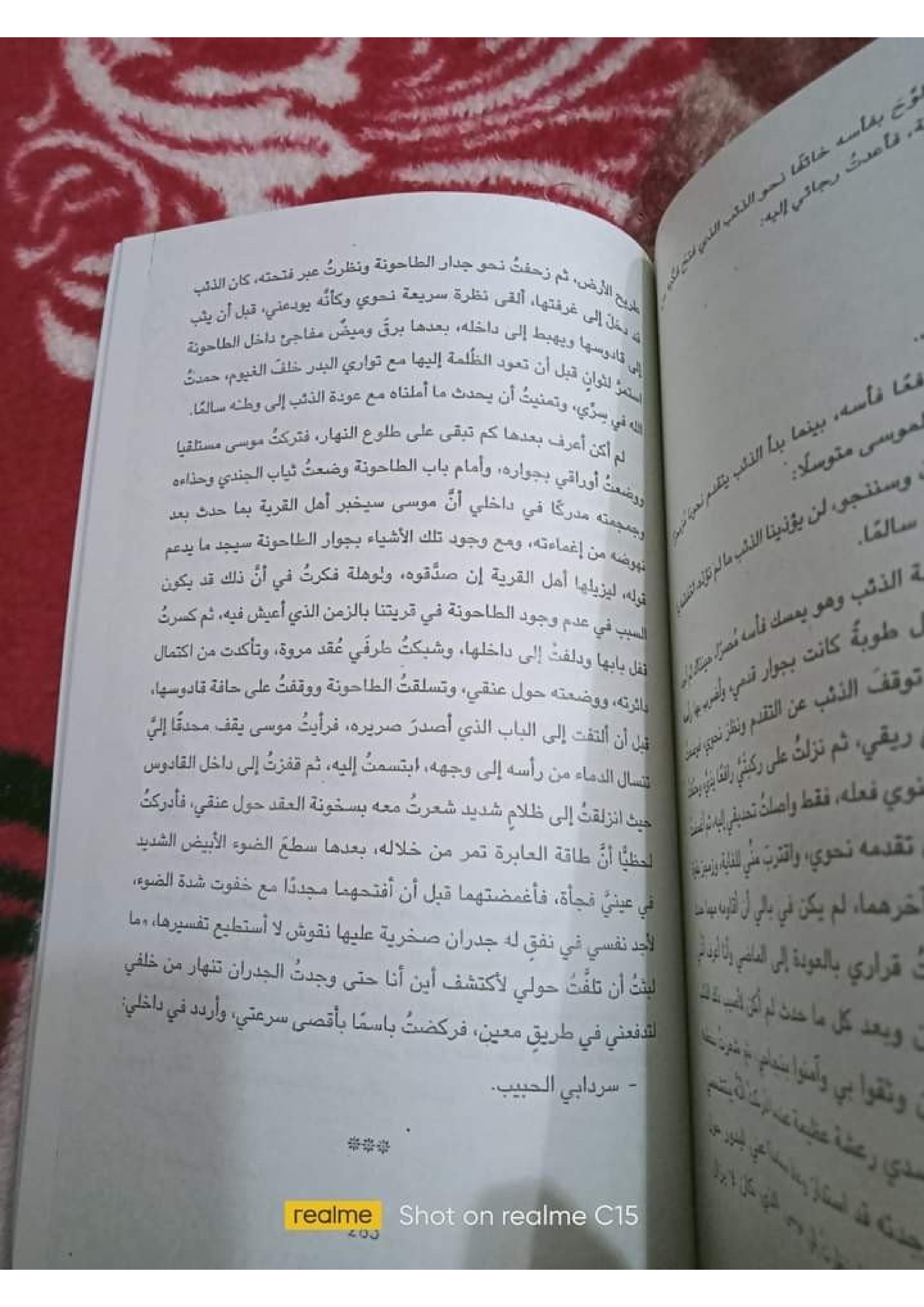
قلتُ:

- اخفض فأسكَ وحسب.

لم يستجب لي، وظلَّ رافعًا فأسه، بينما بدأ الذئب يتقدم نحونا مُزمجرًا ومتأهبًا للهجوم علينا، قلتُ لموسى متوسلًا:

- أرجوك، اخفض فأسكَ وسننجو، لن يؤذينا الذئب ما لم نؤذه، اخفضه يا موسى، وعُد إلى بيتكَ سالمًا.

فتقدم أمامي إلى مواجهة الذئب وهو يمسك فأسه مُصرًا، حينذاك لم أجد حلًا سوى أن أنحني وأحمل طوبةً كانت بجوار قدمي، وأضرب بها رأسه ليسقط فاقدًا وعيه، حينها توقفَ الذئب عن التقدم ونظرَ نحوي، فوضعتُ الطوبة إلى الأرض وأنا أبتلع ريقي، ثم نزلتُ على ركبتَيَّ رافعًا يدَيَّ، وحدّقتُ إلى عينيه دون أن أعرف ما ينوي فعله، فقط واصلتُ تحديقي إليه، ثم أغمضتُ عينَيَّ مستسلمًا عندما واصلَ تقدمه نحوي، واقتربَ منّي للغاية، وزمجرَ بقوة في وجهي فاتحًا فكّيه عن آخرهما، لم يكن في بالي أن أقاومه مهما حدث حتى وإن قتلني، لقد اتخذتُ قراري بالعودة إلى الماضي وأنا أعرف أنّني قد لا أعود إلى موطني، والآن وبعد كل ما حدث لم أكن لأصيب ذلك الذئب بأي أذى وأخيب آمال كل من وثقوا بي وآمنوا بنجاحي، ثم شعرتُ بخطمه يُلامس وجهي، فسرَت في جسدي رعشة عظيمة عندما أدركتُ أنَّه يتشممني، وحينما فتحتُ عيني مرتعبًا وجدته قد استدارَ وعادَ مبتعدًا عني ليدور حول الطاحونة، لم أتحرك من مكاني، فقط نظرتُ إلى موسى الذي كان لا يزال



طريح الأرض، ثم زحفتُ نحو جدار الطاحونة ونظرتُ عبر فتحته، كان الذئب قد دخل إلى غرفتها، ألقى نظرة سريعة نحوي وكأنّه يودعني، قبل أن يثب إلى قادوسها ويهبط إلى داخله، بعدها برقَ وميضٌ مفاجئ داخل الطاحونة استمرّ لثوانٍ قبل أن تعود الظُلمة إليها مع تواري البدر خلفَ الغيوم، حمدتُ الله في سرِّي، وتمنيتُ أن يحدث ما أملناه مع عودة الذئب إلى وطنه سالمًا.

لم أكن أعرف بعدها كم تبقى على طلوع النهار، فتركتُ موسى مستلقيا ووضعتُ أوراقي بجواره، وأمام باب الطاحونة وضعتُ ثياب الجندي وحذاءه وجمجمته مدركًا في داخلي أنَّ موسى سيخبر أهل القرية بما حدث بعد نهوضه من إغماءته، ومع وجود تلك الأشياء بجوار الطاحونة سيجد ما يدعم قوله، ليزيلها أهل القرية إن صدَّقوه، ولوهلة فكرتُ في أنَّ ذلك قد يكون السبب في عدم وجود الطاحونة في قريتنا بالزمن الذي أعيش فيه، ثم كسرتُ قفل بابها ودلفتُ إلى داخلها، وشبكتُ طرفَي عُقد مروة، وتأكدت من اكتمال دائرته، ووضعته حول عنقي، وتسلقتُ الطاحونة ووقفتُ على حافة قادوسها، قبل أن ألتفت إلى الباب الذي أصدرَ صريره، فرأيتُ موسى يقف محدقًا إليَّ تتسال الدماء من رأسه إلى وجهه، ابتسمتُ إليه، ثم قفزتُ إلى داخل القادوس حيث انزلقتُ إلى ظلامٍ شديد شعرتُ معه بسخونة العقد حول عنقي، فأدركتُ لحظيًا أنَّ طاقة العابرة تمر من خلاله، بعدها سطعَ الضوء الأبيض الشديد في عينيَّ فجأة، فأغمضتهما قبل أن أفتحهما مجددًا مع خفوت شدة الضوء، لأجد نفسي في نفقٍ له جدران صخرية عليها نقوش لا أستطيع تفسيرها، «ما لبثتُ أن تلفتُ حولي لأكتشف أين أنا حتى وجدتُ الجدران تنهار من خلفي لتدفعني في طريقٍ معين، فركضتُ باسمًا بأقصى سرعتي، وأردد في داخلي:

- سردابي الحبيب.

❁❁❁

واصلتُ ركضي بالطريق الذي يدفعني نحوه السرداب حتى توقفت الانهيارات من خلفي ما إن عبرت صورة السيد «فوريك» المنقوشة على جداره، فوقفتُ ألتقط أنفاسي قبل أن أتابع ركضي خارجًا منه إلى البيت المهجور الذي يعلوه، ومنه إلى بيتي.

كانت القرية ساكنة في ذلك التوقيت ليس إلا من بعض الشبان السهارى الذين تعجبوا قدومي من اتجاه الأراضي الزراعية في ذلك الوقت المتأخر. لم أهتم وواصلتُ طريقي إلى بيتي حيث قرعتُ الباب بقوة، لتفتح مني بغضبٍ شديد، احتضنتها، لكنَّها واصلت نظراتها الغاضبة نحوي، سألتها عن استقبالها الغريب، فقالت في ثورةٍ عارمة:

- أين كنتَ منذ الصباح؟ ولماذا هاتفكَ مُغلق؟ لقد أقلقتنا عليك، أنسيتَ أنَّ اليوم هو عيد ميلادكَ الأربعين؟ لقد صنعتُ كعكتك، وظلَّ يامن ينتظرك في الشرفة منذ وقت العصر كي يُطفئ معكَ الشموع، وعندما فقد الأمل في مجيئك خلدَ إلى النوم.

سألتها متعجبًا:

- اليوم عيد ميلادي الأربعين؟!

قالت مغمغمة وهي تغلق باب البيت:

- نسيتَ كالعادة!

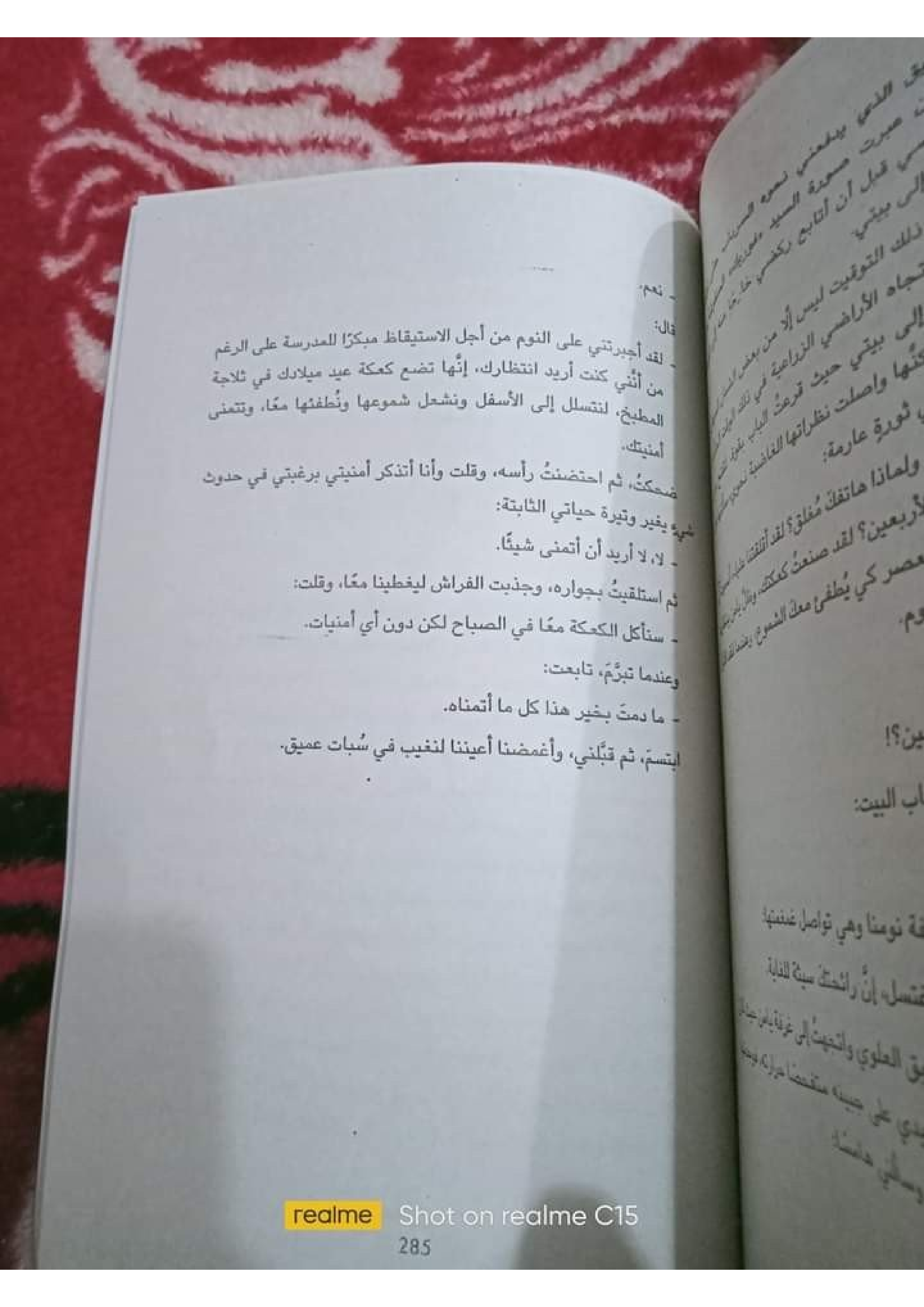
ثم تركتني وصعدت إلى غرفة نومنا وهي تواصل غمغمتها:

- قبل أن تأتي إلى الغرفة اغتسل، إنَّ رائحتكَ سيئة للغاية.

ضحكتُ، ثم صعدتُ إلى الطابق العلوي واتجهتُ إلى غرفة يامن حيث كان الصبي نائمًا في فراشه، وضعتُ يدي على جبينه متفحصًا حرارته، فوجدتها طبيعية تمامًا، فتحَ عينيه حينذاك، وسألني هامسًا:

- هل نامت أمي؟

أجبته هامسًا أنا أيضًا:



– نعم.

قال:

– لقد أجبرتني على النوم من أجل الاستيقاظ مبكرًا للمدرسة على الرغم من أنني كنت أريد انتظارك، إنَّها تضع كعكة عيد ميلادك في ثلاجة المطبخ، لنتسلل إلى الأسفل ونشعل شموعها ونُطفئها معًا، ونتمنى أمنيتك.

ضحكتُ، ثم احتضنتُ رأسه، وقلت وأنا أتذكر أمنيتي برغبتي في حدوث شيء يغير وتيرة حياتي الثابتة:

– لا، لا أريد أن أتمنى شيئًا.

ثم استلقيتُ بجواره، وجذبت الفراش ليغطينا معًا، وقلت:

– سنأكل الكعكة معًا في الصباح لكن دون أي أمنيات.

وعندما تبرَّمَ، تابعت:

– ما دمتَ بخير هذا كل ما أتمناه.

ابتسمَ، ثم قبَّلني، وأغمضنا أعيننا لنغيب في سُبات عميق.

3

قرية البهو فريك
قبل أيام من عيد ميلاد «خالد» الواحد والأربعين:

كان الوقت فجرًا عندما استيقظ كل من خالد ومنى على صوت جرس باب بيتهما، لتتساءل منى في استغراب:

- مَن يأتي إلينا في هذه الساعة؟!

فأجابها خالد ناعسًا:

- لا أعرف.

ثم نهض مُبدلًا ثيابه، ونزل إلى الطابق الأرضي، وفتح الباب متثائبًا، ليُفاجأ بمروة تقف أمامه، وتقول بأسارير منفرجة:

- لقد عدتُ يا صديقي العزيز.

فاتسعت حدقتا عينيه غير مصدق، فأردفت:

- لقد أوصلني الفارس إلى الملكة أسيل حيث بقيتُ في ضيافتها حتى عاد الملك تميم بجيشه إلى أماريتا، وأرسلَ معي فرقة من الفرسان قادتني إلى سرداب فوريك الذي عبرته مع بدر الأمس.

كانت منى قد نزلت إلى الأسفل، ولمّا تساءلت في استغراب عن تلك الضيفة التي أتت إلى بيتهما متأخرًا، ويبدو عليها أنّها تعرف زوجها جيدًا، قال خالد:

- لقد وصلت ضيفتنا للتو من أرض زيكولا، سأحكي لكِ كل شيء الآن.

قبل أن يُدخِل مروة إلى البيت وسط ذهول زوجته، وما لبثَ أن دلفَ إلى إحدى الغرف وعادَ إلى مروة بصورة جده القديمة التي كان يحمله فيها أبوه، وقال:

- انظري.

نظرت مروة إلى الصورة لتعود مُحدقة إلى خالد في تعجب شديد، فابتسمَ قائلًا:

- نعم، لقد اختفى الشيخ موسى وذئبه من الصورة.

قالت منى حينذاك:

- إنّني لا أفهم شيئًا.

فقال خالد:

- إنّها قصة طويلة لم أكن لأحكيها لكِ قبل أن تصل هذه الفتاة إلى بلدنا، وتؤكد صدق كل كلمة أقولها.

4

وادي الذئاب
بعد ثلاثة أعوام من حريق الغابة الثاني:

مهرولًا كان يتبع شابَّين نحو عجوزٍ مريض يستلقي على الأرض وسط زحام شديد، قبل أن ينزل على ركبتيه، ويبدأ في فحص حالته، حتى انتهى، فطمأنَ زوجته بأنَّ حالته ستتحسن مع أعشابه، بعدها نهضَ متأملًا القصور والبيوت الفخمة التي سرعان ما شُيِّدَت في ذلك الحي من «براقيا» خلال الشهور الماضية، قال له أحد الشابَّين اللذين رافقهما:

- نشكركَ سيد نوح على سرعة استجابتكَ لفحص أبينا.

فأجابه بابتسامة خجولٍ قبل أن يواصل تأمله لأسوار المدينة التي أعيد بناؤها من جديد، ولوجوه الأهالي السعداء الذين كانوا يسيرون جنبًا إلى جنبٍ مع الذئاب، حتى انتفضَ قلبه بقوة وتسارعت أنفاسه عندما رآها تسير برفقة ذئب، فركضَ إليها تاركًا كل شيء من حوله، وهو يهمس:

- ناي!

ولمَّا اقتربَ منها قال:

- ناي، إنّني نوح.

حاولت الفتاة تبيُّن الاتجاه الذي يأتي منه صوته، فأدركَ أنّها لا ترى، وتابعَ:

- ناي، إنّني هنا.

قالت الفتاة باسمة:

- هل تقصدني سيدي؟

قالَ:

- نعم.

قالت:

- إنَّ اسمي «فرح»، لا بد وأنَّكَ تبحث عن شخصٍ آخر.

ابتلعَ ريقه، لم تكن إلّا هي حتى وإن لم تتذكره، وسألها:

- هل أنتِ متزوجة؟

ضحكت وقالت في خجل:

- لا، ليس بعد.

قال:

- هل تتزوجينني؟

واصلت ضحكتها وهي تتحسس وجهه، وقالت:

- يبدو أنَّكَ وسيم أيها الشاب، ربما إن أتى يوم وسُمِحَ للملديات بأن يتزوجن من البشر سأفكر حينها في الأمر.

ابتسمَ وقال:

- حسنًا، سأنتظر حتى يأتي هذا اليوم.

ضحكَت، ثم غادرَت، فمكثَ مكانه ينظر إليها وهي تبتعد برفقة ذئبها، وبعد أن تسمَّرَ مكانه لدقائق ركضَ متتبعًا لها مُعلنًا في داخله أنّه لن يتركها تضيع من يديه مرة أخرى مهما حدث.

تمَّت بحمد الله.